
رومان غاري
(إميل أجار)
بؤساء بلفيل
(الحياة أمامك)
ترجمة:
صالح الأشمر
منشورات الجمل
رواية

رومان غاري (إميل اجار): بؤساء بلفيل

رومان غاري

(إميل أجار)

بؤساء بلفيل

(الحياة أمامك)

رواية

ترجمة :

صالح الأشمر

منشورات الجمل

رومان غاري (إميل أجار): بؤساء بلفيل (الحياة أمامك)، رواية

ترجمة: **صالح الأشمر**

Romain Gary (Emile Ajar): La vie devant soi, roman

الطبعة الأولى ٢٠٢١

منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٣١١١

الإمارات العربية المتحدة

© Al-Kamel Verlag 2021

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

قالوا: «لقد أصبحت مجنوناً بسبب مَن تُحِبّ»
قلت: «ما طعمُ الحياة إلا للمجانين»

رَوض الرياحين
اليافعي



أوّل ما يمكنني أن أقوله لكم هو أن مسكننا كان في الطابق السادس وكنا نصعد إليه على الأقدام، وكان هذا بالنسبة إلى السيدة روزا التي مع كل تلك الكيلوغرامات التي كانت تحملها على ساقين فقط مصدراً حقيقياً للحياة اليومية بكل الهموم والأحزان. كانت تذكّرنا بذلك ما لم تكن تشكو من ناحية أخرى، لأنها يهودية أيضاً. كما أن صحّتها لم تكن جيّدة ويمكنني أن أقول لكم أيضاً ومنذ البداية إنها كانت امرأة تستحقّ مِصعداً.

لا بدّ أنني كنت في الثالثة عندما رأيت السيدة روزا للمرّة الأولى. قبل ذلك لا تكون لنا ذاكرة ونعيش في الجهل. وقد توقّفتُ عن الجهل في سِنّ الثالثة أو الرابعة وأحياناً أفتقده.

كان في بلفيل كثير من اليهود، ومن العرب والسود، لكن السيدة روزا كانت وحدها مضطرّة إلى تسلّق الطوابق الستّة. كانت تقول إنها ستموت على الدرج ذات يوم، وعندها يبدأ الأطفال بالبكاء لأن هذا ما نفعله دائماً عندما يموت شخص ما. كنا هنالك سِتّة أو سبعة وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك.

في البداية لم أكن أعرف أن السيدة روزا كانت تعتني بي فقط من أجل الحصول على حوالة مالية في آخر الشهر. لم أعرف ذلك إلاّ عندما بلغت السابعة فصُدمت لأنها تتقاضى أجراً عني. كنت أعتقد أن السيدة

روزا تحبّني لا لشيء وأن كلاً منا يعني شيئاً للآخر. بكيت طوال الليل وكان ذلك أول حزن كبير ألمّ بي.

لاحظت السيدة روزا أنني كنت حزيناً وشرحت لي أن العائلة لا تعني شيئاً حتى أن هناك عائلات تذهب لقضاء الإجازة وتترك كلابها مقيّدة إلى الأشجار وأن ثلاثة آلاف كلب تموت سنوياً محرومة من عطف أصحابها. ثم وضعتني على رُكبتيها وأقسمت أنني أعزّ شيء لديها في العالم لكني فكّرت فوراً في الحوالة وتركتها باكياً.

نزلت إلى مقهى السيد إدريس في الأسفل وجلست أمام السيّد هاميل الذي كان بائع سجّاد متجوّلاً تنقّل في أرجاء فرنسا ورأى كل شيء. لدى السيد هاميل عينان جميلتان تشيعان الفرح من حوله. وكان متقدماً في السنّ عندما عرفته وهو منذ ذلك الحين لا يفعل شيئاً سوى التقدّم في السِنّ.

ـ سيّد هاميل، لماذا تبتسم دائماً؟

ـ بذلك أشكر الله على ذاكرتي الجيّدة، يا صغيري مومو.

اسمي محمّد لكن الجميع يناديني مومو كي أبدوَ أصغر.

ـ منذ ستّين سنة، عندما كنت شاباً، التقيت امرأة شابة أحبّتني وأحببتها أيضاً. دام ذلك ثمانية أشهر، ثم إنها غيّرت منزلها وما زلت أتذكّر، بعد ستّين سنة، أنني قلت لها: لن أنساكِ، وقد مرّت السنوات، ولن أنساها. في بعض الأحيان كنت أخاف إذ كان لا يزال لديّ كثير من الحياة أمامي وأي كلام كان يمكنني أن أقوله لنفسي، أنا الرجل المسكين، والله ممسك بالممحاة؟ لكنني الآن مرتاح البال. لن أنسى جميلة. بقي لديّ القليل جداً من الوقت، وسأموت قبل ذلك.

فكّرت في السيدة روزا، وتردّدت قليلاً ثم سألت:

ـ سيّد هاميل، هل يمكننا أن نعيش من دون حُبّ؟

لم يُجب. شرب جرعة من الشاي بالنعناع المفيد للصحة.

كان السيد هاميل يرتدي منذ بعض الوقت جلاّبية رمادية حتى لا يفاجأ وهو بالبدلة إذا تمّ استدعاؤه.

نظر إليّ وظلّ صامتاً. لا بدّ أنه يفكّر في أنّي ما زلت قاصراً وثمة أشياء لا ينبغي لي أن أعرفها. في ذلك الوقت كنت في السابعة أو ربّما الثامنة، لا يمكنني أن أُحدِّد لكم على وجه الدقّة لأنني لم أكن مسجّل القيد، كما سترون عندما نتعرّف على بعضنا البعض بشكل أفضل، إذا وجدتم الأمر يستحقّ العناء.

ـ سيّد هاميل، لماذا لا تردّ عليّ؟

ـ أنت صغير السِنّ جداً، وعندما نكون صغاراً جداً هناك أشياء من الأفضل أن لا نعرفها.

ـ سيّد هاميل، هل يمكننا أن نعيش من دون حبّ؟

ـ نعم، قال، وأحنى رأسه كما لو أنه خجل.

شرعت في البكاء.

بقيت لمدّة طويلة لا أعرف أنني عربي لأنه لم يشتمني أحد. علّموني ذلك في المدرسة فقط. لكنني لم أتعارك مع أحد على الإطلاق، فمن المؤلم دائماً أن نتعرّض بالضرب لأحد.

ولِدت السيدة روزا في بولونيا كيهودية لكنها كدّت في المغرب وفي الجزائر لسنوات وتعرف اللغة العربية مثلي ومثلكم. وتعرف اليهودية أيضاً للأسباب نفسها وغالباً ما كنا نتكلّم بتلك اللغة. كان معظم سكّان البناية من السود وكان في شارع بيسون ثلاثة منازل سوداء ومنزلان آخران حيث يعيشون في قبائل، كما يفعلون في إفريقيا. كانوا من السرغلة بوجه خاص وهم السواد الأعظم ومن التكرور وعددهم لا بأس به هم أيضاً. وهناك الكثير من القبائل الأخرى في شارع بيسون لكن ليس لديّ الوقت

لأسمّيها لكم كلها. وكان بقية سكّان الشارع وبولفار بلفيل من اليهود والعرب خاصة. ويستمرّ الوضع على هذا النحو حتى لاغوت دور ومن ثمّ تبدأ الأحياء الفرنسية.

في البداية لم أكن أعرف أنه ليس لي أُمّ ولم أعرف حتى أنه يجب أن تكون لي أُمّ. وتجنّبت السيدة روزا الحديث عن ذلك لكي لا تفتّح بصيرتي. لا أدري لماذا وِلِدتُ وماذا حدث بالضبط. قال لي صديقي الماهوت الذي يكبرني بعدّة سنوات إن شروط النظافة هي التي تفعل ذلك. كان هو قد وِلِد في حيّ القصبة بالجزائر العاصمة ولم يأتِ إلى فرنسا إلا بعد ذلك. لم يكن في القصبة نظافة بعد، وقد ولد لأنه لا يوجد مرحاض ولا مياه شرب ولا شيء. الماهوت تعلّم كل ذلك في ما بعد عندما حاول والده تبرير نفسه وأقسم له أنه لم يكن هناك سوء نيّة لدى أحد. قال لي الماهوت إن النساء اللواتي يدافعنَ عن أنفسهنّ لديهنّ الآن حبوب للنظافة لكنه وِلِد مبكّراً جداً.

كان لدينا الكثير من الأمهات اللواتي يأتين مرّة أو مرّتين في الأسبوع لكن من أجل الآخرين دائماً. كنا جميعاً تقريباً أبناء عاهرات في منزل السيدة روزا. وعندما كُنّ يذهبن لعدّة أشهر إلى المقاطعات ليكدُدنَ هناك كُنّ يأتين لرؤية أطفالهنّ قبل ذلك وبعده. على هذا النحو بدأت مشكلتي مع أمّي. بدا لي أن الجميع لديهم أمّ إلاّ أنا. بدأت أشعر بتقلّصات وتشنّجات في المعدة لجعلها تأتي. كان على الرصيف المقابل طفل لديه كُرة قال لي إن أمّه تأتي دائماً كلّما آلمته بطنه. شعرت بألم في بطني لكن من دون نتيجة ثم عانيت من تشنّجات بلا جدوى أيضاً. حتى أنني تغوّطت في كل مكان في الشقة لمزيد من لفت النظر. لا شيء. لم تأتِ أُمّي ونعتتني السيدة روزا بالدُبُر العربي للمرة الأولى، لأنها لم تكن فرنسية. صرخت فيها أنني أريد أن أرى أمّي وبقيت طوال أسابيع أتغوّط في كل مكان لكي أنتقم.

في النهاية قالت لي السيدة روزا إنها سترسلني إلى المساعدة العامة إذا تابعت التغوّط وهنا خفت لأن المساعدة العامة هي أول شيء يعلّمُ للأولاد. تابعت التغوّط من أجل المبدأ لكن هذه ليست حياة، آنذاك كنا سبعة أبناء عاهرات مقيمين عند السيدة روزا وبدأوا جميعاً يتنافسون في التغوّط فلا شيء أكثر امتثالاً من الأطفال وكان هناك كثير من الغائط في كل مكان بحيث لم يفطن لي أحد هنالك.

كانت السيدة روزا متقدّمة في السنّ ومتعبة من دون ذلك وساءها الأمر كثيراً لأنها كانت مضطهدة بالفعل كيهودية. كانت تتسلّق طوابقها السِتّة عدّة مرّات في اليوم مع وزنها البالغ خمسة وتسعين كيلوغراماً وساقيها الضعيفتين وعندما كانت تدخل وتشمّ الغائط تهوي مع رِزَمها على كنبتها وتبدأ بالبكاء لأن علينا أن نفهمها. كانت تقول إن الفرنسيين يعدّون خمسين مليون نسمة ولو أنهم فعلوا مثلنا لما قاومهم الألمان ولولّوا الأدبار. السيدة روزا كانت تعرف ألمانيا جيّداً أثناء الحرب لكنها عادت. كانت تدخل وتشمّ الغائط وتبدأ بالصراخ: «هذه أوشفيتز! هذه أوشفيتز!» لأنها كانت قد رُحّلت إلى أوشفيتز التي كانت من أجل اليهود، لكنها كانت عادلة دائماً على الصعيد العرقيّ. على سبيل المثال، كان عندنا موسى صغير وكانت تصفه بالجدي القذر وليس أنا أبداً. لم أدرك في ذلك الوقت أنها كانت حسّاسة على الرغم من وزنها. أخيراً صرفتُ النظر لأن ما فعلته لم يؤتِ أكلَه ولم تأتِ أمي لكنّ تقلّصات المعدة والتشنّجات لازمتني لفترة طويلة وما زلت حتى الآن أشعر أحياناً بألم في المعدة. بعد ذلك حاولت أن ألفت الأنظار بطريقة أخرى، فصرت أسرق من المتاجر، حبّة بندورة أو شمّامة من البسطة. كنت أنتظر أن يراني بعضهم فيُعلم ما فعلت. وحين يخرج صاحب المتجر ويصفعني أبدأ بالصراخ. لكن مع ذلك كان هناك من يهتمّ بي.

ذات المرّة كنت أمام محل بقالة وسرقت بيضة من طاولة العرض.

كان المحلّ لامرأة رأتني، وكنت أفضّل السرقة حيث تكون امرأة لأن الشيء الوحيد الذي كنت متأكّداً منه هو أن أُمّي كانت امرأة، إذ لا يمكننا خلاف ذلك. أخذت بيضة ووضعتها في جيبي. جاءت صاحبة المحل وانتظرتُ أن تصفعني لكي ألفت النظر جيّداً.

لكنها جلست القرفصاء بجانبي وداعبت رأسي، حتى أنها قالت لي:

ـ ما ألطفك، أنت!.

ظننت في البداية أنها تريد استعادة بيضتها بالعواطف فأمسكت بها جيداً في أسفل جيبي. ما كان عليها إلا أن تصفعني لكي تعاقبني فهذا ما يجب أن تفعله أمّ عندما تضبطكم بالجرم المشهود. لكنها نهضت وذهبت إلى الطاولة وأعطتني بيضة أخرى. ثم قبّلتني. حظيت بلحظة من الأمل لا أستطيع أن أصفها لكم لأن هذا غير ممكن. بقيت طوال النهار أمام المتجر منتظراً. ولا أعرف ماذا أنتظر.

كانت المرأة الطيبة تبتسم لي أحياناً وبقيت هناك وبيضتي في يدي. كان عمري ست سنوات أو حوالي ذلك واعتقدتُ أنها مقابل الحياة بينما كانت مجرّد بيضة. عدت إلى المنزل وعانيت من آلام في المعدة طوال اليوم. كانت السيدة روزا في قسم الشرطة للإدلاء بشهادة زور طلبتها السيدة لولا، وهذه السيدة هي رجل متخنّث تسكن في الطابق الرابع وتعمل في غابة بولونيا وكانت بطل ملاكمة في السنغال قبل أن يتخنّث.

كانت قد انهالت بالضرب في غابة بولونيا على زبون كان سيّئ الحظ باعتباره سادِيًا ولا يمكنه أن يعرف بشأنها. ذهبَت السيدة روزا لتشهد أنها كانت مع السيدة لولا في السينما ذلك المساء ثم شاهدتا التلفزيون معاً. سوف أخبركم المزيد عن السيدة لولا، التي كانت حقاً شخصاً لا يشبه الآخرين على كثرتهم، لذلك أحببتها.

جميع الأطفال سريعو العدوى. عندما يكون هناك واحد يكون الآخرون على الفور. آنذاك كنا سبعة عند السيدة روزا. اثنان منهم في النهار كان السيد موسى جامع القُمامة الذائع الصّيت يودعهما في وقت القُمامة الساعة السادسة صباحاً، وذلك في غياب زوجته التي ماتت من شيء ما. كان يعود فيأخذهما بعد الظهر لكي يهتمّ بهما. وهناك موسى الأصغر مني، وبانانيا الضحوك دائماً لأنه ولِد بمزاج طيّب، وميشال الذي كان والداه فيتناميين والذي ما كانت السيدة روزا لتبقيه يوماً واحداً بعد أن توقّفا عن الدفع لها منذ عام. هذه اليهودية كانت امرأة طيّبة ولكن كانت تلتزم بحدود. وهذا ما كان يحدث غالباً لأن النساء اللواتي يكافحنَ ويذهبن إلى أماكن بعيدة حيث يكون الأجر جيداً ويكثر الطلب عليهنّ كنّ يعهدنَ بأطفالهن إلى السيدة روزا ثم لا يعُدنَ. كنّ يغادرنَ ثم يكون الفشل المدوّي. كل هذا قصص أطفال لم يتم إجهاضهم في الوقت المناسب ولم يكن وجودهم ضرورة. كانت السيدة روزا تضعهم أحياناً لدى عائلات تشعر بالوحدة وتحيا في عوز لكن كان ذلك صعباً لأن هناك قوانين. عندما تضطرّ امرأة إلى الكدّ فليس لها الحق في أن تكون لها سلطة أبوية وفقاً لما تمليه الدعارة، لذلك فهي تخشى تجريدها من وصايتها وتخفي طفلها لئلا تراه مودَعاً، وتعمد إلى وضعه في الحضانة عند أشخاص تعرفهم وحيث التكتُّم مضمون. لا أستطيع أن أذكر لكم

كل أولاد العاهرات الذين رأيتهم يمرّون بمنزل السيدة روزا، لكن قلّة منهم كانوا هناك بصورة نهائية مثلي. كان أطولهم إقامة، بعدي، موسى وبنانيا، والفيتنامي الذي أخذه أخيراً مطعم في شارع موسيو لو برنس والذي لو التقيته الآن فلن أتعرّف عليه لبُعد العهد به.

عندما بدأت المطالبة بأمّي نعتتني السيدة روزا بالعربي الطمّاع قائلة إن كل العرب على هذه الشاكلة، نعطيهم اليد فيطلبون الذراع. لم تكن السيدة روزا هكذا بنفسها وقالت ذلك بسبب التحيُّزات فقط وكنت أعلم أنني المفضّل لديها. عندما كنت أبدأ بالصراخ يشرع الآخرون في الصراخ هم أيضاً فتجد السيدة روزا نفسها مع ستة أطفال يطالبون بأمهاتهم ويتنافسون تترى في الصراخ فكانت تعاني من أزمة هستيريا جماعية. كانت تنتف شعرها الذي لم يعد موجوداً وتنهمر دموعها لما تلقاه من عقوق، وتخفي وجهها بيديها وتواصل النحيب، غير أن هذا العُمر لا يرحم، حتى الجصّ كان يتساقط من الجدار لا لأنها كانت تبكي ولكن هذه مجرّد أضرار مادية. كان للسيدة روزا شعر رمادي يتساقط هو أيضاً لأنه لم يعد متماسكاً. كانت شديدة الخوف من أن تصبح صلعاء وهذا شيء رهيب بالنسبة إلى امرأة لم يعد لديها الكثير غيره. لم يعد لديها ردفان ولا نهدان مثل أي امرأة وعندما كانت تنظر في المرآة تبتسم ابتسامات كبيرة كما لو أنها تحاول أن تُعجب بنفسها. يوم الأحد كانت تلبس من من الرأس إلى أخمص القدم وتضع شعرها المستعار وتذهب للجلوس في ميدان بوليو وتبقى هناك عدة ساعات متأنّقة. كانت تتجمّل عدّة مرات في اليوم لكن ماعساها تفعل هناك. كانت مع الباروكة ومستحضرات التجميل تبدو أقلّ وضوحاً وكانت دائماً تضع الزهور في الشقة لكي يكون ما حولها أجمل.

عندما تهدأ كانت تسحبني إلى ركن صغير وتنعتني بالقائد وتقول لي إن القادة يُعاقَبون دائماً بالسجن. شرحت لي أن أمي كانت ترى كل ما

أفعل وإذا كنت راغباً في العثور عليها ذات يوم فيجب أن تكون لي حياة نظيفة ومستقيمة دون جنوح الأحداث. كان الركن الصغير أصغر بمكان والسيدة روزا لا تملؤه كله بسبب وسعِه ومن الغريب أن يوجد مثله لشخص وحيد. أعتقد أنها كانت لتشعرَ بمزيد من الوحدة هناك. عندما كانت الحوالات لأحدنا تتوقف عن الوصول، لم تكن السيدة روزا تلقي بالمذنب خارجاً. كانت هذه حالة الصغير بنانيا الذي كان مجهول الأب ولا يمكن أن يُلام على شيء. كانت أمّه ترسل القليل من المال كل ستة أشهر أو أكثر، وكانت السيدة روزا توبّخ بنانيا غير أنه لا يأبه إذ لم يكن له من العمر إلا ثلاث سنوات وابتسامات. أعتقد أن السيدة روزا ربما كانت ستسلّم بنانيا للمساعدة ولكن دون ابتسامته، ولّما كان لا يمكن تسليم أحدهما دون الآخر اضطرّت إلى الاحتفاظ بهما معاً. كنت أنا المكلّف بأخذ بنانيا إلى مساكن الأفارقة في شارع بيسون ليرى السود وكانت السيدة روزا حريصة جداً على ذلك.

ـ يجب أن يرى السود، بدون ذلك لن يتآلف معهم في ما بعد.

كنت آخذ بنانيا وأقوده إلى مكان قريب حيث يرحّبون به لأنهم أشخاص بقيت عائلاتهم في إفريقيا ووجود طفل يحمل على التفكير في طفل آخر. لم تكن السيدة روزا تعرف ما إذا كان بنانيا الذي يُدعى توريه مالياً أو سنغالياً أو كينياً أو شيئاً آخر، وكانت أمّه تكدّ في شارع سان ديني قبل أن ترجع إلى منزلها في أبيدجان وهذه أشياء لا يمكننا معرفتها في المهنة. لم يكن موسى منتظماً في الدفع هو أيضاً لكن السيدة روزا كانت مُحرجة فبالنسبة إلى المساعدة العامة لا يمكن لليهود أن يفعلوا ذلك في ما بينهم. أما أنا فكانت حوالتي البالغة ثلاث مئة فرنك تصل في مطلع كل شهر فلا مأخذ عليّ. أعتقد أن موسى كانت له أمّ وكانت تخجل ولا يعرف أهلها شيئاً وهي من عائلة محترمة، ثم إن موسى كان

أشقر بعينين زرقاوين وأنف غير مميّز وكانت هذه اعترافات عفوية، إذ يكفي إلقاء نظرة عليه.

فرنكاتي الثلاث مئة التي كانت تصل كاملة كل شهر فرضت احترامي على السيدة روزا. كنت داخلاً في سنواتي العشر وأشعر باضطرابات البلوغ المبكّر لأن العرب ينتعظون دائماً قبل غيرهم. لذلك كنت أعرف أنني أمثّل شيئاً صُلباً في نظر السيدة روزا وأنها ستنظر في الأمر مرّتين قبل إخراج الذئب من الغابة. هذا ما حدث في الركن الصغير عندما كنت في السادسة. ستقولون لي إنني أخلط السنوات لكن هذا غير صحيح وسأشرح لكم عندما يحين الوقت كيف أنني كبرت في السِنّ دفعة واحدة.

ـ إسمع، مومو، أنت الأكبر سِنّاً، وعليك أن تكون قُدوَة، لذلك لا تُحدث لنا الفوضى بعد الآن هنا مع أُمّك. أمّهاتكم، من حسن الحظ أنكم لا تعرفونهنّ، لأنه لا تزال لديكم حساسية في عُمركم، إنهنّ عاهرات وهذا غير مسموح به، ونعتقد حتى أننا نحلم أحياناً. هل تعرف ما هي العاهرة.

ـ هم أشخاص يكدّون بمؤخّراتهم.

ـ أتساءل من أين علمت بمثل هذه الفظائع، لكن هناك كثير من الحقيقة في ما قلته.

ـ أنتِ أيضاً، كنت قد كددتِ بمؤخّرتك، سيدة روزا، عندما كنت شابّة وجميلة.

ابتسمت. سَرّها سماع أنها كانت شابّة وجميلة.

ـ أنت صغير طيّب، مومو، لكن ابقَ هادئاً، ساعدني. أنا عجوز ومريضة. منذ خروجي من أوشفيتز لم أعرف إلا المتاعب.

كانت حزينة للغاية حتى أننا لم نرَ أنها كانت قبيحة. طوّقتُ عُنقها

بذراعي وقبّلتها. كان يقال في الشارع إنها امرأة بلا قلب وصحيح أنه لم يكن هناك من يعتني بها. لقد صمدت بلا قلب على مدى خمس وستّين سنة وكانت هناك أوقات يجب مسامحتها فيها.

بكت كثيراً حتى أنني رغبت في التبوّل.

ـ عذراً سيدة روزا، أريد أن أتبوّل.

بعد ذلك قلت لها:

ـ سيدة روزا، طيّب، بالنسبة إلى أمّي أعلم أن ذلك غير ممكن، لكن ألا يمكننا الحصول على كلب بدلاً منها؟

ـ ماذا؟ ماذا؟ أتظنّ أن لدينا مكاناً لكلب هنا؟ وماذا سأطعمه؟ من الذي سيرسل حوالة من أجله؟

لكنها لم تقل شيئاً عندما سرقت كلباً صغيراً رمادياً مجعّداً من وِجار في شارع كالفوتر وأتيت به إلى المنزل.

كنت قد دخلت إلى الوِجار وسألت إن كنت أستطيع أن أداعب الكلب الصغير فأعطتني المالكة الكلب عندما نظرتُ إليه كما أعرف أن أفعل. أخذته، وداعبته، ثم هربت به كالسهم. إن كان ثمة شيء أعرف أن أفعله فهو الركض. لا يمكننا بدون ذلك، في الحياة.

جلبت لنفسي مصيبة مع هذا الكلب، بدأت أحبه بما يتجاوز الحدّ. الآخرون أيضاً أحبّوه. ربما باستثناء بنانيا الذي لم يأبه به أبداً، فهو سعيد دائماً بلا سبب، فضلاً عن أنني لم أرَ قطّ أسود سعيداً بسبب. كنت أحمل الكلب بين ذراعي دائماً ولم أتمكن من إيجاد اسم له. كلّما فكرت في اسم طرزان أو زورو شعرت بأن في مكان ما اسماً لم يحمله أحد وهو ينتظر. أخيراً اخترت اسم سوبر لكن بكل تحفُّظ مع احتمال تغييره متى وجدت اسماً أجمل. كان في داخلي عنف متراكم فأعطيت سوبر كل شيء. لا أدري ماذا كنت لأفعل بدونه، كان الأمر عاجلاً حقاً، وكنت سأنتهي في السجن ربما. كنت أنزّهه فأشعر بكينونتي لأنني كنت كل ما لديه في العالم. أحببته كثيراً لدرجة أنني وهبته. كان عمري تسع سنوات أو حوالي ذلك ونحن نفكر بالفعل، في هذا العمر، إلا إذا كنا سعداء ربما. يجب أن أقول أيضاً دون الإساءة إلى أحد أن الجو عند السيدة روزا كان باعثاً على الحزن، حتى لو اعتدنا عليه. لذلك عندما بدأ سوبر يكبر في نظري من الناحية العاطفية أردت أن أصنع له حياة وهو ما كنت لأفعله من أجلي أنا شخصياً، إن أمكن ذلك. ألفت نظركم إلى أنه لم يكن أياً كان، بل كان كلباً جعيداً. ذات يوم قالت امرأة: آه يا له من كلب جميل. وسألتني إن كان لي وللبيع. كنت في ملابس رثّة وسحنتي ليست من البلد ولاحظتُ جيّداً أنه كلب من نوع آخر.

بعتها سوبر بخمس مئة فرنك وكانت صفقة حقاً. طلبت خمس مئة فرنك من المرأة الطيّبة لأنني أردت أن أكون واثقاً من إمكاناتها. حالفني الحظ، حتى أنها كانت تملك سيارة مع سائق وضعت سوبر داخلها على الفور، خشية أن يكون لي أهل قد يعترضون. والآن سأخبركم لأنكم لن تصدّقوني. أخذت الخمس مئة فرنك ورميتها في فتحة مجرور. ثم جلست على رصيف وبكيت مثل عجل واضعاً قبضتيّ على عينيّ لكنني كنت سعيداً. لا يوجد أمان في منزل السيدة روزا حيث كنا جميعاً معلّقين بخيط، مع العجوز المريضة بلا مال وعلى رؤوسنا المساعدة العامة ولم تكن هذه حياة لكلب.

حين عدت إلى المنزل وقلت للسيدة روزا إنني بعت سوبر بخمس مئة فرنك ورميتها في فتحة مجرور ارتاعت. نظرت إليّ وأسرعت إلى غرفتها فأقفلت على نفسها بقفلٍ مزدوج. بعد ذلك صارت تقفل على نفسها بالمفتاح لتنام وأحياناً لئلا أقطع حنجرتها مرّة أخرى. أما الأطفال الآخرون فاحتجّوا وأحدثوا صخباً شديداً عندما علموا بذلك مع أنهم لم يحبّوا سوبر حقاً وكان ذلك على سبيل اللهو فحسب.

كنا كثيرين في ذلك الوقت، سبعة أو ثمانية. سليمة التي تمكّنت أمّها من إنقاذها عندما وشى بها جيرانها بوصفها عاهرة تعمل على الرصيف وداهمتها المساعدة الاجتماعية لعدم أهليّتها، فما كان منها إلا أن أزاحت الزبون وتمكّنت من إخراج سليمة التي كانت في المطبخ عبر النافذة إلى الدور الأرضي وخبّأتها طوال الليل في صندوق قُمامة. في الصباح وصلت إلى منزل السيدة روزا مع الطفلة التي تفوح منها رائحة القُمامة وهي في حالة هستيرية. وأنطوان الذي كان هناك بشكل عابر وهو فرنسي حقيقي وابن الأصل الوحيد وكنا ننظر إليه جميعاً بانتباه لنرى كيف هو خَلقَه، لكنه كان يبلغ من العمر سنتين فقط لذلك لم نرَ الكثير. ثم إنني ما عدت أتذكّر أكثر من هؤلاء لأن الوضع كان يتغيّر باستمرار مع

الأمّهات اللواتي كنّ يأتين لاستعادة أطفالهنّ. كانت السيدة روزا تقول إن النساء اللواتي يكددن لا يحظين بدعم معنويّ لأن القوّادين لا يقومون غالباً بمهنتهم كما يجب. هنّ يحتجن إلى أولادهنّ ليجدنَ سبباً للعيش، وغالباً ما كنّ يرجعن عندما تسنح الفرصة أو حين يمرضنَ ويغادرنَ إلى الريف مع أطفالهنّ ليتمتعنَ بهم. لم أفهم أبداً لماذا لا يُسمح للعاهرات المصنّفات بتربية أولادهنّ، فالآخرون لا ينزعجون. تعتقد السيدة روزا أن للمؤخّرة أهمية كبيرة في فرنسا، ليست لها في مكان آخر، لذلك تأخذ هنا نِسباً لا يمكن تخيّلها عندما لا نراها. تقول السيدة روزا إن المؤخّرة هي أهم ما في فرنسا مع لويس الرابع عشر، لذلك كانت العاهرات، كما يسمّين، مضطهدات لأن النساء الفاضلات يردن المؤخّرة لهنّ وحدهنّ. أنا رأيت عندنا أمّهات يبكين بعد أن تم إبلاغ الشرطة أنهنّ أنجبن طفلاً في المهنة التي يمارسنها ويوشكن أن يمتنَ خوفاً. كانت السيدة روزا تطمئنهنّ وتشرح لهنّ أن لديها مفوّض شرطة كان هو نفسه ابن عاهرة وهو يحميها ولديها أيضاً يهودي عمل لها أوراقاً ثبوتية مزيّفة لا أحد يمكن أن يَطعن بها لكونها أصلية للغاية.

لم أرَ قَط هذا اليهودي لأن السيدة روزا كانت تخبّئه تعارفا في المهجع اليهودي في ألمانيا حيث لم يبادا عن طريق الخطأ وأقسما ألا يؤخذا بعد ذلك. كان اليهودي في مكان ما في حيّ فرنسي ويعمل أوراقاً مزيّفة كالمجنون. بفضله امتلكت السيدة روزا وثائق تثبت أنها كانت شخصاً آخر مثل الجميع بذلك. كانت تقول، أنه مع ما تحوزه، حتى الإسرائيليون لا يمكنهم أن يثبتوا شيئاً ضدّها. بالتأكيد، لم تكن مطمئنة أبداً فمن أجل ذلك يجب أن يكون المرء ميتاً. الذعر ملازم للحياة دائماً.

قلت لكم إذن إن الأطفال احتجّوا وصخبوا لساعات بعدما أعطيت المرأة سوبر لكي أضمن مستقبله غير الموجود عندنا، باستثناء بانانيا

الذي كان سعيداً جداً كالمعتاد. أنا أقول لكم إن هذا الوغد لم يكن من هذا العالم وقد بلغ الرابعة وما زال سعيداً.

أول ما فعلته السيدة روزا في اليوم التالي هو أنها جرّتني إلى الدكتور كاتز ليرى إن كنت مختلاً.

أرادت السيدة روزا أن يجري لي فحص دم ومعرفة ما إذا كنت مصاباً بداء الزُهري كعربي لكن الطبيب استشاط غضباً حتى كانت لحيته تهتزّ، لأنني نسيت أن أقول لكم إن له لحية. وبّخ السيدة روزا بأشياء من حواضر البيت وصرخ فيها قائلاً إن هذه مثل شائعات أورليان.

هذه الشائعات كانت قد انتشرت في مدينة أورليان ومفادها أن اليهود العاملين في تجارة الملابس الجاهزة كانوا يخدّرون النساء لإرسالهنّ إلى بيوت الدعارة وكان الجميع يحقدون عليهم، وينسبون إليهم أشياء لا أساس لها.

كانت السيدة روزا لا تزال مضطربة.

- كيف حدث ذلك بالضبط؟

- أخذ خمس مئة فرنك ورماها في فتحة مجرور.

- هذه أوّل نوبة عنف له؟

نظرت إليّ السيدة روزا دون أن تردّ وكنت حزيناً للغاية. لم أرغب أبداً في إيلام الناس. أنا فيلسوف. كان خلف الدكتور كاتز قارب شراعي بأجنحة بيضاء على مدفأة. ولما كنت تعيساً أردت أن أذهب بعيداً جداً، بعيداً منّي، فجعلته يطير وركبت متنه وعبرت محيطات بيد واثقة. من هناك، على ما أعتقد، على متن القارب الشراعي للدكتور كاتز سافرت بعيداً للمرّة الأولى. حتئذٍ لا أستطيع القول إنني كنت طفلاً. وما زلت حتى الآن أستطيع أن أركب القارب الشراعي للدكتور كاتز وأذهب بعيداً على متنه. لم أخبر بذلك أحداً وكنت أتظاهر دائماً بأنني كنت هناك.

ـ دكتور، أرجوك أن تفحص جيّداً هذا الطفل، لقد منعتني من التعبير عن مشاعري بسبب قلبي، وباع أعزّ ما كان لديه في العالم ورمى خمس مئة فرنك في فتحة مجرور، حتى في أوشفيتز ما كنا لنفعل ذلك.

كان الدكتور كاتز معروفاً جداً من قِبل جميع اليهود والعرب حول شارع بيسون برأفته المسيحية وكان يعالج الجميع من الصباح إلى المساء وحتى بعد ذلك. أحتفظ له بأطيب الذكريات فعيادته كانت المكان الوحيد الذي سمعت فيه من يتحدّث عني وحيث كان يفحصني كما لو كنت شيئاً مهماً.

غالباً ما كنت أقصده وحدي، لا لأنني مريض، بل للجلوس في غرفة الانتظار. كنت أبقى هناك وقتاً طويلاً. وكان يلاحظ أنني هناك لا لشيء سوى احتلال كرسيّ فيما يشهد العالم كثيراً من البؤس، لكنه كان يبتسم لي دائماً بأدب جمّ ولم يكن غاضباً. وغالباً ما كنت أفكر وأنا أنظر إليه أنه لو كان لي أب لكنت قد اخترت الدكتور كاتز أباً.

ـ كان يحبّ هذا الكلب حباً يتجاوز المسموح به، وكان يأخذه بين ذراعيه لينام وماذا فعل؟ باعه ورمى بالمال. هذا الطفل ليس كسائر الأطفال، دكتور، أخاف من حالة جنون مفاجئ وراثية في عائلته.

ـ أستطيع أن أطمئنك أنه لن يحدث شيء، لا شيء على الإطلاق، سيدة روزا.

بدأت أبكي، كنت أعلم أنه لن يحدث شيء، لكن كانت هذه المرّة الأولى التي أسمع فيها ذلك علناً.

ـ لا داعي للبكاء، يا صغيري محمد. لكن يمكنك أن تبكي إذا كان ذلك يريحك. هل يبكي كثيراً؟

ـ أبداً، قالت السيدة روزا. أبداً لا يبكي هذا الطفل. ومع ذلك يعلم الله أنني أعاني.

ـ حسناً، ها أنت ترين أن الأمور على ما يُرام، قال الدكتور، ها هو يبكي، إنه يتطوّر بشكل طبيعي. لقد أحسنتِ صنعاً بإحضاره إليّ، سيدة روزا، سأصف لك مهدّئات. إنها للقلق فقط عندك.

ـ عندما نهتمّ بالأطفال لا بد أن نقلق كثيراً، دكتور، بدون ذلك يصبحون زُعراناً.

عندما غادرنا مشينا في الشارع يداً بيد، فالسيدة روزا تحبّ أن تُرى برفقة أحد. من عادتها أن تستغرق وقتاً طويلاً في ارتداء ملابسها لأنها كانت امرأة وبقيت كذلك لبعض الوقت. وكثيراً ما كانت تتجمّل لكن لا فائدة من محاولة الاختباء في سِنها. لها رأس مثل ضفدعة عجوز يهودية مع نظّارة ورَبْو. حين كانت تصعد الدرج مع المؤونة كانت تتوقف من وقت إلى آخر وتقول إنها سوف تسقط ميتة في يوم من الأيام وهي في المنتصف، كما لو كان من الأهميّة بمكان إنهاء الطوابق الستة كلها.

وجدنا في المنزل السيد نْدا أميدي، القوّاد الذي يُدعى أيضاً القيّاد[1]. إذا كنتم تعرفون المنطقة فأنتم تعلمون أنها مكتظّة دائماً بالسكّان الأصليين الذين يأتون إلينا من إفريقيا، كما يدلّ عليه هذا الاسم. لديهم العديد من المنازل التي تُسمّى الأكواخ القذرة حيث لا تتوافر الاحتياجات الأساسية، مثل النظافة والتدفئة من قِبل مدينة باريس التي لا تصل إليها. هناك منازل سوداء فيها مئة وعشرون ساكناً كل ثمانية في غرفة ومرحاض واحد في الطابق السفلي لذلك فهذه الأشياء تنتشر في كل مكان لأننا لا يمكن أن نجعلها تنتظر. قبلي، كانت هناك أحياء فقيرة لكن فرنسا هدمتها لكي لا تُرى. تروي السيدة روزا أنه كان في أوبرفيلييه منزل اختنق فيه السنغاليون من جرّاء مواقد الفحم التي توضع في غرفة مغلقة النوافذ وفي اليوم التالي كانوا موتى، اختنقوا بالتأثيرات السيّئة الصادرة عن الموقد وهم نائمون نوم الصالحين. كثيراً ما كنت أذهب لرؤيتهم بالقرب من شارع بيسون وكانوا يحسنون استقبالي دائماً. كانوا مسلمين مثلي في معظم الأحيان لكنّ هذا ليس سبباً. أعتقد أنهم كانوا سعداء لرؤية طفل

---

(١) يخطئ الولد في النطق بكلمة Proxenete ومعناها قوّاد، فيقول Proxynete وهذه لا وجود لها في اللغة الفرنسية، لذلك استعملنا معادلاً لها هو قيّاد وهذه لا وجود لها بالعربية (المترجم).

عمره تسع سنوات وليس في رأسه أيّ فكرة بعد. الكبار في رؤوسهم أفكار دائماً. على سبيل المثال، ليس صحيحاً أن السود كلهم متشابهون.

السيدة سامبور، التي تطبخ لهم، لا تشبه أبداً السيد دِيا عندما نعتاد على الظلام. لم يكن السيد دِيا طريفاً، وكانت له عينان كما لو أنهما لإثارة الخوف. كان يقرأ طوال الوقت، وكان لديه أيضاً موسىً طويل بهذا الحجم لا ينطوي عندما يضغط على شيء وكان يستعمله للحلاقة، لكن هذا مجرّد كلام. كانوا خمسين في المنزل ويُطيعه الجميع. حين لا يكون مستغرقاً في القراءة كان يمارس تمارين رياضية على الأرض ليكون الأقوى. كان قوياً جداً لكن لم يكن لديه من القوّة ما يكفي. لم أفهم لماذا يبذل سيد ممتلئ الجسم فعلاً مثل هذا الجهد ليزداد امتلاءً. لم أسأله شيئاً لكنني أعتقد أنه لا يشعر بأنه ممتلئ بما يكفي لكل ما يريد أن يقوم به. أنا أيضاً أريد أحياناً أن أموت لشدّة رغبتي في أن أكون قوياً جداً. في بعض الأحيان أحلم بأن أصبح شرطياً فلا أشعر بعد بالخوف من أيّ شيء أو أي أحد. كنت أمضي وقتي في الطواف حول مركز الشرطة في شارع ديدون لكن بلا أمل، لأنني أعلم جيداً أن ذلك مستحيل وأنا في التاسعة، وما زلت قاصراً جداً. حلمت أن أكون واحداً من رجال الشرطة لأن لديهم القوة الأمنية. اعتقدت أنهم الأقوى، ولم أكن أعلم بوجود مفوّضي الشرطة، وظننت أن الأمر ينتهي هنا. ولم أعلم إلا في ما بعد أن هناك ما هو أفضل بكثير، لكنني لم أتمكّن أبداً من الترقّي لمنصب مدير الشرطة فهذا الأمر يفوق خيالي. لا بد أنني كنت في الثامنة أو التاسعة أو العاشرة وكنت خائفاً جدّاً من أن أجدني بلا أحد في العالم. كلّما وجدت السيدة روزا صعوبة في تسلّق الطوابق الستّة، وكلّما جلست بعد ذلك، كنت أشعر بنفسي أقلّ وكنت أخاف.

هناك أيضاً مسألة تسجيل قيدي التي كانت تؤرّقني كثيراً خصوصاً عندما طردوني من المدرسة قائلين إنني صغير جداً بالنسبة إلى عمري،

على كل حال لم يكن هذا مهمّاً فالشهادة التي تثبت أنني ولِدت وأنني في وضع قانوني كانت مزوّرة. كما قلت لكم، كانت لدى السيدة روزا عِدّة شهادات في المنزل ويمكنها حتى أن تثبت أنها لم تكن يهودية على الإطلاق منذ عدّة أجيال، إذا ما قامت الشرطة بالتفتيش للعثور عليها. كانت محميّة من جميع الجهات منذ أن قبضت عليها الشرطة الفرنسية التي كانت تزوّد الألمان ووضِعت في ميدان درّاجات لليهود. بعد ذلك نُقلت إلى مأوى يهودي في ألمانيا حيث جرى إحراقهم. كانت تعيش في خوف دائم، ولكن ليس كسائر الناس، وكانت لا تزال تشعر بمزيد من الخوف.

في إحدى الليالي سمعتها تصرخ في منامها فاستيقظتُ ورأيتها تنهض. كان لدينا غرفتان تحتفظ بإحداهما لها وحدها، إلاّ في حالة الازدحام فننام أنا وموسى معها.

هذا ما كان في تلك الليلة غير أن موسى لم يكن معنا لأن عائلة يهودية بلا أطفال أبدت اهتمامها به وأخذته إلى منزلها لترى إن كان صالحاً للتبنّي. لكنه ما لبث أن عاد خائباً لفرط ما بذل من جهد لإرضاء هذه العائلة التي كانت تملك محلاً لبيع اللحم الحلال على الطريقة اليهودية في شارع تينيه.

عندما صرخت السيدة روزا أيقظني صراخها. أضاءت الغرفة وفتحت أنا عيناً واحدة. كان رأسها يرتجف وبدت عيناها وكأنهما تنظران إلى شيء ما. ثم خرجت من السرير وارتدت ثوب الحمّام وتناولت مفتاحاً كان مخبّأً تحت الخزانة. كانت حين تنحني تبدو مؤخرتها أكبر من المعتاد.

ذهبت إلى الدرج ونزلت، تبعتها لأنها كانت شديدة الخوف من ألاّ أجرؤ على البقاء وحدي.

كانت السيدة روزا تنزل الدرج تارة في الضوء وطوراً في الظلام لأن مؤقّت الضوء كان قصيراً جداً لأسباب اقتصادية وكان وكيل البناية وَغداً. حين حلّ الظلام للحظة قمت أنا بتشغيله كالأحمق فأطلقت السيدة روزا صرخة بينما كانت في طابق أدنى، وظنّت أن هناك حضوراً بشرياً. نظرتُ إلى الأعلى ثم إلى الأسفل ثم تابعت النزول وأنا أيضاً لكن دون أن ألمس المؤقّت بعد ذلك لكي لا نخاف كلانا. لا أدري ماذا كان يجري، أقلّ من المعتاد أيضاً، ودائماً ما كان يخيفنا أكثر. كانت ركبتاي ترتجفان وكان أمراً مريعاً رؤية هذه اليهودية وهي تنزل الطوابق ببراعة وحذر كما لو كان المكان مليئاً بالأعداء بل أسوأ.

حين وصلت السيدة روزا إلى الطابق الأرضي لم تخرج إلى الشارع بل استدارت يساراً نحو درج القبو حيث لا يوجد ضوء ويعمّ الظلام حتى في الصيف. كانت السيدة روزا تمنعنا من الذهاب إلى ذلك المكان لأنهم يخنقون الأطفال هناك.

عندما نزلت السيدة روزا هذا الدرج اعتقدت حقاً أن هذه نهاية حبّات الفاصوليا التي أصبحت قرداً وأردت أن أسرع لإيقاظ الدكتور كاتز. لكنني في تلك اللحظة خفت كثيراً وفضّلت البقاء هناك وألاّ آتي بحركة لإيماني بأنني لو تحركت لصرخت وتقافزت عليّ من كل الجهات وحوش ستخرج دفعة واحدة بدلاً من بقائها مختبئة، كما كانت تفعل منذ ولادتي.

عندئذ رأيت قليلاً من الضوء ينبعث من القبو فشعرت ببعض الطمأنينة، قلّما تضيء الوحوش فالظلام هو ما يلائمها.

نزلتُ إلى الممرّ الذي كانت تفوح فيه رائحة البول بل أسوأ فلم يكن هناك سوى مرحاض واحد لمئة شخص في المنزل الأسود المجاور وكانوا يفعلون ذلك حيثما استطاعوا. كان القبو مقسّماً إلى عدّة غرف

وكان أحد الأبواب مفتوحاً فولجته السيدة روزا ومن هناك انبعث الضوء. نظرت.

كان في وسط الغرفة كنبة حمراء غائرة، قذرة ومتهافتة، جلست عليها السيدة روزا. وكانت الجدران عبارة عن حجارة برزت كالأسنان وبدا أنها مغرقة في الضحك. وكان ثمة شمعدان بفروع يهودية موضوع على صُوان مع شمعة مشتعلة. ولشدّ ما دُهشت لرؤية سرير متهالك جدير بالرمي لكن مع فراش وأغطية ووسائد. وكان هناك أيضاً أكياس بطاطا، وموقد، وصفائح، وعُلب كرتونية مليئة بالسردين. بلغت من الدهشة حدّ أنني لم أعد خائفاً، غير أن مؤخّرتي كانت عارية وبدأت أشعر بالبرد. بقيت السيد روزا بعض الوقت على الكنبة الرثة وكانت تبتسم بسعادة. بدت ماكرة وحتى منتصرة. كما لو أنها فعلت شيئاً بارعاً جداً وقوياً جداً. ثم نهضت. تناولت من إحدى الزوايا مكنسة وبدأت تكنس القبو. لم يكن خليقاً بها أن تفعل ذلك لأنه أحدث غباراً وهو أسوأ شيء لربوها. وعلى الفور بدأت تشعر بصعوبة في التنفّس ويخرج صفير من قصبتها الهوائية، لكنها استمرت في الكنس ولم يكن هناك من يقول لها ذلك غيري، فلا أحد يأبه. لقد دفعوا لها بالطبع لتعتني بي والشيء الوحيد المشترك بيننا هو أنه لم يكن لدينا شيء ولا أحد. لكن لا شيء أسوأ للربو من الغبار. بعد ذلك تركت المكنسة وحاولت أن تطفئ الشمعة بالنفخ عليها لكن لم يكن لديها ما يكفي من النفس على الرغم من حجمها الكبير، فما كان منها إلا أن بلّلت أصابعها بلسانها وضغطت بها على الشمعة فانطفأت. عندها انسحبت أنا مدركاً أنها انتهت وسوف تصعد ثانية.

حسناً، لم أفهم من ذلك شيئاً، لكنه أحدث شيئاً آخر. لم أعرف أبداً لماذا ارتضت أن تهبط ستة طوابق وتثير الغبار منتصف الليل لكي تجلس في قبوها بهيئة ماكرة.

عندما صعدت لم تكن خائفة وأنا مثلها لأن هذا الأمر مُعدٍ. نمنا بجانب نوم العادل. فكّرت كثيراً في هذا الأمر وأعتقد أن السيد هاميل يخطئ عندما يقول ذلك. أعتقد أن الظالمين هم الذين ينامون نوماً أفضل، لأنهم لا يأبهون، بينما لا يستطيع العادلون إغماض أعينهم ويقلقون لكل شيء. وإلا فلن يكونوا عادلين. السيد هاميل لديه دائماً عبارات يبحث عنها، مثل «صدّق خبرتي القديمة» أو «كما كان لي شرف إخبارك» وعبارات أخرى كثيرة تعجبني، وتجعلني أفكر فيه. كان رجلاً كما لو أننا لا نستطيع أن نصنع أفضل منه. علّمني كتابة «لغة أجدادي» وكان يقول «أجداد» دائماً لأنه لم يرغب قطّ أن يحدّثني عن والديّ. جعلني أقرأ القرآن، لأن السيدة روزا كانت تقول إن ذلك جيّد للعرب. عندما سألتها كيف عرفت أن أسمي محمّد وأنني مسلم صالح بينما لم يكن لي أب ولا أُمّ ولا توجد أي وثيقة تثبت ذلك انزعجت وقالت إنها ستشرح لي ذلك ذات يوم عندما أصبح كبيراً وصلباً، لكنها لا تريد أن تُحدث لي صدمة رهيبة وأنا ما زلت حسّاساً. كانت تقول إن أول شيء يجب مراعاته لدى الأطفال هو الحساسية.

مع ذلك ما كنت لأهتمّ بأن أمي كانت تكدّ في ما لو عرفتها فلسوف أحبها وسأكون قيّاداً جيداً لها، مثل السيد نْدا أميدي الذي تشرّفت بمعرفته. كنت سعيداً جداً بوجود السيدة روزا لكن إن كان بإمكاني الحصول على شخص أفضل وأكثر لي فلن أقول لا، تبّاً. كنت أستطيع الاهتمام بالسيدة روزا أيضاً حتى وإن كانت لي أمّ حقيقية عليّ الاهتمام بها. السيد نْدا لديه عدّة نساء يوفّر لهنّ الحماية.

إن كانت السيدة روزا قد علمت أنني محمد وأنني مسلم فذلك لأن لي أصولاً ولست بلا شيء. أردت أن أعرف أين كانت أمي ولماذا لا تأتي لرؤيتي. لكن عندئذٍ بدأت السيدة روزا بالبكاء وقالت إنني ناكر للجميل ولا أشعر بشيء حيالها وأنني أريد شخصاً آخر غيرها. صرفتُ

النظر. طيّب، كنت أعلم أنه عندما تدافع امرأة عن نفسها في الحياة يوجد دائماً لغز حين يكون لها طفل لم تتمكن من إيقافه في الوقت المناسب من خلال النظافة وينتج عن ذلك ما نطلق عليه بالفرنسية أولاد العاهرات، لكن الغريب أن السيدة روزا كانت متأكدة ومتيقّنة أنني محمد ومسلم. ثم إنها لم تخترع ذلك لإرضائي. تحدّثتُ عن ذلك مع السيد هاميل عندما كان يروي لي حياة سيدي عبد الرحمن شفيع الجزائر.

كان السيد هاميل قد جاءنا من الجزائر حين أدّى فريضة الحج إلى مكة منذ ثلاثين عاماً. لذلك كان سيدي عبد الرحمن هو قدّيسه المفضّل لأن القميص أقرب إلى الجسد دائماً، كما يقول. لكن لديه أيضاً سجّادة تظهر مواطنه الآخر سيدي الوالي دادا الجالس دائماً على سجّادة صلاته التي تسحبها الأسماك. قد لا يبدو ذلك جدّياً، أسماك تسحب سجادة في الهواء، لكن هذا ما يريده الدين.

ـ سيد هاميل، كيف حدث أنني معروف باسم محمد وأنني مسلم بينما ليس لديّ ما يُثبتني؟

السيد هاميل يرفع دائماً يده عندما يريد أن يقول ما شاء الله كان.

ـ السيدة روزا استقبلتك عندما كنت صغيراً جداً وليس لديها سجّل ميلادك. منذ ذلك الحين استقبلت العديد من الأولاد ورأتهم يذهبون، يا صغيري محمد. لديها السرّ المهني، لأن هناك سيدات يطلبن الكتمان. لقد سجّلتك باسم محمد، وبالتالي فأنت فأنت مسلم. ثم إن مؤلّف أيامك اختفى ولم يترك علامة على أنه حيّ والعلامة الوحيدة التي تركها هي أنت، يا صغيري محمد. وأنت ولد جميل، يجب أن تعتقد أن والدك قُتل في حرب الجزائر وهذا شيء جميل وعظيم. إنه بطل الاستقلال.

ـ سيد هاميل، أنا كنت لأفضّل أن يكون لي والد على أن يكون لي بطل. كان من الأفضل أن يكون قيّاداً ويعتني بأمّي.

ـ لا ينبغي أن تقول أشياء كهذه، يا صغيري محمد، ينبغي التفكير أيضاً في اليوغسلافيين والكورسيكيين. إننا نضع الكل على ظهورنا دائماً. من الصعب تربية ولد في هذا الحيّ.

لكن كان لديّ انطباع بأن السيد هاميل يعرف شيئاً لم يقله لي. كان رجلاً في منتهى الطيبة ولو لم يكن بائع سجّاد متجوّلاً طوال حياته لأمكنه أن يكون شخصاً جيّداً جداً ولربما كان هو نفسه جالساً على بساط طائر تسحبه الأسماك مثل قدّيس المغرب الآخر سيدي الوالي دادا.

ـ ولماذا طردوني من المدرسة، سيد هاميل؟ السيدة روزا أخبرتني أن ذلك يعود إلى أنني كنت صغيراً جداً بالنسبة إلى عمري ثم كنت أكبر من عمري ثم لم يكن لديّ العمر الذي ينبغي أن أكون عليه ثم سحبتني إلى الدكتور كاتز الذي قال لها إنني قد أصبح مختلفاً جداً، مثل شاعر عظيم.

بدا السيد هاميل حزيناً جداً. عيناه أوحتا بذلك. الناسُ دائماً هم أكثر حزناً في عيونهم.

ـ أنت ولد حساس جداً، يا صغيري محمد. هذا يجعلك قليلاً مختلفاً عن الآخرين...

ابتسم.

ليست الحساسية هي ما يقتل الناس اليوم، كنا نتكلم بالعربية، وهذا لا يقال بنحو أفضل في الفرنسية.

ـ هل كان أبي من كبار قطاع الطرق، سيد هاميل، والجميع يخاف منه، حتى من الحديث عنه؟

ـ لا، لا، صدقاً لا، محمد، لم أسمع شيئاً من هذا أبداً.

ـ وماذا سمعت، سيد هاميل.

نظر إلى أسفل وتنهّد.

ـ لا شيء.

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء.

كان هذا نفس المنوال معي دائماً. لا شيء.

انتهى الدرس وبدأ السيد هاميل يحدّثني عن نيس، وهو حديثي المفضّل. عندما يتحدّث عن مهرّجين يرقصون في الشوارع وعمالقة سعداء يجلسون على العربات أشعر بأنني في بيتي. أحبّ أيضاً غابات الميموزا الموجودة هناك وغابات النخيل وهناك طيور بيضاء كلها ترفرف بأجنحتها وكأنها تصفّق لأنها سعيدة للغاية. ذات يوم أقنعت موسى ورفيق آخر له اسم مختلف بأن نذهب إلى نيس سيراً على الأقدام والعيش هناك مما نصطاده في غابة الميموزا. انطلقنا ذات صباح وبلغنا ساحة البيغال وهناك تملّكنا الخوف لأننا كنا بعيدين عن منزلنا فعدنا أدراجنا. ظنّت السيدة روزا أنها أصبحت مجنونة لكنها تقول ذلك دائماً للتعبير عن نفسها.

إذن، كما كان لي الشرف، عندما عدنا، أنا والسيدة روزا، بعد تلك الزيارة للدكتور كاتز وجدنا في المنزل السيد نْدا أميدي، الرجل الذي يرتدي أفضل لباس يمكنكم أن تتخيّلوه. إنه أكبر قيّاد وقوّاد بين جميع السود في باريس وجاء ليرى السيدة روزا لكي تكتب له رسائل إلى عائلته وكان لا يريد أن يخبر أي شخص آخر أنه لا يعرف الكتابة. كان يرتدي بدلة من الحرير الوردي يمكن لمسها وقبعة وردية مع قميص وردي. وكانت ربطة العنق وردية أيضاً. وهذا الزيّ جعله متميّزاً. كان قد جاءنا من النيجر وهي إحدى بلدانهم العديدة في إفريقيا وصنع نفسه بنفسه. وهذا ما كان يردّده دائماً: «أنا صنعت نفسي بنفسي» مع بدلته وخواتمه الماسِيّة في أصابعه. كان لكل إصبع خاتم وعندما قُتل في نهر السين قطعوا أصابعه لأخذ الخواتم لأن ذلك كان تصفية حسابات. أقول لكم ذلك على الفور لكي أجنّبكم الانفعالات في ما بعد. في حياته كان يسيطر على أفضل خمسة وعشرين متراً على رصيف بيغال وكان يشذّب أظافره عند أخصّائيي تجميل الأظافر والتي كانت زهرية هي أيضاً. كذلك كانت لديه صدريّة نسيتها، وكثيراً ما كان يلمس شاربه بطرف إصبعه لمساً في غاية اللطف وكأنه يحرص على أن يكون لطيفاً معه. كان يُحضر دائماً هدية صغيرة تؤكل للسيدة روزا التي كانت تفضّل العِطر لأنها تخشى زيادة الوزن. لم أرَ لها رائحة كريهة إلا بعد وقت طويل. العطر

إذن هو أفضل ما كان يناسب السيدة روزا وكانت لديها منه قوارير وقوارير، لكنني لم أفهم أبداً لماذا كانت تضع منه خلف أُذنيها خاصة، مثل البقدونس للعجول. هذا الأسود الذي أحدّثكم عنه، السيد نْدا أميدي، كان في الواقع أُمّياً لأنه كان قد أصبح في وقت مبكر شخصية أعفته من الذهاب إلى المدرسة. لا أريد هنا العودة إلى التاريخ غير أن السود عانوا كثيراً ويجب أن نفهمهم عندما نستطيع. لذلك كان السيد نْدا أميدي يعتمد على السيدة روزا في كتابة الرسائل إلى والديه في النيجر التي يعرف اسمها. كانت العنصرية رهيبة بالنسبة إليهم هناك إلى أن قامت الثورة وأصبح لهم نظام وكفّوا عن المعاناة. أنا لم يكن عليّ أن أشتكي من العنصرية لذلك لا أرى ما يمكن أن أتوقّعه. أخيراً، لا بدّ أن يكون لدى السود عيوب أخرى.

كان السيد نْدا أميدي يجلس على السرير حيث ننام عندما لا نكون أكثر من ثلاثة أو أربعة وإذا كنا أكثر من ذلك ننام مع السيدة روزا. أو يضع رجلاً على السرير ويبقى واقفاً ليشرح للسيدة روزا ما يجب أن تقوله كتابياً لوالديه. عندما يتكلّم السيد نْدا أميدي يقوم بحركات وينفعل وحتى أنه يغضب في النهاية لا لأنه كان غاضباً بل لأنه أراد أن يقول لوالديه أشياء أكثر من التي توفّرها له إمكاناته المتواضعة. يبدأ هذا دائماً بعبارة أبي المحترم والمبجّل، ثم يأخذه الغضب لأنه يكون مليئاً بأشياء رائعة لا يملك التعبير عنها وتبقى في قلبه، لم تكن لديه الإمكانات بينما يحتاج إلى الذهب والماس لكل كلمة. كانت السيدة روزا تكتب له رسائل يقول فيها إنه يقوم بدراسات عصامية لكي يصبح مقاول أشغال عامة ويبني سدوداً ويكون فاعل خير لبلاده. وعندما تقرأ له ذلك يُسرّ كثيراً. كذلك تجعله السيدة روزا يبني جسوراً وطرقات وكل ما يلزم، وكم كانت تحبّ أن ترى السيد نْدا أميدي سعيداً وهو يسمع عن الأشياء التي فعلها في رسائله ويضع دائماً بعض المال في الظرف لكي يكون ما

فعله أكثر صحّة. كان سعيداً بزِيّه الوردي من الشانزليزيه وربما أكثر. وبعد ذلك تقول السيدة روزا إنه عندما يصغي تكون له عينا مؤمن حقيقي وإن سود إفريقيا، لأن هناك من صنّفهم في مكان آخر، ما زالوا الأفضل من هذا النوع. المؤمنون الحقيقيون هم أشخاص يؤمنون بالله، مثل السيد هاميل الذي كان يحدّثني عن الله طوال الوقت ويشرح لي أن هذه أشياء يجب أن نتعلّمها ونحن صغار وأننا قادرون على تعلُم أيّ شيء.

السيد نْدا أميدي كانت لديه ماسة في ربطة عنُقه متلألئة، وكانت السيدة روزا تقول إنها ماسة حقيقية وليست مزيّفة كما قد نعتقد، لأننا لا نشكّ في أنفسنا بما يكفي. كان جدّ السيدة روزا لأمّها يعمل في مجال الماس وقد ورثت عنه المعرفة. كان الألماس يتلألأ تحت وجه السيد نْدا أميدي أيضاً ولكن ليس للأسباب نفسها. لا تتذكر السيدة روزا ماذا وضعت في رسالته الأخيرة إلى والديه في إفريقيا لكن لا أهمية لذلك فهي تقول إنه كلّما لم يكن لدينا شيء زادت رغبتنا في أن نصدّق. ثم إن السيد نْدا أميدي كان لا يدقّق في النوافل والأمر عنده سيّان ما دام والداه سعيدين، حتى أنه في بعض الأحيان كان ينسى والديه ويقول لنفسه ما كان عليه بالفعل وكل ما سيكون عليه.

لم أرّ حتى الآن أحداً يمكنه أن يتحدث هكذا عن نفسه كما لو كان ذلك ممكناً، كان يصرخ أن الجميع يحترمه وأنه الملك. نعم، كان يزعق «أنا الملك» والسيدة روزا تضع ذلك في الكتابة، مع الجسور والسدود وكل شيء. بعد ذلك كانت السيدة روزا تقول لي إن السيد نُدا أميدي كان ميشوغيه تماماً، أي مجنون باللغة اليهودية، لكنه مجنون خطِر ولذلك يجب أن ندعه وشأنه حتى لا نتورّط في المشاكل. كان يقول إنه قتل بالفعل أشخاصاً لكنهم من السود ولا يملكون هويّة لأنهم ليسوا فرنسيين مثل السود الأميركيين والشرطة لا تهتمّ إلا بالذين لهم وجود. ذات يوم كان على وشك الاصطدام مع الجزائريين أو الكورسيكيين وكان

عليها أن تكتب إلى والديه رسالة لا تُسِرّ أحداً. علينا ألاّ نعتقد أن القيّادين ليست لديهم مشاكل مثل الجميع.

كان السيد نْدا أميدي يأتي ومعه حارسان شخصيان لأنه لم يكن آمناً ويجب حمايته. هذان الحارسان سرعان ما كنّا نستعيذ بالله من تصنّعهما البراءة لفرط ما كان رأساهما قبيحين ومخيفين. أحدهما كان ملاكماً وتلقى كثيراً من اللكمات على وجهه بحيث اختلطت ملامحه وخسرت أماكنها وكانت إحدى عينيه دون المستوى، وله أنف مهشّم وحاجبان منتوفان بسبب انقطاعات قتال الحَكَم على عَظم الحاجب، وعين أخرى لم تكن في موضعها تماماً وكأنّ الضربة التي وجِّهت إلى إحدى العينين أ

خرجت الأخرى. لكن كانت قبضتاه ضخمتين، وليس هذا فحسب إذ كانت له أيضاً ذراعان لا نجدهما في أي مكان آخر. قالت لي السيدة روزا إننا عندما نحلم كثيراً نكبر على نحو أسرع وقبضتا السيد بورو هذا لا بدّ أنهما حلمتا طوال حياتهما حتى أصبحتا ضخمتين.

الحارس الآخر كان له رأس لا يزال سليماً وكان ذلك أمراً مؤسفاً. أنا لا أحبّ الناس الذين لهم وجوه تتغيّر في كل حين، تهرب من جميع الجهات وليس لها على الإطلاق نفس الوجه مرّتين. مسكوكة مُزيّفة، تسمّى، ومن الطبيعي أن تكون له أسبابه، التي ليست لديه، والجميع يريد أن يختبئ غير أن هذا، أقسم لكم، كانت هيئته مزيّفة للغاية حتى ليقف شعر الرأس لمجرّد التفكير في ما يخبّئه. ترون ما أقصده؟ فضلاً عن ذلك، كان يبتسم لي دائماً وليس صحيحاً أن السود يأكلون الأطفال في خبزهم، فهذا من شائعات أورليان لكن كان لديّ دائماً الانطباع بأنني أثير شهيّته وأنهم في إفريقيا أكلة لحوم بشر ولا يمكننا نزع هذه الصفة عنهم. عندما كنت أمرّ قربه كان يمسكني ويضعني على ركبتيه ويقول لي إن لديه طفلاً من عمري وحتى أنه قدّم له زيّ رعاة البقر الذي لطالما

رغبت فيه. قُمامة حقيقية، ماذا. ربما كان فيه بعض الخير مثل الجميع حين نتوسّمه فيهم، لكنه مارس الجنس معي بعينيه اللتين لم يكن لهما اتجاه واحد مرّتين على التوالي. لا بد أنه كان يعرف ذلك لأنه أحضر لي الفستق ذات مرة وكان بارعاً في الكذب. الفستق لا معنى له على الإطلاق فكله يساوي فرنكاً واحداً. إن كان يعتقد أنه يصنع صديقاً بذلك فهو مخطئ، صدّقوني. أروي هذا التفصيل لأنني في ظل تلك الظروف المستقلّة عن إرادتي أحدثتُ أزمة عنف جديدة.

كان السيد نْدا أميدي يأتي دائماً يوم الأحد لكي يُملي رسائله. في هذا اليوم لا النساء لا يعملن، لأنه هُدنة الحلوانيين، وكان يوجد في المنزل واحدة منهن أو اثنتان وكانت الأمّ تأتي لأخذ طفلها إلى حديقة عامة لشمّ الهواء أو لتناول الغداء معه. يمكنني أن أقول لكم إن النساء اللواتي يكددن هنّ أفضل الأمهات في العالم، لأن هذا يُغيّر لهنّ الزبائن والطفل يمنحهنّ مستقبلاً. هناك من يتخلّين عنك طبعاً ولا نعود نسمع بهنّ لكن ذلك لا يعني أنهنّ لم يمتن أو ليس لديهنّ أعذار. في بعض الأحيان لا يُعدنَ أطفالهن إلا ظهر اليوم التالي لكي يحتفظن بهم أطول وقت ممكن قبل أن يستأنِفنَ العمل. في ذلك اليوم لم يكن في المنزل إلا الأطفال الدائمون، وهم في هذه الحالة بنحو خاص أنا وبنانيا الذي لم يعد يدفع منذ سنة لكنه لا يهتمّ بتاتاً ويتصرّف كما لو أنه في بيته. وكان هناك أيضاً موسى لكنه كان قيد البحث من قِبل عائلة يهودية تريد أن تتأكد من عدم وجود أي شيء وراثي لديه، كما حصل لي الشرف، لأن هذا هو أول ما ينبغي التفكير فيه قبل أن تبدأوا بحبّ طفل إن كنتم لا تريدون أن تواجهوا متاعب فيما بعد. كان الدكتور كاتز قد وضع له شهادة غير أن هؤلاء كانوا يريدون أن ينظروا قبل أن يغطسوا. أما بنانيا فكان سعيداً أكثر من المعتاد لأنه اكتشف قضيبه لأول مرّة. تعلّمت أشياء لم أفهم منها شيئاً على الإطلاق ولكن السيد هاميل كتبها لي بيده وهذا غير

مهمّ. ما زال بإمكاني أن أتلوها لكم لأن هذا يُسرّه: *اللي حبّ الله لا يبي غيره سبحان الدائم لا يزول*... هذا يعني أن مَن يحبّ الله لا يريد أحداً سواه. أنا كنت أريد أكثر، لكن السيد هاميل جعلني أعمل على ديني، لأنه حتى لو بقيت في فرنسا إلى أن تحين وفاتي، مثل السيد هاميل نفسه، عليّ أن أتذكّر أنّ لي بلاداً ينبغي أن تكون شيئاً كالجزائر أو المغرب، وإن كنت لا أظهر في أي مكان من وجهة نظر وثائقية فقد كانت السيدة روزا متأكدة من ذلك ولم تربّني كعربي من أجل سعادتها. كانت تقول أيضاً أن لا أهمية لذلك عندها فالجميع متساوون عندما نكون في القرف نفسه، وإذا كان اليهود والعرب يتضاربون فلا يجب الاعتقاد أن اليهود والعرب مختلفون عن الآخرين، وأن الأخوّة على وجه التحديد هي التي تفعل ذلك، ما عدا بين الألمان ربما حيث هو أكثر. نسيت أن أخبركم أن السيدة روزا تحتفظ بصورة كبيرة للسيد هتلر تحت سريرها وعندما تكون تعيسة ولا تعرف إلى أي قدّيس تتوجّه تُخرج الصورة وتنظر إليها وتشعر بتحسّن على الفور، وكان ذلك مصدر قلق كبير أقلّ.

أستطيع أن أقول تخفيفاً لمسؤولية السيدة روزا كيهودية إنها كانت امرأة فاضلة. طبعاً، كانت تطعمنا الأرخص دائماً وتزعجني في رمضان بشيء رهيب. عشرون يوماً بدون طعام، تصوّروا، كانت بالنسبة إليها المنّ السماوي وتبدو عليها علائم النصر عندما يحلّ رمضان ولا يعود من حقي أن آكل طبق أسماك الجفيلت الذي تعدّه بنفسها. كانت تحترم معتقدات الآخرين لكنني رأيتها تأكل لحم الخنزير المدخّن. وعندما كنت أقول إنه لا يحق لها أن تأكل لحم الخنزير كانت تضحك وهذا كل شيء. لم يكن بمقدوري أن أمنعها من الانتصار عندما يحلّ رمضان وكنت مضطراً إلى السرقة من محل البقالة في حي لم أكن معروفاً فيه كعربي.

إذن كان ذلك اليوم هو الأحد عندنا وقد أمضت السيدة روزا الضُحى في البكاء، وكان لديها أيامها بدون تفسير تقضيها في البكاء طوال

الوقت، ولا ينبغي منعها من البكاء لأنها تكون في أفضل أحوالها. آه نعم، أتذكّر أيضاً أن الفيتنامي الصغير كان قد تلقّى في الصباح صفعة على مؤخّرته لأنه كان يختبئ تحت السرير كلّما قُرع جرس الباب، وكان قد غيّر بالفعل عشرين عائلة منذ ثلاث سنوات، ولم يكن له أحد وقد سئم ذلك كل السأم. لا أعرف ماذا حدث له ولكنني سأعرف ذات يوم. ثم إن رنين الجرس لم يأت بخير لأحد عندنا، لأننا كنا نعيش في خوف دائم من كبسة المساعدة العامة. كان في حوزة السيدة روزا جميع الأوراق المزوّرة التي تريدها وقد دبّرت الأمر مع صديق يهودي لا يهتمّ إلاّ بهذا من أجل المستقبل منذ أن عاد حيّاً. لا أدري إن كنت قد أخبرتكم بذلك من قبل لكنها كانت أيضاً محميّة من قِبل مفوّض في الشرطة كانت قد ربّته منذ أن زعمت أمّه أنها تعمل مُزيّنة في الإقليم. لكن الحسّاد حاضرون دائماً والسيدة روزا تخشى الوشاية بها. وكانت قد استيقظت ذات يوم في السادسة صباحاً على قرع الجرس واقتيدت فجراً إلى ميدان الدرّاجات فيلودروم ومن هناك إلى المعازل اليهودية في ألمانيا.

هذا ما كان عندما وصل السيد نْدا أميدي لكتابة رسالة مع حارسيه، وأحدهما ذاك الذي بدا وكأنه مسكوكة مزيّفة لا يمكن لأحد أن يصرفها. لا أعرف لماذا كرهته لكنني أعتقد أن ذلك يعود إلى أنني كنت في التاسعة أو العاشرة ونَيّف وكنت بحاجة إلى شخص أكرهه مثل أي شخص آخر.

وضع السيد نْدا أميدي رجلاً على السرير وبيده سيكار ضخم يُسقط الرماد في كل مكان دون اعتبار للمصروف وعلى الفور أخبر والديه أنه سيعود قريباً إلى النيجر ليعيش بكل شرف. أنا أظنّ الآن أنه صدّق ذلك بنفسه. لاحظت في كثير من الأحيان أن الناس يمكن أن يصدّقوا ما يقولونه وهم بحاجة إلى ذلك لكي يعيشوا. لا أقول ذلك على سبيل التفلسف بل أعنيه حقاً.

نسيت أن أوضح على وجه الدقّة أن مفوّض الشرطة الذي كان ابن عاهرة كان قد تعلّم كل شيء وغفر كل شيء، حتى أنه كان يأتي أحياناً لتقبيل السيدة روزا شرط أن تقفل فمها. هذا ما يعبّر عنه السيد هاميل عندما يقول إن كل ما هو جيّد ينتهي بشكل جيّد. أقول ذلك لأضفي على الجوّ بعض البهجة.

حين كان السيد نْدا أميدي يتكلم كان حارسه عن اليسار جالساً على كنبة منشغلاً بتلميع أظافره بينما الآخر لا يوليه انتباهه. أردت الخروج لأتبوّل لكن الحارس الثاني الذي أحدثكم عنه أمسكني أثناء مروري ووضعني على ركبتيه. نظر إليّ، وابتسم، حتى أنه أزاح قبّعته إلى الوراء وقال أشياء مماثلة.

ـ أنت تجعلني أفكر في ابني، يا صغيري مومو. إنه على شاطئ البحر في نيس مع أمّه لقضاء الإجازة وسيعودان غداً. ولد في مثل هذا اليوم وسيحصل على درّاجة، يمكنك أن تأتي إلى المنزل متى أردت لتلعب معه.

لا أعرف ما الذي انتابني لكن مضت سنوات وأنا ليس لديّ أمّ ولا أب ولا درّاجة حتى، وهذا الذي جاء لإزعاجي، أخيراً، ترون ما أعني. طيّب، انشالله، لكن هذا ليس صحيحاً وإنما قلته لأنني مسلم صالح. أثارني الأمر وتملّكني العنف، شيء فظيع. تأتّى ذلك من الداخل وهذا هو الأسوأ. عندما يأتي من الخارج بركلات على المؤخّرة يمكنني أن أهرب، لكن من الداخل هذا غير ممكن. عندما تملّكني هذا الشعور أردت أن أخرج ولا أعود أبداً إلى المنزل ولا إلى أي مكان. بدا الأمر كما لو كان لديّ ساكن في داخلي. صرخت، ارتميت على الأرض، ضربت رأسي لأخرج، لكن هذا غير ممكن، ليس له سيقان، ليس لدينا

سيقان في الداخل أبداً. يريحني الحديث عنه، عجباً، كما لو أنه خرج قليلاً. ترون ما أعني؟

طيّب. عندما استنفدتُ طاقتي وخرجوا جميعهم جرّتني السيدة روزا إلى الدكتور كاتز. كانت خائفة حتى الموت وقالت له إنني أحمل كل العلامات الوراثية وإنني كنت قادراً على تناول سكّين وقتلها أثناء نومها. لا أعرف على الإطلاق لماذا كانت السيدة روزا تخاف دائماً من أن تُقتل أثناء نومها، كما لو كان ذلك يمكن أن يمنعها من النوم. غضب الدكتور كاتز وصاح فيها قائلاً إنني كنت وديعاً مثل حمل وأنّ عليها أن تخجل من التكلم بهذه الطريقة. وصف لها مهدّئات كانت في دُرجه وعدنا أدراجنا يداً بيد وشعرت بأنها منزعجة قليلاً لأنها اتهمتني من أجل لا شيء. لكن يجب أن نتفهّمها، لأن الحياة كانت كل ما تبقّى لها. الناس يتعلّقون بالحياة أكثر من أي شيء آخر، حتى أنه لأمر مضحك أن نفكّر في كل الأشياء الجميلة الموجودة في العالم.

في المنزل أخذت تحشو نفسها بالمهدّئات وقضت السهرة محدّقة إلى الأمام مباشرة بابتسامة سعيدة لأنها لا تشعر بشيء. لم تعطني أبداً من هذه المنبّهات. كانت امرأة أفضل من أي شخص آخر ويمكنني أن أوضح هذا المثال هنا بالذات. إذا أخذتم مثلاً السيدة صوفي التي كانت تدير هي أيضاً بيتاً سرياً لأبناء العاهرات في شارع سوركوف، أو تلك التي تدعى الكونتيسة، لأنها أرملة كونت، في باريس، فقد كانتا تأخذان في بعض الأحيان حتى عشرة أطفال في أثناء النهار وأول ما تفعلانه هو حشوهم بالمهدّئات.

السيدة روزا عرفت ذلك من مصدر موثوق به عن طريق برتغالية إفريقية كانت تكدّ في الترياندري وسحبت طفلها من عند الكونتيسة وهو لا يقوى على الوقوف بفعل المهدّئات. وكثيراً ما كان يقع، وعندما توقفه يسقط من جديد وكان يمكن اللعب معه على هذا النحو لساعات. لكن مع السيدة روزا كان الأمر مختلفاً كل الاختلاف. حين نكون مهتاجين أو لدينا في النهار أطفال مضطربون بشكل خطير، لأن مثل هذا موجود، كانت هي التي تحشو نفسها بالمهدّئات. عندئذ يمكننا الصراخ أو التضارب وما كان هذا ليصل إلى كاحلها. كنت أنا مَن يقع عليه فرض النظام وكان ذلك يعجبني كثيراً لأنه يجعلني متفوّقاً. وفي هذه الأثناء تكون السيدة روزا جالسة في كنبتها وعلى بطنها ضفدعة من الصوف

داخلها قنينة ماء ساخن وراسها مائل قليلاً وتنظر إلينا بابتسامة جميلة، بل إنها في بعض الأحيان تلوّح لنا بيدها وكأننا قطار عابر، في تلك اللحظات لم يكن هناك شيء يمكن أن نتعلّمه وكنت أنا من يتولّى القيادة للحيلولة دون حرق الستائر وهي أول شيء نحرقه ونحن صغار.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحرّك السيدة روزا وهي تحت تأثير المهدّئات هو قرع الجرس. كان لديها خوف فظيع من الألمان. تلك قصة قديمة مذكورة في كل الجرائد ولا أريد الدخول في التفاصيل لكن السيدة روزا ما زالت تعيشها. في بعض الأحيان كانت تعتقد أن الأمر ما زال سارياً، خصوصاً في منتصف الليل. كانت شخصاً يعيش على ذكرياته. تتساءلون ما إذا كان الأمر سخيفاً تماماً في أيامنا هذه، حين مات كل شيء ودُفن، لكن اليهود متعلقون جداً خصوصاً عندما أُبيدوا، وهؤلاء هم الذين يعودون أكثر من غيرهم. لطالما حدّثتني عن النازيين والأس. أس[1]. وأشعر ببعض الأسف لأنني ولِدت بعد فوات الأوان لمعرفة النازيين، مع الأسلحة والأمتعة، لأننا على الأقلّ كنا عرفنا السبب والآن لا نعرف.

آخر كوميديا كانت ذلك الخوف الذي ينتاب السيدة روزا من رنين جرس الباب. وأفضل وقت لذلك هو في الصباح الباكر والنهار ما زال يتسلّل على رؤوس أصابعه. الألمان ينهضون باكراً ويفضّلون الصباح الباكر على أي وقت آخر من النهار. كان من بيننا واحد ينهض ويخرج إلى الممرّ ويضغط على الجرس، ضغطة طويلة ليحدث ذلك على الفور. وكم كنا نتلوّى من الضحك! يجب رؤية ذلك. آنذاك كان وزن السيدة روزا خمسة وتسعين كيلوغراماً ونيّفاً، أي نعم، فكانت تتدفق من سريرها

(١) S.S الشرطة العسكرية النازية (م).

كالمجنونة وتهبط نصف طابق قبل أن تتوقّف. أما نحن فنكون راقدين ونتظاهر بأننا نيام، وعندما ترى أن ذلك لم يكن من النازيين كانت تغضب غضباً رهيباً وتنعتنا بأبناء العاهرة، وهو ما لا تفعله أبداً بدون سبب. كانت تبقى مذهولة بعض الوقت مع بكرات الشعر على آخر ما تبقّى على رأسها، وتعتقد للوهلة الأولى أنها كانت تحلم ولم يُقرع الجرس على الإطلاق ولم يأت الرنين من الخارج. لكن كان من بيننا على الدوام تقريباً من ينفجر ضاحكاً وحين تدرك أنها كانت ضحية تطلق العِنان لغضبها وتشرع في البكاء.

أنا أعتقد أن اليهود أناس مثل الآخرين ولكن لا يجب أن نلومهم.

في معظم الأحيان لم يكن علينا حتى النهوض للضغط على الجرس لأن السيدة روزا كانت تفعل ذلك بنفسها. كانت تستيقظ فجأة ودفعة واحدة، تنتصب على مؤخّرتها التي كانت أكبر مما يمكنني أن أخبركم، وتصغي، ثم تقفز من السرير، وتضع وشاحها البنفسجي الذي تحبّه وتهرع إلى الخارج. لم تكن حتى تنظر إن كان هناك أحد لأن صوت الجرس كان يصدر من داخلها وهذا هو الأسوأ. أحياناً كانت تهبط بضع درجات أو طابقاً فقط وأحياناً تنزل إلى القبو كما في المرّة الأولى حين حصل لي الشرف.

في البداية اعتقدتُ أنها كانت تخبّئ كنزاً في القبو وأيقظها الخوف من اللصوص. ولطالما حلمتُ أنا بالعثور على كنز مخبّأ في مكان ما حيث يكون بمنأى عن الجميع ويمكنني العثور عليه متى احتجت إليه. في اعتقادي إن أفضل كنز من نوعه هو الذي يكون لك وبكل أمان.

كنت قد رصدت المكان الذي خبّأت فيه السيدة روزا مفتاح القبو فأخذته وذهبت لرؤية ما فيه، لم أر شيئاً سوى أثاث ومَبولة وعلب سردين وشموع، وأشياء كثيرة كما لو أن المكان مخصص لإقامة شخص

ما. أضأت شمعة وأنعمت النظر لكن لم أرَ إلاّ جدراناً بحجارة مسنّنة. وفي تلك اللحظة سمعت ضجة فقفزت في الهواء ولم يكن هناك سوى السيدة روزا. كانت واقفة على باب المدخل ورأتني. لم تكن غاضبة بل على العكس بدت وكأنها تشعر بالذنب كما لو كان عليها هي أن تعتذر.

ـ لا ينبغي أن تخبر أحداً، مومو، أعطني هذا.

مدّت يدها وأخذت مني المفتاح.

ـ سيدة روزا ما هذا المكان هنا؟ لماذا تأتين إليه، وأحياناً في منتصف الليل؟ ما هذا؟

عدّلت نظارتها قليلاً وابتسمت.

ـ إنه مسكني الثانوي، مومو، هيّا، تعال.

نفخت على الشمعة فأطفأتها وأخذت بيدي ثم صعدنا ثانية. بعد ذلك جلست على كنبتها واضعة يدها على قلبها لأنها لم تكن قادرة على صعود الطوابق الستة دون أن تموت.

ـ أَقسم لي أنك لن تتحدّث عن ذلك أبداً، مومو.

ـ أُقسم لك، سيدة روزا.

ـ خَيَريم؟

هذا يعني تمّ القسم عندهم.

ـ خَيَريم.

عندئذ تمتمت وهي تنظر فوقي، كما لو كانت تنظر من وراء ومن أمام:

ـ ذاك جُحري اليهودي، مومو.

ـ آه جيّد، تمام.

ـ هل تفهم؟

ـ كلا، لكن لا يهمّ، أنا معتاد.

ـ ذاك هو المكان الذي أختبئ فيه عندما أشعر بالخوف، مومو.

ـ الخوف مِمَّ، سيدة روزا.

ـ ليس من الضروري أن يكون لدينا أسباب للخوف، مومو.

لم أنسَ ذلك أبداً لأنه أصدق شيء سمعته على الإطلاق.

غالباً ما كنت أذهب للجلوس في غرفة انتظار الدكتور كاتز لأن السيدة روزا كانت تردّد أنه رجل يفعل الخير، لكنني لم اشعر بشيء من ذلك. ربما لأنني كنت لا أمكث هناك وقتاً طويلاً بما يكفي. أعلم أن فاعلي الخير كُثر في العالم لكنهم لا يفعلون ذلك طوال الوقت وعليكم أن تصلوا في الوقت المناسب.

في البداية كان الدكتور كاتز يخرج ويسألني إن كنت مريضاً لكنه اعتاد بعد ذلك وكان يتركني هادئاً. زد على ذلك أن أطبّاء الأسنان لديهم هم أيضاً غرفة انتظار لكنهم يعالجون الأسنان فقط. كانت السيدة روزا تقول إن الدكتور كاتنز هو للطبّ العام وصحيح أنه كان عنده من كل شيء، يهود، طبعاً، كما في كل مكان، وشمال إفريقيين لكي لا نقول عرباً وجميع أنواع الأمراض. كان لديه بالتأكيد كثير من الأمراض التناسلية بسبب العمّال المهاجرين الذين يلتقطونها قبل المجيء إلى فرنسا ليستفيدوا من الضمان الاجتماعي. الأمراض التناسلية ليست مُعدية في الأماكن العامة وكان الدكتور كاتز يقبلها ولكن لا يحقّ لهم أن يأتوا بالذُباح أو الخُناق الغِشائي والحُمّى القِرمزيّة والحصبة وغيرها من القاذورات التي عليهم الاحتفاظ بها في بيوتهم. غير أن الآباء لا يعرفون دائماً ما أنتم عليه. وقد أُصبت مرّة أو مرّتين بزُكام وسُعال ديكي لم يكونا مخصّصين لي. مع ذلك كنت أعود. أحببت كثيراً الجلوس في غرفة

انتظار وانتظار شيء ما، وعندما يُفتح باب المكتب ويدخل الدكتور كاتز مرتدياً ثوبه الأبيض ويُقبل نحوي ويلمس شعري مداعباً أشعر بتحسُّن ولهذا وجِد الطبّ.

كانت السيدة روزا قلقة للغاية بشأن صحتي وتقول إنني أعاني من اضطرابات البلوغ المبكر ولديّ بالفعل ما تسمّيه عدوّ الجنس البشري الذي بدأ يكبر عِدّة مرّات في اليوم. كان هاجسها الأكبر بعد البلوغ هو الأعمام أو العمّات عندما يكون الوالدان الحقيقيان قد قضيا في حادث سيارة ولا يريد الآخرون الاهتمام بالطفل ولكنهم لا يريدون أيضاً تسليمه للمساعدة لأن ذلك يحمل أهل الحيّ على الاعتقاد بأن ليس لديهم قلب. عندئذٍ كانوا يأتون إلينا خصوصاً إذا كان الطفل مذهولاً. كانت السيدة روزا تصف طفلاً بأنه مذهول عندما يكون مصاباً بالذهول، كما تدلّ عليه هذه الكلمة. وهذا يعني أنه لا يريد حقاً معرفة أي شيء لكي يعيش ويصبح قديماً. وهذا أسوأ شيء يحدث لطفل، بصرف النظر عن البقيّة.

عندما يأتونها بجديد لبضعة أيام أو لأسبوع كانت تفحصه من جميع النواحي وخصوصاً لمعرفة ما إذا كان مذهولاً أم لا. كانت تكشّر في وجهه لإخافته أو تلبس كفوفاً بحيث يكون كل إصبع فيها مهرّجاً وهذا ما يُضحك دائماً الأطفال غير المذهولين بينما الآخرون لا يكترثون وكأنهم من غير هذا العالم ولذلك ندعوهم القُدامى. لم يكن بوسع السيدة روزا قبولهم لأن هذا يعني انشغالها بهم في كل لحظة ولم يكن لديها يد عاملة. ذات مرّة تركت لديها مغربية تعمل في بيت في الغوت دور طفلاً مذهولاً ثم ماتت من دون أن تترك عنواناً. اضطرّت السيدة روزا إلى تسليمه إلى منظمة بأوراق مزوّرة لتثبت أنه موجود وقد مرضت من جرّاء ذلك لأنه لا شيء أكثر حزناً من منظمة.

حتى مع الأطفال الأصحّاء توجد مخاطر. لا يمكنكم إجبار الوالدين

المجهولين على استعادة طفل إن لم تكن لديكم إثباتات قانونية ضدهما. لا شيء أسوأ من الأمهات القاسيات. كانت السيدة روزا تقول إن القانون يُطبّق على نحو أفضل عند الحيوانات وأما عندنا فمن الخطورة بمكان تبنّي طفل. إذا أرادت الأم الحقيقية أن تأتي لإزعاجه لأنه سعيد فالحق بجانبها، لذلك كانت الأوراق المزيّفة هي الأفضل في العالم وإذا لاحظت قحبة بعد سنتين أن طفلها سعيد عند الآخرين وأرادت أن تنغّص عليه وكانت قدعُمِلَت له أوراق مزيّفة حسب الأصول فلن تعثر عليه أبداً، وهذا يعطيه فرصة ليجرّب حظّه.

كانت السيدة روزا تقول إن الحال عند الحيوانات أفضل بكثير مما هو عندنا لأن لديها قانون الطبيعة وبخاصة اللبْوات. كانت مليئة بالثناء على اللبْوات. أحياناً وأنا مستلقٍ على السرير، قبل أن أنام، كنت أدقّ جرس الباب وأذهب لأفتح فأجد على الباب لبوة تريد الدخول للدفاع عن صغارها. وكانت السيدة روزا تقول إن اللبوات شهيرات بذلك وتفضّل أن تُقتل على أن تتراجع. هذا هو قانون الغابة وإذا لم تدافع اللبوة عن صغارها فلن يثق بها أحد.

كنت أُدخل لبوتي في كل ليلة تقريباً، وكانت تدخل وتقفز على السرير وتلحس وجوهنا، لأن الآخرين أيضاً بحاجة إلى ذلك وكنت أنا أكبرهم وعليّ أن أهتمّ بهم. غير أن للبوات سُمعة سيّئة لأنها يجب أن تتغذى مثل الجميع. وعندما كنت أُبلغ الآخرين أن لبوتي سوف تدخل يأخذون في الصراخ وحتى بنانيا كان يصرخ ومع ذلك يعلم الله أنه كان لا يأبه بسبب بشاشته التي يُضرب بها المثل. أحببت كثيراً بنانيا الذي أخذته عائلة فرنسية وسوف أذهب ذات يوم لرؤيته.

أخيراً علمت السيدة روزا أنني آتي بلبوة أثناء نومها. كانت تعلم أن هذا ليس صحيحاً وأنني كنت أحلم فقط بقوانين الطبيعة لكن كان لديها

توتر عصبي متزايد وفكرة وجود حيوانات مفترسة في الشقّة تسبّب لها رعباً ليلياً. كانت تستيقظ مولولة لأن ما كان حلماً عندي أصبح كابوساً لها ولطالما قالت إن الكوابيس هي ما تتحوّل إليه الأحلام دائماً عندما نتقدّم في السنّ. لقد صنعنا لأنفسنا لبوتين مختلفتين تماماً، ولكن ماذا تريدون.

لا أعرف إطلاقاً بماذا يمكن أن تحلم السيدة روزا بوجه عام. لا أرى ما الفائدة من أن تحلم بالعودة إلى الوراء وهي في سنّها لم تعد تستطيع أن تحلم إلى الأمام. لعلّها تحلم بشبابها عندما كانت جميلة ولم يكن لديها صحة بعد. لا أعرف ماذا كان يفعل والداها لكن ذلك كان في بولونيا. بدأت الكدّ هناك ثم بباريس في شارع فورسي وشارع بلوندل وشارع سيني وقليلاً في كل مكان، ثم ذهبت إلى المغرب والجزائر. كانت تتكلّم العربية بطلاقة، من دون تحيّز، حتى أنها خدمت الفيلق الأجنبي في سيدي بلعبّاس. لكن ساءت الأمور عندما عادت إلى باريس لأنها أرادت أن تعرف الحبّ واستولى الرجل على كل مدّخراتها وأبلغ الشرطة أنها يهودية. هنا كانت تتوقف عن الكلام وتقول: «انتهى ذلك الوقت» وتبتسم، وكان ذلك وقتاً طيباً بالنسبة إليها.

عندما عادت من ألمانيا كدَّت أيضاً بضع سنوات لكن بعد خمسين سنة بدأت تسمن ولم تعد جذّابة بما يكفي. كانت تعرف أن النساء اللواتي يكددن تعترضهنّ صعوبات كثيرة في الاحتفاظ بأبنائهنّ وفكّرت في أن تفتح للأطفال المولودين عَرضاً فندقاً من دون عائلات وهذا يدعى بيت بغاء في لغتنا. وقد أُتيحت لها الفرصة لتربّي على هذا النحو مفوّض شرطة كان ابن عاهرة وهو يوفّر لها الحماية ولكنها الآن في الخامسة والستّين وكان ذلك متوقّعاً. كان مرض السرطان هو الذي يخيفها بوجه

خاص، وهو لا يُسامح. كنت أرى بوضوح أنها تتدهور وكنا نتبادل النظر في صمت ونخاف معاً لأننا لا نملك غير هذا في العالم. لذلك كان كل ما تحتاج إليه حالتها لبوة طليقة في الشقة. حسناً، تدبّرت الأمر فكنت أبقي عينيّ مفتوحتين في الليل فتأتي اللبوة وترقد بجانبي وتلحس وجهي ولا أخبر بذلك أحداً، وحين تستيقظ السيدة روزا مرتاعة تدخل وتشعل النور فترانا نائمين بسلام. لكنها كانت تنظر تحت الأسِرّة وكان الأمر مضحكاً عندما نفكّر في أن الأسود هي الشيء الوحيد في العالم الذي لا يمكن أن يحدث لها نظراً لعدم وجودها في باريس إذا جاز التعبير، لأن الحيوانات البرّية توجد في الطبيعة فقط.

هنا أدركتُ للمرّة الأولى أنها كانت مختلّة قليلاً. كانت لديها الكثير من المصائب والآن يجب أن تدفع، لأننا ندفع مقابل كل شيء في الحياة. حتى أنها جرّتني إلى الدكتور كاتز وقالت له إنني جعلت حيوانات بريّة تتجوّل طليقة في الشقّة وهذه علامة بالتأكيد. فهمتُ جيداً أنه كان بينها وبين الدكتور كاتز شيء لا يجب الحديث عنه أمامي لكنني لم أفهم إطلاقاً ماذا يمكن أن يعني ذلك ولماذا كانت السيدة روزا خائفة.

ـ دكتور، سوف يقوم بعمل عنيف، أنا متأكدة من ذلك.

ـ لا تقولي هذا الهُراء، سيدة روزا. ليس لديك ما تخشينه. صغيرنا مومو رقيق. هذا ليس مرضاً وصدّقي ما يقوله طبيب متقدّم في السنّ، أصعب الأشياء على المداواة ليست هي الأمراض.

ـ إذاً لماذا توجد أسود في رأسه دائماً؟

ـ أولاً، هذا ليس أسداً، بل لبوة.

ابتسم الدكتور كاتز وأعطاني حبّة ملبّس بالنعناع.

ـ إنها لبوة. وماذا تفعل اللبوات؟ إنها تدافع عن صغيرها...

تنهّدت السيدة روزا.

ـ تعلم جيداً لماذا أخاف، دكتور.

احمرّ وجه الدكتور من الغضب.

ـ اسكتي، سيدة روزا. أنت جاهلة تماماً. أنت لا تفهمين شيئاً عن هذه الأشياء ويعلم الله ماذا تتخيّلين. هذه خُرافات من عصر آخر. قلت لك ذلك ألف مرة وأرجوك أن تصمتي.

أراد أن يقول شيئاً آخر غير أنه نظر إليّ ثم نهض وأخرجني.

أصغيت من وراء الباب.

ـ دكتور، أنا خائفة جداً من أن يكون وراثياً.

ـ هيّا، سيدة روزا، هذا يكفي. أولاً، أنت لا تعرفين حتى من هو أبوه نظراً إلى المهنة التي كانت تمارسها تلك المرأة المسكينة. وعلى كل حال، لقد شرحت لك أن هذا لا يعني شيئاً. هناك ألف عامل آخر. لكن من الواضح أنه طفل حساس جداً ويحتاج إلى العاطفة.

ـ لكنني لا أستطيع أن ألحس وجهه كل مساء، دكتور، من أين يأتي بمثل هذه الأفكار؟ ولماذا لم يقبلوه في المدرسة؟

ـ لأنك عملت له شهادة ميلاد لم تأخذ بعين الاعتبار عمره الحقيقي. إنك تحبّين هذا الصغير.

ـ خشيت فقط أن يأخذوه مني. لاحظْ أنه لا يمكن إثبات شيء بخصوصه. لقد سجّلت ذلك على قُصاصة ورق أو أحتفظ به في رأسي، لأن الفتيات يخشين دائماً أن يُعرف ذلك. العاهرات ذوات الأخلاق السيئة لا يحقّ لهنّ تربية أولادهنّ بسبب فقدان الأب. لذلك يمكن الإمساك بهنّ وابتزازهنّ لسنوات، وهنّ يقبلنَ كل شيء بدل أن يفقدن أطفالهنّ. هناك قيّادون هم قوّادون حقيقيون لأن لا أحد يريد بعد الآن القيام بعمله.

ـ أنت امرأة طيّبة، سيدة روزا. سأصف لك مهدّئات.

لم أتعلّم أي شيء على الإطلاق. كنت واثقاً أكثر من ذي قبل أن اليهودية تكتم عني أشياء لكنني لم أرغب في معرفتها. كلّما عرفنا أكثر قلّ ما هو جيّد. صاحبي الماهوت الذي كان ابن عاهرة هو أيضاً قال لي إن اللغز كان طبيعياً عندنا بسبب قانون الأعداد الكبيرة. قال إن المرأة التي تفعل الأشياء بشكل جيّد حين تتعرّض لحادث ولادة وتقرّر أن تحتفظ به مهدّدة دائمة بالتحقيق الإداري ولا يوجد شيء أسوأ من ذلك، وهذا لا يُسامح. الأم هي الضحية دائماً في حالتنا، لأن الأب محميّ بموجب قانون الأعداد الكبيرة.

كانت السيدة روزا تحتفظ في قعر حقيبة بقُصاصة ورق تصنّفني على أنني محمد وثلاثة كيلوغرامات بطاطا ورطل جزر ومئة غرام زبدة وسمكة وثلاث مئة فرنك فرنسي لتربيتي في الدين الإسلامي. كان هناك تاريخ ولكنه لا يذكر إلا اليوم الذي أخذتني فيه وديعة وهذا لا يذكر متى ولِدت.

كنت أنا من يهتمّ بالأطفال الآخرين وبخاصة لمسحهم لأن السيدة روزا كانت تجد صعوبة في الانحناء بسبب وزنها. لم يكن لديها قوام وردفاها يرتفعان مباشرة إلى كتفيها بدون توقّف. ومتى مشت فكأنها أثاث منقول.

كل يوم سبت بعد الظهر كانت ترتدي فستانها الأزرق مع فرو ثعلب وقُرطين وتتجمّل لتكون أكثر احمراراً من المعتاد وتذهب للجلوس في مقهى فرنسي، لاكوبول، في مونبارناس حيث تأكل قطعة كاتو.

لم أمسح أبداً الأطفال بعد سنّ الرابعة لأن لي كرامتي وكان بعضهم يتغوّط عمداً. غير أنني كنت أعرف هؤلاء جيداً وقد علّمتهم اللعب على هذا النحو، أقصد أن يمسح بعضهم بعضاً، وشرحت لهم أن ذلك مُسلٍ

أكثر من بقاء كل منهم وحده. سارت الأمور بشكل جيّد للغاية وهنأتني السيدة روزا وقالت لي إنني بدأت ي الكذ. لم ألعب مع الأطفال الآخرين الذين كانوا أصغر مني بكثير، باستثناء مقارنة قضباننا، وكان ذلك يغضب السيدة روزا لأن القضبان كانت ترعبها بسبب كل ما رأته في الحياة. كذلك استمرّ خوفها من الأسود، ومع هذا فليس من المعقول، متى فكّرنا في جميع الأسباب المعقولة الباعثة على الخوف، مهاجمة الأسود.

كانت السيدة روزا تعاني من مشاكل في القلب فكنت أنا من يذهب للتسوّق بسبب الدرج. ذلك أن الطوابق كانت أسوأ شيء بالنسبة إليها، وكانت تصفر أكثر فأكثر أثناء التنفس وأصبتُ بالربو من أجلها أنا أيضاً، وكان الدكتور كاتز يقول أن لا شيء أكثر عدوى من النفسية. هذا شيء لم نكن قد عرفناه بعد. في كل صباح كنت أشعر بالسعادة عندما تستيقظ السيدة روزا لأنني كنت أعاني من رعب ليلي وأخاف أن أجد نفسي بدونها.

كان أكبر صديق لي في تلك المرحلة مظلّة اسمها أرثور ألبستها من قدمها حتى رأسها. جعلت لها رأساً من خرقة خضراء لففتها بشكل كرة حول الكمّين مع وجه ظريف وابتسامة وعينين مستديرتين وأحمر شفاه السيدة روزا. لم يكن ذلك لأنني أريد شخصاً أحبه بقدر ما رغبت في لعب دور المهرّج لأنني كنت لا أملك مصروف الجيب وفي بعض الأحيان كنت أذهب إلى الأحياء الفرنسية حيث المال. كنت أرتدي معطفاً فضفاضاً يصل حتى كعبيّ وقبّعة مستديرة منفوخة وألطّخ وجهي بالأصباغ ومع مظلتي أرثور كنا مضحكين كلينا. لعبت دور البهلول على الرصيف وكنت أجمع مبلغاً يصل حتى عشرين فرنكاً في اليوم لكن كان عليّ الانتباه لأن الشرطة تضع دائماً عينها على القاصرين الطلقاء. كان آرثور يرتدي زيّ رجل مقطوع الساق مع حذاء كرة سلّة أزرق وأبيض وبنطال وسترة مربّعة على شمّاعة ربطتها بخيوط وخيطت له قُبعة مستديرة على رأسه. كنت قد طلبت من السيد نْدا أميدي أن يعيرني ثياباً لمظلّتي وتعلمون ماذا فعل؟ أخذني معه إلى محل بول. دور في بولفار بلفيل الأكثر أناقة وتركني أختار ما أريد. لا أدري ما إذا كان الجميع في إفريقيا مثله، لكن إن كانوا كذلك فلا ينقصهم شيء حتماً.

عندما كنت أقدّم عرضي على الرصيف كنت أتمايل وأرقص مع أرثور وأجمع النقود. وكان هناك أناس يغضبون ويقولون إنه لا يجوز معاملة

طفل بهذه الطريقة. لا أعرف على الإطلاق من كان يعاملني، لكن كان هناك أيضاً من يؤلمهم المشهد. وهذا أمر مستغرب لأنني كنت أفعل ذلك للإضحاك.

كان أرثور ينكسر من وقت إلى آخر فثبّت الشمّاعة بالمسامير وصار له كتفان وبقي بساق بنطال فارغة كالمعتاد مع مظلة. لم يكن السيد هاميل راضياً وقال إن أرثور يشبه صنماً وهذا ضدّ ديننا. أنا لست مؤمناً لكن حين يكون لديكم شيء غريب إلى حدّ ما ويقلّ نظيره فإنكم تأملون أن يتمكّن من فعل شيء ما. كنت أنام ضاماً أرثور إلى صدري وفي الصباح أرى إن كانت السيدة روزا ما زالت تتنفّس.

لم أدخل كنيسة على الإطلاق لأن هذا ضد الدين الحقّ وآخر ما كنت أريده هو أن أتورّط في ذلك. لكنني أعرف أن المسيحيين دفعوا أعينهم للحصول على مسيح وعندنا ممنوع تمثيل الوجه الإنساني لئلا نسيء إلى الله، وهو أمر مفهوم جيداً لأنه لا يوجد شيء يُتباهى به. لذلك محوت وجه أرثور وتركت ببساطة كرة خضراء وكأنني خائف وكنت في وضع جيّد مع ديني. ذات يوم بينما كانت الشرطة تطاردني لأن سخريتي تسببت في حشد الناس حولي أسقطت من يدي أرثور فتبعثر أجزاءً في جميع الاتجاهات، قبعة، شمّاعة، سترة، حذاء وكل شيء. استطعت تجميعه لكنه كان عارياً كما خلقَه الله. حسناً، الغريب أن السيدة روزا لم تقل شيئاً عندما كان أرثور مرتدياً ثيابه وكنت أنام معه لكن عندما خلع ملابسه وأردت أن آخذه معي تحت الغطاء صرخت قائلة أن ليس لدينا فكرة عن النوم مع مظلّة في سريرنا. هيا افهموا.

كنت قد ادّخرت بعض الفرنكات فأعدت تجهيز أرثور من سوق البراغيث حيث لديهم أشياء لا بأس بها.

لكن الحظ بدأ يفارقنا.

حتى ذلك الحين كانت حوالاتي تصل بشكل غير منتظم مع القفز عن بعض الأشهر لكنها كانت تصل على أي حال. ثم توقفت فجأة. شهران، ثلاثة، لا شيء، أربعة، قلت للسيدة روزا وأنا أعني ما أقول حتى أن صوتي كان يرتجف:

ـ سيدة روزا، لا تخافي، يمكنك الاعتماد عليّ. لن أتركك لمجرّد أنك لن تتلقي مالاً بعد الآن.

ثم أخذت أرثور وخرجت، وجلست على الرصيف حتى لا أبكي أمام الجميع.

ينبغي أن أقول لكم إننا كنا في وضع سيّئ جداً. السيدة روزا سوف تبلغ عمّا قريب الحدّ الأقصى في العمر وكانت تعلم ذلك. أصبح الدرج مع طوابقه الستة العدوّ العمومي رقم واحد بالنسبة إليها، وكانت واثقة من أنه سيقتلها ذات يوم. كنت أعلم أن الأمر لم يعد يستدعي قتلها وتكفي لتأكيد ذلك رؤيتها. كان ثدياها وبطنها وردفاها من التداخل بحيث يصعب تمييز بعضها من بعض وكأنها برميل. وأخذ عدد الأطفال عندنا يقلّ شيئاً فشيئاً لأن الفتيات فقدنَ الثقة بالسيدة روزا بسبب حالتها. لاحظن أنها لم تعد قادرة على الاهتمام بأحد وفضّلن الدفع أكثر فقصَدن السيدة صوفي أو الأمّ عائشة في شارع الجزائر. كنّ يكتسبن الكثير من المال وكانت هذه هي الطريقة السهلة. كانت العاهرات اللواتي تعرفهنّ السيدة روزا معرفة شخصية قد اختفين بسبب تغيُّر الأجيال. ولما كانت تعيش على الهمس من الفم إلى الأُذن ولم تعد مرغوبة على الأرصفة فقد فقدت سمعتها. عندما كان لا يزال لها ساقان كانت تذهب إلى أماكن العمل أو إلى المقاهي في بيغال أو لي ـ هال وتقوم ببعض الدعاية من خلال الإشادة بحسن الاستقبال لديها والمطبخ وكل شيء. أما الآن فلم تعد قادرة على ذلك. اختفت رفيقاتها ولم يعد لها مراجع تزكية. كان

هناك أيضاً حبوب منع الحمل القانونية للحماية من الطفولة وكان من الضروري حقاً توافر الإرادة. من كان لديها طفل لم يعد لها عذر وهي تعرف ما الذي تفعله.

كنت في العاشرة أو نحو ذلك وكان عليّ أن أساعد السيدة روزا. وعليّ أيضاً أن أفكّر في مستقبلي، لأنني إذا بقيت وحدي فستأخذني المساعدة العامة بلا جدال. لذلك كنت لا أنام الليل وأراقب السيدة روزا لمعرفة ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة.

حاولت أن أعمَل. سرّحت شعري جيداً ووضعت من عِطر السيدة روزا خلف أذنيّ مثلها وبعد الظهر كنت أذهب مع أرثور لأقف في شارع بيغال أو شارع بلانش الذي كان جيداً هو أيضاً. هناك دائماً نساء يكددنَ طوال النهار وكان من بينهنّ دائماً واحدة أو اثنتان يأتين لرؤيتي ويقلن:

ـ أوه كم هو لطيف هذا الرجل الصغير. أمّك تعمل هنا؟

ـ لا، ليس لديّ أحد.

كنّ يقدّمنَ لي النعناع في مقهى شارع ماسي، لكن كان عليّ أن أكون حذراً لأن الشرطة تطارد القيّادين. وكان عليهنّ أيضاً أن يكنّ حذرات فليس لديهنّ الحق في اصطياد الزبائن. كانت نفس الأسئلة دائماً.

ـ كم عمرك، يا جميلي؟

ـ عشر سنوات.

ـ لديك أُمّ؟

كنت أقول لا وتشُقّ عليّ السيدة روزا لكن ماذا تريدون؟ كان هناك واحدة على وجه الخصوص تبدي نحوي مشاعر الحنان وتدسّ في جيبي ورقة نقديّة أحياناً عندما تمرّ. كانت ترتدي تنّورة قصيرة وتنتعل حذاء طويل الساق وهي أصغر من السيدة روزا. كانت لديها عينان لطيفتان

وذات مرّة تطلعت حولها وأخذت بيدي وذهبنا إلى مقهى لم يعد هناك الآن لأنهم ألقوا عليه قنبلة، اسمه لوبانييه.

- يجب ألا تتسكع على الرصيف، هذا ليس مكاناً لطفل.

لامستْ شعري لترتيبه، لكنني عرفت أنها فعلت ذلك لمداعبتي.

- ما اسمك؟

- مومو.

- وأين أهلك، مومو؟

- ليس لدي أحد، ماذا تعتقدين؟ أنا حر.

- لكن في النهاية، لديك من يهتم بك؟

امتصصت شيئاً من عصير البرتقال لأنه يجب أن نرى.

- ربما أستطيع التحدث إليهم، أودّ الاعتناء بك، سأضعك في شقة صغيرة ولن ينقصك شيء.

- يجب أن نرى.

أنهيت عصير البرتقال ونزلت عن المقعد.

- خُذ هذا لسكاكرك، يا صغيري العزيز.

دسّت ورقة نقدية في جيبي، مئة فرنك. كما لو أنّي صاحب الشرف.

عدت بعد ذلك مرّتين أو ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تبتسم لي ابتسامات كبيرة لكن من بعيد، وبحزن، لأنني لم أكن لها.

من سوء الحظ أن أمينة الصندوق في مقهى البانييه كانت زميلة للسيدة روزا عندما كانتا تكدّان معاً. لقد حذّرت المرأةَ العجوزَ ويا له من مشهد مسرحي عن الغيرة كان من نصيبي. لم أر اليهودية قطّ في مثل هذه البلبلة. «ليس من أجل هذا ربّيتك» كرّرت ذلك عشر مرّات وهي تبكي. أقسمت لها أنني لن أعود إلى هناك ولن أصبح قيّاداً أبداً. قالت لي إنهم

كانوا كلّهم قوّادين وأنها لا تزال تفضّل أن تموت. لكنني لم أرَ على الإطلاق ما الذي يمكنني فعله خلاف ذلك وأنا في العاشرة من عمري.

ما بدا لي غريباً على الدوام هو أن الدموع كانت ملحوظة في البرنامج. هذا يعني أنه كان من المقدّر لنا أن نبكي. يجب التفكير في ذلك. ما كان لمنشئ يحترم نفسه أن يفعل ذلك.

ما زالت الحوالات منقطعة وبدأت السيدة روزا تمدّ يدها إلى صندوق التوفير. كانت قد ادّخرت بعض النقود لشيخوختها لكنها تعلم أنها لن تبقى لوقت طويل. لم تُصب حتى الآن بالسرطان لكن البقية تتدهور بسرعة. حتى أنها حدّثتني للمرة الأولى عن أمي وأبي لأنه يبدو أن هناك اثنين. كانا قد وصلا لإيداعي ذات مساء وبدأت أمي تبكي وغادرت بسرعة. حملتني السيدة روزا بصفتي مسلماً واسمي محمد، ووعدت بأن أكون مرفّهاً مثل ديك على عجينة. ثم بعد ذلك، بعد... تنهّدت وكان هذا كل ما تعرفه، إلا أنها لم تنظر في عينيّ عندما قالت ذلك. لم أعرف ما الذي كانت تخفيه عني ولكن في الليل أخافني ذلك. لم أتمكن أبداً من الحصول على أي شيء آخر منها، حتى عندما توقّفت الحوالات عن الوصول ولم يبقَ لها أي سبب لكي تكون لطيفة معي. كل ما عرفته هو أنه كان لي بالتأكيد أب وأُمّ لأن الطبيعة عنيدة حيال ذلك. لكنهما لم يعودا قطّ وبدت السيدة روزا مذنبة وسكتت. سأقول لكم على الفور إنني لم أجد أمي أبداً ولا أريد أن أعطيكم عواطف كاذبة. ذات مرّة، عندما ألححتُ كثيراً، اخترعت السيدة روزا كذبة متهافتة كانت متعة حقيقية.

ـ بالنسبة إليّ، كان لدى أمك تحيُّز برجوازي لأنها كانت من عائلة جيدة. لم تشأ أن تعرف المهنة التي كانت تمارسها، لذلك غادرت كسيرة القلب باكية لكي لا تعود بعد ذلك أبداً، لأنّ التحيُّز كان يمكن أن يسبّب لك صدمة مؤلمة بموجب الطبّ.

وبدأت تبكي هي نفسها، السيدة روزا، فلا أحد مثلها يحبّ القصص الجميلة. أعتقد أن الدكتور كاتز كان محقاً عندما أخبرته بذلك. قال إن العاهرات وجهة نظر للعقل. كذلك فعل السيد هاميل أيضاً، الذي قرأ فيكتور هوغو وعاش أكثر من أي رجل في سِنّه، عندما شرح لي وهو يبتسم أن لا شيء أبيض أو أسود وأن الأبيض غالباً ما يكون هو الأسود الذي يختبئ والأسود في بعض الأحيان هو الأبيض الذي تعرّض للفساد. حتى أنه أضاف، وهو ينظر إلى السيد إدريس الذي أحضر له الشاي بالنعناع: «صدّق خبرتي القديمة». السيد هاميل رجل عظيم لكن الظروف لم تسمح له أن يصبح كذلك.

لم تصل الحوالات منذ شهور وأما بنانيا فلم تر السيدة روزا لون نقوده إلا عندما وصل لأنها قبضت أجرة شهرين مقدّماً. هو يمضي الآن سنته الرابعة مجّاناً ويتصرّف دون حرج كما لو أنه دفع. وقد تمكنت السيدة روزا من إيجاد عائلة له لأن هذا الطفل كان محظوظاً على الدوام. موسى أيضاً كان تحت الملاحظة ويأكل عند العائلة التي تلاحظه منذ ستة شهور للتأكد من أنه كان من نوعيّة جيدة وغير مصاب بداء الصرع أو عُرضة لنوبات عنف. حين ترغب عائلة في تبنّي طفل فأول ما يجب تجنّبه بوجه خاص نوبات العنف. مع الأطفال النهاريين ولتغذية السيدة روزا كان لا بدّ من مئتي فرنك شهرياً ويجب إضافة الأدوية والقرض الذي رُفِض. لا يمكن تغذية السيدة روزا وحدها بأقل من خمسة عشر فرنكاً في اليوم دون معاملتها بوحشية حتى من أجل تخفيف وزنها. أذكر أنني قلت لها ذلك بصراحة، لكنه أمر بالغ القسوة بالنسبة إلى امرأة عجوز وحيدة في العالم. إنها تحتاج إلى نفسها أكثر من الآخرين. عندما لا يكون حولك من يحبّك يتحوّل ذلك إلى شحم. أما أنا فاستأنفت الذهاب إلى بيغال حيث أجد دائماً تلك السيدة، ماريز، التي كانت مغرمة بي لأنني ما زلت طفلاً، لكن كان ينتابني خوف أزرق لأن عقوبة القيّاد السجن وكنا نضطرّ إلى التلاقي خفية. كنت أنتظرها في مدخل العربات لإحدى البنايات وتأتي فتقبّلني وتنحني قائلة: «يا قلبي الجميل،

كم أحبّ أن يكون لي ابن مثلك»، ثم تعطيني ثمن المتعة. كذلك استفدت من بنانيا للسرقة من المحلات. كنت أتركه وحده مع ابتسامته لاستدرار عطف الناس الذين كانوا يتجمّعون حوله لما يثيره من مشاعر العطف والحنان. عندما يكون السود في سنّ الرابعة أو الخامسة يلقون الكثير من التسامح. أحياناً كنت أقرصه لكي يصرخ فيحيطه الناس بعواطفهم وأنتهز أنا الفرصة فأسرق أشياء صالحة للأكل.

كان لديّ معطف طويل يصل حتى كاحلي مع جيوب منزلية الصنع خاطتها لي السيدة روزا فلا أحد يرى ما فعلت ولا أحد يسمع. الجوع لا يسامح. للخروج كنت أحمل بنانيا بين ذراعي وأقف وراء امرأة طيبة تدفع فيعتقدون أنني معها بينما يقوم بنانيا بدور العاهرة. الأطفال موضع ترحيب كبير قبل أن يصبحوا خطرين. حتى أنا كنت أتلقى كلمات لطيفة وابتسامات فالناس يشعرون دائماً بالطمأنينة عندما يرون طفلاً لم يبلغ السنّ التي يصبح فيها صبياً وَغْداً. ولأن شعري بُنيّ وعينيّ زرقاوان وليس لديّ أنف يهودي مثل العرب كان بوسعي أن أبدو أياً كان دون أن أكون مضطراً لتغيير منظري.

كانت السيدة روزا تأكل أقلّ وهذا مفيد لها ولنا أيضاً. ثم إنه كان لدينا المزيد من الأطفال. فهذا هو الموسم الجيد وفيه يذهب الناس بعيداً أكثر فأكثر لقضاء الإجازة. ولم أكن يوماً سعيداً بمسح المؤخرات مثلي آنذاك لأن ذلك يوفّر المال الضروري لإعالة الأسرة وعندما تكون أصابعي مليئة بالخراء لا أعود أشعر حتى بالظلم.

للأسف، كانت السيدة روزا عُرضة للتعديلات بسبب قوانين الطبيعة التي كانت تهاجمها من جميع الجهات، في العينين، والأعضاء المعروفة مثل القلب والكبد والشرايين وكل ما يمكن أن نجده لدى أشخاص مستهلَكين للغاية. ولمّا لم يكن لديها مصعد كانت تتوقف في بعض

الأحيان بين الطوابق فنضطرّ جميعنا إلى النزول ودفعها إلى الأمام بمن فينا بنانيا الذي بدأ يستيقظ على الحياة ويشعر بأن له مصلحة في الدفاع عن شريحة اللحم التي يأكلها.

القلب والرأس هما أهمّ قطع الإنسان ومن أجلهما يجب أن يُ دفع أكثر. إذا توقف القلب لا يمكنه الاستمرار كما كان في السابق وإذا انفصل الرأس عن الكل ولم يعد يدور يفقد الإنسان صفاته ولا يستفيد من الحياة بعد الآن. ولكي تعيش عليك في اعتقادي أن تستخدمهما في سنّ مبكرة لأنك بعد ذلك تفقد كل قيمتك ولن يعطيك أحد هدية.

في بعض الأحيان كنت أجلب للسيدة روزا أشياء لا فائدة منها ولا تصلح للاستخدام في شيء لكنها تُسرّ لأن لا أحد يريدها ورُمي بها. مثلاً، لديكم أناس يضعون في بيوتهم زهوراً بمناسبة عيد ميلاد، أو حتى بلا سبب، وذلك لإضفاء جو البهجة على الشقّة، وبعد أن تيبس الزهور وتفقد بريقها يُلقى بها في صناديق القمامة فإذا نهضتم باكراً يمكنكم أخذها وكان هذا اختصاصي، وهو ما يدعى النفايات. أحياناً يكون للزهور بقية من الألوان ولا تزال حيّة نوعاً ما فأصنع منها باقات غير آبهٍ بمسألة العُمر وأقدّمها إلى السيدة روزا التي تضعها في مزهريات بدون ماء لأنه لم يعد يجدي نفعاً. وإلاّ قصصت أذرعاً كاملة من الميموزا في عربات الربيع في سوق الهال وأعود بها إلى المنزل لكي تفوح منها رائحة السعادة. في الطريق كنت أحلم بمعارك الزهور في نيس وغابات الميموزا التي تنمو بأعداد كبيرة حول هذه المدينة البيضاء بالكامل التي عرفها السيد هاميل وكان يحدّثني عنها أحياناً لأنها لم تعد هي نفسها.

كنا نتحدث في ما بيننا باليهودية أو العربية بوجه خاص وإلاّ بالفرنسية حين يكون عندنا غرباء أو عندما لا نريد أن نكون مفهومين، لكن في الوقت الحاضر صارت السيدة روزا تخلط جميع اللغات التي عرفتها في

حياتها وتحدثني بالبولونية وهي لغتها الأقدم والتي تعود إليها لأن أكثر ما يبقى لدى العجائز هو شبابهنّ. أخيراً، باستثناء الدرج، كانت لا تزال تكدّ. لكن هذه لم تكن حقاً حياتها اليومية وكان لا بد من إعطائها حقناً في ردفيها. كان من الصعب العثور على ممرضة شابة بما يكفي لصعود الطوابق الستة فضلاً عن أن تكون متواضعة، وقد رتّبت الأمر مع الماهوت الذي كان يحقن نفسه بشكل قانوني لأنه كان مصاباً بداء السكّري وحالته الصحية تسمح له بذلك. كان شخصاً طيباً جداً صنع نفسه بنفسه لكنه كان أسود وجزائرياً بشكل رئيسي. كان يبيع أجهزة الترانزيستور ومنتجات أخرى من سرقاته وفي ما تبقى من وقت كان يحاول التخلّص من السموم في مارموتان حيث كانت له مداخل. جاء لإعطاء السيدة روزا حقنتها لكن ساءت الأمور نتيجة خطأ ارتكبه بأن حقن مؤخرة السيدة روزا بحقنة هيرويين كان يحتفظ بها لليوم الذي ينهي فيه التخلص من السموم.

لاحظت على الفور أن شيئاً ضد الطبيعة كان يحدث لأنني لم أرَ قطّ اليهودية منشرحة كل هذا الانشراح. في البداية اعترتها دهشة هائلة ثم غمرتها السعادة، حتى أنني خفت لاعتقادي أنها لن تعود لأنها كانت في الجنّة. الهرويين، أنا أبصق عليه. الأطفال الذين يحقنون أنفسهم يصبحون معتادين على السعادة وهذا لا يُسامَح نظراً إلى أن السعادة معروفة بحالات الفقدان. لكي يحقن أحدهم نفسه فلا بد أنه يبحث عن السعادة ولا يحمل مثل هذه الأفكار إلا ملوك الحمقى. أنا لم أوثر نفسي بالطيّبات أبداً. في بعض الأحيان دخّنت الماري مع الأصدقاء لأكون مهذباً ومع ذلك، في سنّ العاشرة، يعلمك الكبار أشياء كثيرة، لكنني لا أريد أن أكون سعيداً وما زلت أفضّل الحياة. السعادة قُمامة جميلة وجلد بقرة ويجب تعليمها العيش. لسنا في نفس الجانب، أنا وهي، ولا أبالي. لم أعمل في السياسة من قبل لأن ذلك يعود دائماً بالفائدة على أحد،

لكن السعادة يجب وضع قوانين لمنعها من الرذالة. أقول ما أفكّر فيه فقط وربما كنت مخطئاً، لكن ليس أنا من يحقن نفسه ليكون سعيداً. اللعنة. لا أريد أن أحدّثكم عن السعادة لأنني لا أريد أن أُصاب بنوبة عنف، لكن السيد هاميل قال إن لديّ ميولاً لما لا يمكن التعبير عنه. قال إن ما لا يمكن التعبير عنه. هنا يجب البحث عنه وهو موجود هنا.

أفضل طريقة للحصول على الخراء هي ما كان يفعله الماهوت، وهذا يعني أنك لم تُحقن أبداً ومن ثم يعطيك الشباب حقنة مجّانية على الفور، لأن لا أحد يرغب في الشعور بالوحدة في التعاسة. عدد الشبان الذين أرادوا إعطائي حقنتي الأولى لا يصدَّق، لكنني لست هنا لمساعدة الآخرين على العيش فلديّ بالفعل ما يكفي مع السيدة روزا. السعادة لا أريد الخوض فيها قبل أن أحاول كل شيء للخروج.

إذاً كان الماهوت. هذا اسم لا معنى له ولذلك أطلقناه عليه. هو الذي ثبّت السيدة روزا في الـ أش. إل. إم[1] وهو اسم الهرويين عندنا بسبب تلك المنطقة في فرنسا حيث يُزرع. كانت السيدة روزا مذهولة على نحو رائع، وبعد ذلك دخلت في حالة من الرضا كان من المؤلم رؤيتها. تصوّروا، هذا كل ما كان ينقص يهودية في الخامسة والستين. انطلقتُ على وجه السرعة لاستدعاء الدكتور كاتز لأنه يوجد مع الخراء ما يسمّى الجرعة الزائدة ونذهب إلى الجنة الاصطناعية. لم يأت الدكتور كاتز لأنه أصبح ممنوعاً من صعود ستة طوابق فاتصل تلفونياً بطبيب شاب يعرفه. وصل هذا الطبيب بعد ساعة فيما كانت السيدة روزا تُريّل في كنبتها. نظر إليّ الدكتور كما لو أنه لم يرَ من قبل شاباً يبلغ من العمر عشر سنوات.

---

(١) H.L.N المساكن الشعبية في فرنسا.

ـ ما هذا المكان؟ نوع من الحضانة؟

أشفقت عليه بهيئته المنزعجة، كما لو كان هذا غير ممكن. كان الماهوت يبكي على الأرض، لأن سعادته هي التي أدخلها في مؤخرة السيدة روزا.

ـ لكن في النهاية، كيف أمكن ذلك؟ من زوّد هذه المرأة العجوز بالهرويين؟

نظرت إليه، واضعاً يديّ في جيبي، لكنني لم أقل له شيئاً، فما الفائدة، إنه شاب في الثلاثين من عمره ولا يزال أمامه كل شيء ليتعلّمه.

بعد بضعة أيام وقع لي حادث سعيد. كنت أتجوّل في متجر كبير في ساحة الأوبرا حيث يوجد سيرك في واجهة زجاجية لكي يأتي الآباء مع أطفالهم ليشاهدوا بدون أي التزام من جهتهم. كنت قد ذهبت إلى هناك عشر مرات لكنني وصلت باكراً في ذلك اليوم وكان الستار لا يزال مسدلاً فتجاذبت أطراف الحديث مع كنّاس إفريقي لم أكن على معرفة به لكنه كان أسود. جاء من أوبرفيلييه حيث يوجد من أمثاله أيضاً. دخّنا سيجارة وراقبته وهو يكنس الرصيف برهة لأن هذا أفضل شيء أفعله. ثم عدت إلى المتجر واستمتعت. كانت الواجهة محاطة بنجوم أكبر من المعتاد تضيء وتنطفئ كطرفة عين. في الوسط يقع السيرك مع المهرّجين وملاّحي الفضاء الذين يذهبون إلى القمر ويعودون ملوّحين للمارّة والبهلوانات الذين يطيرون في الهواء بالسهولة التي تمنحهم إياها مهنتهم، وراقصات بيض على ظهور الجياد مرتديات التنانير وحمّالين مفتولي العضلات يرفعون أثقالاً لا تصدّق من دون أي جهد، لأنهم ليسوا بشراً ويتحركون آلياً. وكان هناك أيضاً جمل وساحر مع قبعة يخرج منها بالتالي أرانب تقوم بدورة في الحلبة ثم تصعد إلى القبعة لتبدأ من جديد مرة بعد مرّة في مشهد متواصل لا يمكنه أن يتوقف لأن ذلك أقوى منه. كان المهرّجون من كل الألوان ويرتدون حسب الأصول عندهم، مهرجون زُرق، وبيض، بألوان قوس قزح، ولهم أنوف مع لمبة حمراء

تضيء. خلفهم جمهور من المشاهدين غير الحقيقيين وظيفتهم الضحك والتصفيق بدون توقف ولذلك صُنعوا. كان ملاّحو الفضاء ينهضون لتحية الجمهور عندما يلمسون سطح القمر وكانت عربتهم تتباطأ لكي تتيح لهم أن يأخذوا وقتهم. وحين نظنّ أننا رأينا كل شيء تخرج فِيلة مضحكة من حظيرتها يُمسك بعضها بأذيال بعض وتقوم بدورات في الحلبة وكان آخرها فيل لا يزال طفلاً وردياً كما لو أنه ولِد للتو. لكن لكن المهرجين كانوا الملوك في نظري. كانوا لا يشبهون شيئاً ولا أحداً، ولهم رؤوس مستحيلة وعيون كعلامات الاستفهام وجميعهم أغبياء جداً لدرجة أنهم كانوا دائماً في مزاج مرح. كنت أشاهدهم وأفكّر في أن السيدة روزا كانت لتبدو مضحكة جداً لو أنها مهرّج لكنها لم تكن كذلك وهذا ما يثير الاشمئزاز. كانوا يرتدون سراويل لا تنفكّ تنزل وترتفع لأنها كانت مضحكة جداً ولديهم آلات موسيقية تبثّ شرارات ونوافير مياه بدل ما تنتجه هذه الآلات في الحياة العادية. كان المهرّجون أربعة والملك أبيض يرتدي قبعة مدبّبة وسروالاً منفوخاً وله وجه أكثر بياضاً من الآخرين. كان هؤلاء ينحنون له ويؤدون تحيات عسكرية ويقوم هو بركلهم على مؤخّراتهم. لا يفعل غير ذلك طوال حياته ولا يستطيع أن يتوقف حتى لو أراد وكان مصمّماً لهذه الغاية، وهو لا يفعل ذلك بسوء نيّة بل آلياً. كان هناك مهرّج أصفر مع لطخات خضر ووجه سعيد دائماً حتى عندما يضرب رأسه وكان يقدّم عرضاً على سِلك حديدي ويخفق دائماً لكنه يجد ذلك مضحكاً لأنه فيلسوف، وله باروكة شقراء تنتصب من الرعب على رأسه عندما يضع أول رجل على السِلك ثم الرجل الثانية وهكذا دواليك إلى أن تصبح الرجلان كلتاهما على السلك فلا يستطيع أن يتقدّم أو يتأخّر فيأخذ في الارتجاف لكي يثير الضحك ولا شيء أكثر إضحاكاً من مهرّج خائف. كان رفيقه أزرق ولطيفاً يمسك قيثارة صغيرة جداً ويغنّي للقمر ويبدو طيّب القلب جداً لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً.

الأخير كان في الحقيقة اثنين لأن لديه قريناً ويفعل أحدهما ما يفعله الآخر ويحاولان الانفصال أحدهما عن الآخر فلا يتمكّنان لأنهما مرتبطان معاً. وأحسن ما في الأمر هو أن كل ذلك يجري آليّاً ونعلم مسبّقاً أنهما لا يعانيان ولا يشيخان ولا مَن يحزنون. كان ذلك مختلفاً كل الاختلاف عن أي شيء آخر ولا يمتّ له بصِلة. حتى الجمل كان يريد لكم الخير بخلاف ما يدلّ عليه اسمه. كانت ابتسامته ملء فمه ويتمايل كامرأة مضحكة. كان الجميع سعداء في هذا السيرك غير الطبيعي. كان المهرّج على سِلك الحديد يتمتع بأمان كامل وخلال عشرة أيام لم أره يسقط مرّة واحدة وكنت أعلم أنه لو سقط فلن يتألم، كان شيئاً آخر حقاً، ماذا. كنت سعيداً جداً حتى أنني أردت أن أموت لأن السعادة يجب اغتنامها أثناء وجودها.

كنت أشاهد السيرك ناعم البال عندما شعرت بيد على كتفي، استدرت بسرعة لأنني ظننت للوهلة الأولى أنه شرطي لكن كانت امرأة شابّة نوعاً ما، في الخامسة والعشرين حدّاً أقصى. كانت جميلة، شقراء، غزيرة الشعر، تفوح منها رائحة طيّبة ومنعشة.

- لماذا تبكي؟

- أنا لا أُبكي.

لمستْ خدّي.

- وهذا، ما هذا؟ أليست دموعاً؟

- لا. لا أعرف أبداً من أين أتت.

- طيّب، يبدو أنني أخطأت. ما أجمل هذا السيرك!

- إنه أفضل ما رأيت من هذا النوع.

- أنت تسكن هنا؟

ـ لا، أنا لست فرنسياً، أنا جزائري على الأرجح، نسكن في بلفيل.

ـ ما اسمُك؟

ـ مومو.

لم أفهم على الإطلاق لماذا كانت تغازلني، كنت في العاشرة وما زلت لا أصلح لشيء بعد، حتى كعربي. أبقتْ يدها على خدّي وتراجعتُ قليلاً. يجب أن تكون حذراً. أنتم لا تعرفون ربما، لكن هناك خدمات اجتماعية تبدو وكأنها لا شيء ثم تسطّر في حقكم مخالفة مع تحقيق إداري. وما من شيء أسوأ من التحقيق الإداري. تكاد السيدة روزا تموت حين تفكر في التحقيق الإداري. تراجعت قليلاً أيضاً، لكن ليس كثيراً لكي أحصل على الوقت اللازم للهرب إذا كانت تبحث عني. لكنها كانت جميلة جداً ويمكنها أن تكوّن ثروة لو أرادت، مع شاب جدّي يهتمّ بها. بدأت تضحك.

ـ يجب ألاّ تخاف.

حسبك. «يجب ألاّ تخاف» هذه خدعة غبية. لطالما قال السيد هاميل إن الخوف هو حليفنا الموثوق به ومن دونه يعلم الله ماذا يحدث لنا، صدِّقوا خبرتي القديمة. حتى أن السيد هاميل ذهب إلى مكّة لشدّة خوفه.

ـ يجب ألاّ تتسكع وحدك في الشوارع في هذا العمر.

عندها ضحكتُ. ضحكت ضحكاً ملكياً. لكن لم أقل شيئاً لأنني لم أكن هناك لأعسّه.

ـ أنت أجمل صبي صغير رأيته على الإطلاق.

ـ أنت جميلة أيضاً.

ضحكتْ.

ـ شكراً.

لا أعرف ما الذي حدث لي ولكنني حصلت على فرصة للأمل. ليس لأنني أتطلّع إلى الاستقرار فأنا لن أترك السيدة روزا ما دامت لا تزال قادرة. لكن ينبغي التفكير في المستقبل الذي يعترض طريقك دائماً عاجلاً أو آجلاً وكنت أحلم به في الليل أحياناً. شخص ما مع أوقات فراغ على البحر ولا يجعلني أشعر بشيء. حسناً، لقد خنت السيدة روزا قليلاً لكن في رأسي فقط، عندما أردت أن أموت. نظرت إليها بأمل ونبضات قلبي تتسارع. الأمل، هو الشيء الأقوى دائماً، حتى لدى المتقدّمين في السِنّ مثل السيدة روزا والسيد هاميل.

لكنها لم تقل أي شيء آخر. توقّف الأمر عند هذا الحدّ. الناس مجّانيون. كلّمتني، أدّت لي خدمة غير متوقّعة، ابتسمت لي ابتسامة لطيفة ثم تنهّدت وذهبت. عاهرة.

كانت ترتدي معطفاً واقياً من المطر وبنطالاً. ورأيت شعرها الأشقر حتى من الخلف. كانت نحيلة، ومن طريقتها في المشي رأيت أن بإمكانها صعود الطوابق الستة ركضاً وعِدّة مرات في اليوم مع الرِزَم.

تبعتها متسكّعاً لأنه لم يكن لديّ شيء أفعله أفضل من ذلك. ذات مرّة توقّفتْ. رأتني. وضحكنا كلانا. ومرّة أخرى اختبأت وراء باب لكنها لم تلتفت ولم ترجع، كدت أضيّعها. كانت تسير بسرعة وظننت أنها نسيتني لأن لديها أشياء أخرى لتهتم بها. اجتازت مدخل باب العربات لإحدى البنايات ورأيتها تتوقّف في الطابق الأرضي وتقرع الجرس. لم تفشل. فُتح الباب وقفز إلى عنقها طفلان، في السابعة أو الثامنة من العمر، ماذا. آه مهلاً، أقسم لكم.

جلست تحت سقيفة مدخل العربات وبقيت بعض الوقت دون أن أعرف أأريد البقاء هناك أم في مكان آخر. كان لديّ شيئان أو ثلاثة بإمكاني القيام بها، الذهاب إلى متجر المنوّعات في ساحة النجمة مع

رسوم متحركة، أو إلى بيغال حيث أجد الفتيات اللواتي أحببنني كثيراً وأكسب بعض المال. لكن فجأة تلقيت صفعة وكان الأمر عندي سِيّان. ما عدت أرغب في البقاء هناك على الإطلاق. أغمضت عينيّ لكن الأمر يتطلب أكثر من ذلك وكنت لا أزال هناك، وهذا تلقائي عندما نعيش. لم أفهم إطلاقاً لماذا تودّدت إليّ تلك العاهرة. ينبغي القول إنني غبيّ نوعاً ما فحين يتعلّق الأمر بالفهم أنشغل بالبحث طوال الوقت، بينما السيد هاميل محقٌّ عندما يقول أن لا أحد يفهم شيئاً لمدّة طويلة ولا يسعنا إلا أن نتفاجأ. عدت لمشاهدة السيرك وربحت ساعة أو اثنتين أيضاً لكن هذا لا شيء في يوم. دخلت إلى صالون شاي للسيّدات والتهمت قطعتي كاتو من أصابع الشوكولا المفضّلة لديّ، وسألت أين يمكنني أن أتبوّل ثم توجّهت مباشرة نحو الباب، والسلام. بعد ذلك سرقت كفوفاً من معرض في متاجر برانتان وذهبت لأرميها في صندوق قُمامة، وقد أراحني ذلك.

عندما عدت إلى شارع بونتيو حدث شيء غريب حقاً. أنا لا أؤمن بكثير من الأشياء الغريبة لأنني لا أرى وجه الاختلاف فيها.

كنت خائفاً من العودة إلى المنزل. تؤلمني رؤية السيدة روزا وأعلم أنني سوف أفقدها بين لحظة وأخرى. فكّرت في ذلك طوال الوقت، وأحياناً لم أعُد أجرؤ على العودة. أردت أن أسرق شيئاً كبيراً من متجر ويُقبض عليّ لإظهار الأهمية، أو أُحاصر في فرع وأدافع عن نفسي بمدفع رشّاش حتى النهاية. لكنني كنت أعلم أن لا أحد سيعبأ بي على أي حال. كنت إذاً في شارع بونتيو وقتلت على هذا النحو ساعة من الوقت أو ساعتين في مشاهدة شبّان يلعبون كرة قدم الطاولة في حانة صغيرة. ثم أردت الذهاب إلى مكانٍ آخر لكن لم أعرف إلى أين فبقيت هناك متسكّعاً. كنت أعلم أن السيدة روزا كانت في حالة يأس وتخشى دائماً أن يحدث لي شيء ما. وقلّما كانت تخرج لأنها لم تعد قادرة على الصعود. في البداية كنا ننتظرها في الأسفل أربعة أو خمسة وعندما تأتي يشترك جميع الأطفال في دفعها. لكن في الوقت الحاضر يندر أن تخرج فلم يعد لها ساقان ولا قلب بما فيه الكفاية وأنفاسها لا تكفي لشخص له ربع وزنها. كانت لا تريد سماع أي كلام عن المستشفى حيث يجعلونك تموت حتى آخر رمق بدل أن يعطوك حُقنة. كانت تقول إن الموت الرحيم ممنوع في فرنسا حيث يجبرونك على البقاء حيّاً ما دمت قادراً

على أن تُريّل. وكان لدى السيدة روزا خوف أزرق من التعذيب وتقول إنها عندما تصبح غير قادرة على التحمّل سوف تجهض نفسها. وقد حذّرتنا من أنه إذا حجزت عليها المستشفى فسنجد أنفسنا جميعاً في المساعدة العامة بصورة قانونية وتشرع في البكاء عندما تفكّر في أنها قد تموت وفقاً للقانون. القانون وجد لحماية الناس الذين يحتاجون إلى الحماية من الآخرين.

يقول السيد هاميل إن الإنسانية ليست إلاّ فاصلة في كتاب الحياة الكبير وعندما يقول رجل مُسنّ مثل هذا الهُراء لا أرى ماذا يمكن أن أضيف إليه. الإنسانية ليست فاصلة لأنه عندما تنظر إليّ السيدة روزا بعينيها اليهوديتين فهي ليست فاصلة بل إنها كتاب الحياة الكبير بكامله ولا أريد أن أراه.

ذهبت مرّتين إلى المسجد من أجل السيدة روزا لكن من دون نتيجة لأن ذلك لا ينطبق على اليهود. لذلك واجهت صعوبة في العودة إلى بلفيل وأجدني عيناً لعين مع السيدة روزا. كانت تقول دائماً إن «عين! عين!» هي صرخة القلب اليهودي عندما يشعرون بالألم في مكان ما، والأمر مختلف جداً عند العرب، فنحن نقول «خيّي! خيّي!»، ويقول الفرنسيون «أوه! أوه!» حين لا يكونون سعداء لأن علينا ألاّ نصدّق أن هذا يحدث لهم أيضاً. كنت على وشك بلوغ العاشرة من عمري لأن السيدة روزا قررت أن عليّ التعود على أن يكون لي تاريخ ميلاد وقد صادف اليوم. قالت إن هذا الأمر مهم لتطويري بشكل طبيعي، وكل الباقي، اسم الأب، الأم، من قبيل الغطرسة.

جلست تحت سقيفة مدخل عربات في انتظار مرور الوقت، ولكن الوقت أقدم من أي شيء آخر وهو يمشي ببطء. عندما يتألم الناس تكبر عيونهم وتصبح أكثر تعبيراً من ذي قبل. لدى السيدة روزا عينان كانتا

تكبران وتصبحان شيئاً فشيئاً مثل عيون الكلاب التي تنظر إليكم وأنتم تضربونها دون أن تعرف لماذا. رأيت ذلك من هنا مع أنني كنت في شارع بونتيو قرب الشانزليزيه حيث توجد متاجر فاخرة. شعرها العائد إلى ما قبل الحرب كان يتساقط أكثر فأكثر وعندما كانت تتجرأ على القتال كانت تطلب مني أن أجد لها باروكة جديدة مع شعر

حقيقي لتبدو وكأنها امرأة. كانت باروكتها القديمة قد أصبحت مثيرة للاشمئزاز هي أيضاً. ينبغي القول إنها كانت صلعاء مثل رجل وهذا يؤذي العيون لأن النساء لسن مصمّمات لذلك. ثم إنها أرادت باروكة شعر أشقر لأن هذا اللون مناسب لنوع جمالها ولا أعرف من أين أسرق لها مثل هذه الباروكة. لا يوجد في بلفيل مؤسسات للنساء الجيدات القبيحات مما يطلق عليها اسم معاهد التجميل. وفي الشانزليزيه لا أجرؤ على الدخول. يجب أن تطلب، وتقيس، وما إلى هناك.

شعرت أنني في أسوأ حالاتي. حتى أنني فقدت الرغبة في شرب زجاجة كوكا. حاولت أن أقول لنفسي إنني لم أولد في هذا اليوم أكثر من أي يوم آخر وعلى أي حال فهذه القصص عن تاريخ الميلاد ما هي إلا توافقات جماعية.. فكرت في رفاقي، الماهوت أو الشاه الذي يكدح في مضخّة بنزين. عندما تكون طفلاً يجب أن تكون كثيرين لكي تكون شخصاً ما.

استلقيت على الأرض وأغمضت عينيّ وقمت بتمارين لكي أموت، لكن الإسمنت كان بارداً وخشيت أن أصاب بمرض. في حالتي عرفت أشخاصاً يركلون بعضهم بعضاً بأكوام من الخِراء لكن أنا لن ألحس مؤخرة الحياة لأكون سعيداً. أنا لا أريد أن أجعل الحياة جميلة، أنا ألعنها. ليس لدى أحدنا ما يعطيه الآخر. عندما أحصل على الرشد القانوني ربما أصبح إرهابياً، أخطف طائرات وأحتجز رهائن كما في

التلفزيون لأطلب شيئاً ما، ما زلت لا أدري ما هو، لكن لن يكون فطيرة حلوى. الشيء الحقيقي، ماذا. في الوقت الحاضر لا أستطيع أن أخبركم بما يجب أن أطلبه لأنني لم أتلقّ تدريباً مهنياً.

كنت جالساً على الأرض، ومؤخّرتي، على الإسفلت، أخطف طائرات وأحتجز رهائن يرفعون أياديهم في الهواء وأتساءل ماذا سأفعل بالمال لأننا لا نستطيع شراء كل شيء. سأشتري عقارات للسيدة روزا كي تموت بهدوء واضعة رجليها في الماء مع باروكة جديدة. سأرسل أبناء العاهرات وأمهاتهم إلى فنادق فخمة في نيس حيث سيكونون بمنأى عن الحياة ويمكنهم أن يصبحوا في ما بعد رؤساء دول في زيارة إلى باريس أو من أعضاء الأكثرية الذين يعبّرون عن تأييدهم أو حتى عوامل مهمة للنجاح. ويمكنني الذهاب لشراء جهاز تلفزيون جديد عاينته في واجهة محلّ.

فكّرت في كل ذلك لكن لم أكن أرغب حقاً في القيام بأعمال تجارية. أحضرت المهرّج الأزرق وقضينا وقتاً ممتعاً معاً. ثم أحضرت المهرّج الأبيض فجلس بجانبي وعزف لي بصمت على قيثارته الصغيرة. أردت العبور والبقاء معهما إلى الأبد لكنني لا أستطيع أن أترك السيدة روزا وحدها في الغائط. كنا قد حصلنا على فيتنامي جديد قهوة بالحليب بدلاً من القديم الذي أنجبته سوداء من الأنتيل فرنسية عمداً من عشيق أمّه يهودية وأرادت أن تربيه بنفسها لأنها جعلت منه قصة حب وكانت شخصية. دفعت نقداً وعدّاً لأن السيد نْدا أميدي ترك لها ما يكفي من المال لتعيش حياة محترمة. كان يأخذ أربعين في المئة من المضاجعات لأن الرصيف كان مزدحماً جداً ولا يعرف الهدنة ويجب أن يدفع لليوغسلافيين وهم مصيبة حقيقية بسبب الخوّات. وكان هناك الكورسيكيون أيضاً الذين بدأوا تكوين جيل جديد.

كان على مقربة مني مخبأ فيه أشياء لا حاجة لها وكان بإمكاني إشعال النار فيها ويحترق المبنى بأكمله، ولكن لن يعرف أحد أنني الفاعل وعلى أي حال لم يكن ذلك عملاً حصيفاً. أتذكر جيداً تلك اللحظة في حياتي لأنها كانت مثل مثيلاتها تماماً. في المنزل لا تزال الحياة عادية لكن في بعض الأوقات أشعر بأنني متوعك. لم أكن أشعر بألم في أيّ مكان ولذلك لم يكن لديّ سبب لكن كان الأمر كما لو لم تكُ لي ذراعان ولا ساقان بينما لديّ كل ما يلزم. حتى السيد هاميل لا يمكنه تفسير ذلك.

ينبغي القول دون الإساءة إلى أحد أن السيد هاميل أصبح أكثر غباء، كما يحدث أحياناً للشيوخ الذين لم يعودوا بعيدين عن الحساب، ولم يعد لديهم أعذار. إنهم يعرفون ما الذي ينتظرهم ونرى في عيونهم أنهم ينظرون إلى الوراء لكي يختبئوا في الماضي كالنعام الذين يمارسون السياسة. كان كتاب فيكتور هوغو تحت يده دائماً لكن كان يختلط عليه الأمر فيظنّ أنه القرآن لأنه كان يملك الاثنين. كان يحفظهما عن ظهر قلب في أجزاء صغيرة ويتكلم كما يتنفّس ولكنه يخلط بينهما. عندما كنت أذهب معه إلى المسجد حيث نترك انطباعاً جيداً جداً لأنني أقوده كما يقاد الأعمى، والعميان عندنا يحظون بتقدير كبير، كان يخطئ دائماً وبدل أن يصلّي يتلو واترلو واترلو سهل كئيب مما يدهش العرب الحاضرين لأن ذلك ليس في محلّه، حتى أن عينيه كانتا تدمعان لفرط الحماسة الدينية. كان جميلاً جداً بجلاّبيته الرمادية وطاقيته البيضاء على رأسه ويصلّي ليلقى قبولاً حسناً. لكنه لم يمت أبداً ويمكن أن يصبح بطل العالم لكلّ الفئات لأنه لا يوجد في سنّه من يقول أفضل من ذلك. الكلاب هي التي تموت في سنّ أصغر لدى الإنسان. عندما تبلغ الثانية عشرة من العمر لا يعود بإمكاننا الاتكال عليها ويجب تجديدها. في المرة المقبلة إذا أصبح لديّ كلب فسوف آخذه وهو لا يزال في المهد ليكون لديّ وقت طويل قبل أن أفقده. المهرّجون وحدهم لا يعرفون

مشاكل الحياة والموت لأنهم لا يأتون إلى العالم عن طريق الأسرة. لقد اختُرعوا بدون قانون الطبيعة ولا يموتون أبداً لأن ذلك لن يكون مضحكاً. يمكنني أن أراهم إلى جانبي متى شئت. يمكنني أن أرى إلى جانبي أياً كان، كينغ كونغ أو فرانكشتاين أو أسراباً من العصافير الوردية الجريحة، ما عدا أمي لأنني لا أملك الخيال الكافي لذلك.

نهضت. مللت البقاء في مدخل العربات وألقيت نظرة على الشارع لأرى ما هنالك. على اليمين سيارة شرطة مع رجال شرطة جاهزين. أودّ أن أصبح شرطياً أنا أيضاً عندما أبلغ سنّ الرشد لكي لا أخاف من شيء ولا أحد ولكي أعرف ما الذي يجب فعله. عندما يكون أحدنا شرطياً فهو مأمور من قِبل السلطة. كانت السيدة روزا تقول إن في المساعدة العامة الكثير من أبناء العاهرات الذين أصبحوا من رجال الشرطة، وقوى الأمن، وقوى الجمهورية، ولا يستطيع أحد أن يلمسهم بعد الآن.

خرجت لأرى واضعاً يديّ في جيبيّ، واقتربت من عربة الشرطة، كما يسمّون. شعرت بشيء من الخوف. لم يكونوا كلهم في العربة وبعضهم منتشر على الأرض. بدأت أصفر لحن المرور عبر اللورين لأنه ليست لي سحنة شخص من البلد وابتسم لي أحدهم. رجال الشرطة هم الأقوى في العالم.

حين يكون لطفل أب شرطي فكأن له أبوين بدلاً من أب واحد للآخرين. إنهم يقبلون في صفوفهم عرباً وحتى سوداً إن كان لديهم شيء فرنسي، وجميعهم أبناء عاهرات مروراً بالمساعدة ولا أحد يمكنه أن يعلّمهم شيئاً. لا شيء أفضل من قوّة أمنية. أقول لكم ذلك كما أعتقد، حتى العسكريون لا يصلون إلى كاحلهم، ربما باستثناء الجنرال. لدى السيدة روزا خوف أزرق من الشرطة لكن بسبب المنزل الذي أُبيدت فيه، لأنها كانت في الجانب الخطأ. أو أنني سأذهب إلى الجزائر وأدخل

الشرطة هناك حيث هم الأكثر حاجة. في فرنسا عدد الجزائريين أقل بكثير من عددهم في الجزائر لذلك لديهم القليل من العمل هنا. تقدّمت خطوة أو خطوتين نحو العربة حيث كانوا جميعاً ينتظرون الفوضى والسرقة المسلّحة وكان قلبي يخفق بقوة. ما زلت أشعر بخرق القانون وأشعر أنه لا ينبغي أن أكون هناك. لكنهم لم يفعلوا لا واحداً ولا اثنين ولعلهم كانوا متعبين، حتى أن أحدهم كان نائماً على النافذة، وكان آخر يأكل بهدوء موزة مقشّرة قرب جهاز ترانزستور وكان في وقت الاسترخاء. في الخارج يقف شرطي بيده جهاز راديو ولا يبدو أنه قلق من كل ما يجري. كنت خائفاً لكن يحسن بنا أن نخاف ونحن نعرف السبب، لأنني أشعر عادة بخوف أزرق من دون أي سبب، كما أتنفّس. رآني الشرطي حامل الهوائي لكنه لم يتخذ أي إجراء ومررت قربه وأنا أصفّر وكأني في المنزل.

هناك رجال شرطة متزوّجون ولديهم أطفال، وأعلم أن هذا موجود. تناقشت مرّة مع الماهوت لمعرفة كيف يحدث أن يكون هناك أب شرطي، لكن الماهوت ملّ النقاش وقال إن ذلك لا يفيد في شيء وغادر. لا جدوى من النقاش مع مدمني المخدّرات فلا فضول لديهم.

تجوّلت لبعض الوقت أيضاً لكي لا أعود إلى المنزل، ورحت أعدّ كم يوجد من الخطى على الرصيف فوجدت منها ثروة حتى لم أجد لها مكاناً في أرقامي. كان الوقت هو الأصيل والشمس لم تغرب بعد. ذات يوم سأذهب إلى الريف لأرى كيف يحدث ذلك. البحر أيضاً يمكن أن يثير اهتمامي، فقد حدّثني عنه السيد هاميل بكثير من التقدير. لا أعرف ماذا كنت سأصبح بدون السيد هاميل الذي علّمني كل ما أعرف. كان قد جاء إلى فرنسا مع عمّه وهو طفل وكان صغيراً في وقت مبكر جداً عندما مات عمّه ومع ذلك نجح في تأهيل نفسه.

في الوقت الحاضر يزداد غباء يوماً بعد يوم وذلك لأنه لم يكن مُصمَّماً ليبلغ من العمر عِتيّاً. بدت الشمس مثل مهرّج أصفر جالس على السطح. ذات يوم سأذهب إلى مكة حيث يوجد من الشمس أكثر من أي مكان آخر كما قال السيد هاميل، فالجغرافيا هي التي قضت بذلك. ولكن أظن في بقية الأمر أن مكة ليست بعيدة حقّا هي الأخرى. أودّ الذهاب بعيداً جداً إلى مكان مليء بشيء آخر حتى أنني لا أحاول تخيّله لئلا أُفسده. يمكننا الحفاظ على الشمس، وعلى المهرّجين والكلاب لأننا لا نستطيع أن نفعل ما هو أفضل في هذا النوع. أما البقية فلم تتم رؤيتها أو معرفتها وترتيبها بوجه خاص لهذا الغرض. لكنني أعتقد أن هذا أيضاً سيكون على نسق مشابه. حتى أنه من المضحك أحياناً إلى أي مدى تأخذ الأشياء مكانها!

كانت الساعة قد ناهزت الخامسة وكنت قد بدأت العودة إلى المنزل عندما رأيت شقراء توقف سيارتها الصغيرة على الرصيف حيث ممنوع الوقوف. عرفتها على الفور لأنني حقود مثل شرّير. كانت هي العاهرة التي تركتني في وقت سابق بعد أن توددت إليّ وتبعتها من أجل لا شيء. فوجئت كثيراً برؤيتها. باريس مليئة بالشوارع وتتطلب الكثير من حُسن المصادفة للقاء شخص ما. لم ترَني المرأة وأنا على الرصيف الآخر فعبرت الشارع بسرعة لكي تتعرّف إليّ. لكنها كانت مستعجلة أو لعلّها نسيتني بعد انقضاء ساعتين على لقائنا الأول. دخلت إلى المبنى رقم ٣٩ الذي يفضي في الداخل إلى فِناء منزل آخر. لم يكن لديّ الوقت الكافي حتى لأُظهِر نفسي. كانت ترتدي كنزة من وبر الجمل وبنطالاً وشعر رأسها غزير أشقر، وتركت وراءها خمسة أمتار على الأقل من العِطر. لم تقفل سيارتها بالمفتاح وأردت في البداية أن أسرق شيئاً من داخلها لكي تتذكرني لكنني كنت مغتمّاً بسبب تاريخ ميلادي حتى أنني فوجئت بوجود متّسع من المكان في منزلي. كان هناك الكثير من الناس بالنسبة إليّ وحدي. أفّ، قلت في نفسي، لا داعي للسرقة. حتى أنها لن تعرف أنني الفاعل. كنت أرغب في إظهار نفسي لها لكن لا ينبغي الاعتقاد أنني أبحث عن عائلة فالسيدة روزا لا يزال بإمكانها البقاء على قيد الحياة لبعض الوقت مع الجهد. وموسى وجد مكاناً يأويه وحتى بنانيا كان في

طور المحادثات فلا موجب للقلق. لم يكن لديّ أمراض معروفة، ولم أكن غير قابل للتبنّي وهو أول ما ينظر إليه الناس عندما يختارونكم. نحن نفهمهم لأن هناك أشخاصاً يأخذونكم بثقة ثم يجدون أنفسهم وعلى أذرعهم طفل كان مدمن كحول وبقي في الخلف بينما هناك أطفال ممتازون لم يجدوا أحداً. أنا أيضاً لو كان لي الخيار لاتّخذت الأفضل وليس عجوزاً يهودية لم تعد قادرة وتؤلمني وتجعلني أرغب في الموت كلّما رأيتها في هذه الحالة. لو كانت السيدة روزا كلبة لكنا أنقذناها لكن نحن دائماً ألطف بالكلاب منّا بالبشر بحيث لا نسمح بقتلهم بدون معاناة. أقول لكم ذلك لأنه لا ينبغي الاعتقاد أنني تبعت الآنسة نادين كما سُمّيت لاحقاً حتى تتمكن السيدة روزا من أن تموت بهدوء.

كان مدخل البناية يؤدي إلى بناية ثانية أصغر في الداخل وما إن ولجته حتى سمعت طلقات نارية وصرير مكابح وامرأة تصرخ ورجلاً يتوسّل «لا تقتلوني! لا تقتلوني» وكان ذلك من القرب ما جعلني أقفز في الهواء. ثم سمعت طلقات متواترة من رشاش والرجل يصرخ: «لا!» كالعادة عندما نموت بغير لذّة. ثم ساد صمت أشدّ فظاعة وهنا لن تصدّقوني. تكرّر كل شيء كما في السابق، مع الشخص نفسه الذي كان لا يريد أن يُقتل لأن لديه أسبابه، ومع الرشاش الذي يصغي إليه.

استأنف موته ثلاث مرّات رغماً عنه كما لو أنه نذل وهذا غير مسموح به ويجب أن يُقتل ثلاث مرات لكي يكون عبرة لسواه. خيّم صمت جديد بقي خلاله ميتاً ثم انقضّوا عليه مرة رابعة وخامسة وفي النهاية أشفقت عليه لأنه يموت رغماً عنه. بعد ذلك تركوه هادئاً وارتفع صوت امرأة تقول: «حبيبي، حبيبي المسكين» ولكن بصوت مؤثر جداً وبأصدق العواطف حتى أنني بقيت جاحظ العينين من الدهشة مع أنني لا أعرف حتى ما معنى ذلك. لم يكن في المدخل أحد إلاّ أنا وباب مع لمبة حمراء مضاءة. ما كدت أتمالك نفسي من الانفعال حتى استأنفوا صخبهم مع «حبيبي» حبيبي» ولكن بنبرة مختلفة في كل مرة وأعادوا ذلك مراراً وتكراراً. كان على الرجل أن يموت خمس أو ستّ مرّات بين ذراعي زوجته الطيّبة كما لو كان ذلك وسيلة للشعور بأن هناك من يؤلمه

ذلك. فكّرت في السيدة روزا التي ليس لها أحد لتقول له «حبيبي، حبيبي المسكين» لأنه لم يعد لديها، إذا جاز التعبير، شَعرٌ وتزِن حوالي خمسة وتسعين كيلوغراماً كلٌّ منها أقبح من الآخر. على أن المرأة الطيبة لم تصمت إلا لتطلق صرخة اليأس التي جعلتني أندفع نحو الباب والداخل كرجل واحد. اللعنة، كان هذا نوعاً من السينما غير أن الجميع كان يمشي إلى الوراء. عندما دخلتُ كانت امرأة الشاشة تسقط على الجثة لتحتضر فوقها ولتعود فتنهض مباشرة ولكن بالمقلوب من خلال القيام بكل شيء بشكل معكوس كما لو كانت على قيد الحياة في الذهاب ودُمية في الإياب. ثم انطفأ كل شيء وكان هناك ضوء.

كانت المرأة التي خذلتني تقف وراء المذياع في وسط القاعة أمام المقاعد وعندما أضاء كل شيء رأتني. كان ثلاثة رجال أو أربعة موزعين في الزوايا لكنهم غير مسلّحين. لا بدّ أنني بدوت غبياً فاغر الفم لأن الجميع كان ينظر إليّ بهذه الصورة. تعرّفت عليّ الشقراء ومنحتني ابتسامة كبيرة رفعت معنوياتي لأنني أعجبتها.

لكن هذا صديقي!

لم نكن صديقين على الإطلاق لكن لن أجادل. أقبلت نحوي ونظرت إلى أرثور لكنني كنت أعلم أن اهتمامها منصّب عليّ.

ما هذا؟

هذه مِظَلّة قديمة ألبستها.

إنه مضحك، بزيّه، يبدو وكأنه صنم. أهو صديقك؟

تحسبنني غبياً، أم ماذا؟ هذا ليس صديقاً، إنه مِظلّة.

أخذت أرثور وتظاهرت أنها تنظر إليه. الآخرون فعلوا ذلك أيضاً.

أول شيء لا يريده أحد، عندما يتبنّون طفلاً، هو أن يكون غبياً، يعني ذلك أنه طفل قرر التوقف في الطريق لأن ذلك لا يلائمه، ولديه والدان معوّقان لا يعرفان ماذا يفعلان به. مثلاً، طفل في الخامسة عشرة ويتصرّف كطفل في العاشرة، ويطردونه من المدرسة لأنه مختلّ.

إنه جميل بوجهه الأخضر، لماذا جعلت له وجهاً أخضر؟

كانت تفوح منها رائحة طيبة جداً حتى أنني فكرت في السيدة روزا المختلفة عنها كل الاختلاف.

هذا ليس وجهاً، إنه خِرقة. فالوجوه ممنوعة عندنا.

كيف ممنوعة؟

كانت لديها عينان زرقاوان مرحتان وجميلتان جداً وكانت مقرفصة أمام أرثور، لكن كان ذلك من أجلي.

أنا عربي، الوجوه ممنوعة في ديننا.

تمثيل وجه، تقصد؟

هذا يسيء إلى الله.

ألقت عليّ نظرة عابرة لكنني رأيت بوضوح أنه كان لي تأثير عليها.

كم عمرك؟

قلت لك عندما التقينا للمرة الأولى عشر سنوات. اليوم أكملتها. لكن هذا لا يهمّ. أنا لديّ صديق عمره خمسة وثمانون عاماً ولا يزال موجوداً.

ما اسمك؟

سألتني من قبل، مومو.

بعد ذلك كان عليها أن تعمل. شرحت لي أن هذا المكان يسمّى عندهم قاعة تبديل لغة الأفلام. كان الناس على الشاشة يفتحون أفواههم وكأنهم يتكلّمون لكّن الأشخاص الموجودين في القاعة يعطونهم أصواتهم. مثلما تفعل العصافير، يزقّونهم بأصواتهم في حناجرهم مباشرة. عندما يفشل ذلك في المرّة الأولى ولا تدخل الأصوات في الأفواه في الوقت المناسب يجب البدء من جديد. وهذا أجمل ما نرى: يبدأ كل شيء بالتراجع إلى الوراء. الموتى يعودون إلى الحياة ويمشون

إلى الوراء ليأخذوا مكانهم في المجتمع. نضغط على زرّ فيبتعد كل شيء. السيارات تسير بالمقلوب والكلاب تركض إلى الوراء والبيوت التي كانت قد تحوّلت إلى غبار تتجمّع وتنبني دفعة واحدة أمام أعيننا. الرصاصات تخرج من الأجساد وتعود إلى المدفع الرشاش والقتلة يتراجعون ويقفزون من النافذة بالمقلوب. الماء الذي أُفرغ يعود فيعلو في الكأس. الدم الذي سال ي عود إلى مكانه في الجسم ولا يبقى أثر للدماء في أي مكان والجرح يلتئم. وشخص كان قد بصق يردّ بصقته إلى فمه. الجياد تقفز القهقرى وشخص كان قد سقط من الطابق السابع يصعد من جديد ويدخل عبر النافذة. كان ذلك هو العالم الحقيقي بالمقلوب وكان أجمل شيء رأيته في حياتي اللعينة. حتى أنني في لحظة ما رأيت السيدة روزا شابّة ونضيرة مع ساقيها بأكملهما وأرجعتها إلى الوراء أكثر فأصبحت أجمل. ودمعت عيناي.

مكثت هناك فترة طويلة لأنني لم أكن على عجلة من أمري في أي مكان آخر واستمتعت كثيراً. لا سيما عندما قُتلت المرأة الطيبة التي تظهر على الشاشة وبقيت ميتة بعض الوقت لكي تسبب الشعور بالألم، ثمّ ارتفعت عن الأرض كما لو كان ذلك بيد غير مرئية وبدأت بالتراجع إلى أن وجدت الحياة الحقيقية. الرجل الذي كانت تناديه «حبيبي، حبيبي المسكين» بدا وكأنه خُردة لطيفة لكن هذا لم يكن من شأني. لاحظ الحاضرون أنني كنت سعيداً بهذه السينما وشرحوا لي أن بالإمكان بدء كل شيء من النهاية والعودة على هذا النحو حتى البداية، وضحك أحدهم، وهو ملتح، وقال: «حتى الجنة الأرضية». ثم أضاف: للأسف، عندما يبدأ ذلك مرة أخرى يكون الشيء نفسه دائماً. وقالت لي الشقراء إنها تُدعى نادين وأخبرتني أن مهنتها هي جعل الناس يتحدثون بصوت إنساني في السينما. كنت مسروراً لدرجة أنني ما عدت راغباً في

شيء. تخيّلوا، بيت يحترق وينهار ثم ينطفئ. يجب أن ترى ذلك بعينيك لكي تصدّق لأن عيون الآخرين ليست نفس الشيء.

هنالك وقع لي حدث حقيقي. لا أستطيع القول إنني عدت إلى الوراء ورأيت أمّي، لكن وجدتني جالساً على الأرض ورأيت أمامي ساقين بحذاء يصل إلى الفخذين وتنّورة قصيرة من جلد وبذلت جهداً رهيباً لأرفع عينيّ كي أرى وجهها، وعلمت أنها أمّي لكن بعد فوات الأوان فالذكريات لا يمكنها أن ترفع الأعين. حتى أنني تمكنت من الرجوع إلى الوراء أبعد من ذلك. شعرت من حولي بذراعين دافئتين تهدهدانني، وبألم في بطني، وكان الشخص الذي يمسكني بدفء يمشي بالطول والعرض مترنّماً، وما زال بطني يؤلمني، ثم أطلقت برازاً ذهب ليجلس على الأرض وزال الألم بفعل التبرّز والشخص الدافئ يعانقني ويضحك ضحكة خفيفة أسمعها، أسمعها، أسمعها...

هذا يعجبك؟

كنت جالساً على كنبة ولم يكن هناك شيء على الشاشة.

كانت الشقراء قد اقتربت مني وسطع الضوء في كل مكان.

ليس سيّئاً.

بعد ذلك تعاملت مع الرجل الذي تلقى رشقاً من مدفع رشاش في القناة الهضمية لأنه ربما كان أمين صندوق البنك أو ينتمي إلى عصابة منافسة وصرخ «لا تقتلني، لا تقتلني» مثل غبيّ، لأن هذا لا ينفع، ويجب أن يقوم بعمله. أحبّ في السينما أن يقول الميت «هيّا يا سيدي قُم بعملك» قبل أن يموت، فهذا يدلّ على التفهّم، ولا فائدة من إثارة غضب الناس من خلال أخذهم بالعواطف الطيّبة. غير أن الرجل لم يجد النبرة الصحيحة المُرضية، وكان عليهم أن يرجعوه إلى الوراء مراراً. أولاً يمدّ يديه لإيقاف الرصاصات وهنا يصرخ «لا، لا! و» لا تقتلوني، لا

تقتلوني!» بصوت رجل القاعة الذي يقول ذلك في المذياع بكل أمان. بعد ذلك يسقط على الأرض وهو يتلوى لأن هذا مرغوب في السينما ثم لم يعد يتحرّك. أطلق عليه الأشرار رصاصة ليتأكدوا من أنه لم يعد قادراً على إيذائهم. وبينما كان بالفعل ميؤوساً منه بدأ كل شيء يعود القهقرى وارتفع الرجل في الهواء كما لو أنّ يد الله أمسكته وأوقفته على قدميه لكي يتمكّن من استخدامهما مرّة أخرى.

بعد ذلك رأينا مقاطع أخرى وكان من بينها ما يجب إرجاعه إلى الوراء عشر مرات ليكون كل شيء على ما يُرام. الكلمات أيضاً عادت القهقرى وقالت الأشياء عكسياً مما أحدث أصواتاً غامضة وكأنها بلغة لا يعرفها أحد ولعلّها تريد أن تقول شيئاً.

حين لم يبق شيء على الشاشة رحت أتسلّى بتخيُّل السيدة روزا سعيدة، مع كل شعرها كما كان قبل الحرب، ولم تكن حتى مجبرة على الكدّ لأن العالم كان بالمقلوب.

لامست الشقراء خدّي وينبغي القول إنها كانت لطيفة وهذا مؤسف. فكّرتُ في طفليها اللذين كنت قد رأيتهما وهذا مؤسف، ماذا.

يبدو أن هذا أعجبك كثيراً.

ضحكتُ كثيراً.

يمكنك أن تعود متى أردت.

ليس لديّ الكثير من الوقت، لا أعدك بشيء.

عرضت عليّ الذهاب معها لنأكل البوظة ولم أقل لا.

أعجبتها أيضاً وعندما أخذتُ بيدها لنمشي بخطى أسرع ابتسمتْ. أكلتُ بوظة بشوكولا الفريز والفستق لكن ندمت بعدها إذ كان ينبغي أن آخذ بوظة بالفانيل.

يعجبني أن نتمكّن من إعادة كل شيء إلى الوراء. أقيم عند سيدة ستموت قريباً.

لم تمسّ بوظتها ونظرت إليّ. كان لديها شعر أشقر لدرجة أنني لم أستطع منع يدي من أن ترتفع لتلمسه ثم ضحكتُ لأن ذلك كان مضحكاً.

والداك أليسا في باريس؟

لم أعرف ماذا أقول لها فأكلت المزيد من قطعة البوظة، ولعلّ هذا أكثر ما أحبّ في العالم.

لم تُلِحّ. لطالما أزعجني السؤال ماذا يعمل والدك أو أين أمك، هذا شيء ينقصني كموضوع للمحادثة.

تناولتْ ورقة وقلماً وكتبت شيئاً شدّدت عليه ثلاث مرّات حتى لا أفقد الورقة.

خذ، هذا اسمي وعنواني، يمكنك المجيء متى أردت. لدّي صديق يهتمّ بالأطفال.

طبيب نفساني؟

هنا ذُهِلتْ.

لماذا تقول هذا؟ أطباء الأطفال هم الذين يهتمون بالأطفال.

عندما نكون صغاراً فقط، بعد ذلك يأتي الأطباء النفسانيون.

وضعت يدها على يديّ وانحنت فوقي.

قلت لي إن عمرك عشر سنوات، أليس كذلك؟

تقريباً، نعم.

أنت تعرف أشياء تناسب عمرك... إذن، تعدني؟ ستأتي لرؤيتنا؟

لحستُ بوظتي. لم أكن في حالة معنوية جيدة والأشياء الجيدة تكون

أفضل عندما لا نكون في حالة معنوية جيدة. لطالما لاحظت ذلك. عندما تكون لدينا رغبة في الموت تكون الشوكولا أيضاً أطيب مذاقاً من المعتاد.

لديك أحد حقاً؟

لم تفهمني كما يبدو من نظرتها إليّ.

لحستُ بوظتي وأنا أحدق في عينيها بانتقام.

رأيتك منذ قليل، عندما كان علينا أن نلتقي، لقد عدتِ إلى البيت ولديك طفلان بالفعل، إنهما أشقران مثلك.

تبعتني؟

حسناً، نعم لقد جعلتني أتظاهر.

لا أدري على الإطلاق ما الذي أصابها فجأة، لكن أقسِم لكم أنه كان يوجد ناس في الطريقة التي نظرت بها إليّ. كما تعلمون، وكأنّ في عينيها أربع مرات أكثر من ذي قبل.

اسمعني، يا صغيري محمد...

يدعونني بالأحرى مومو، لأن محمد يقال الكثير فيه.

اسمع، يا عزيزي، لديك اسمي وعنواني، لا تضيّعهما، تعال لرؤيتي متى أردت.. أين تسكن؟

هنا، لا مجال للبحث. شابة مثلها إذا ما هبطت علينا فجأة وعلمت أننا في بيت لأبناء العاهرات فيا للعار. ما كان هذا لأنني لا أعتمد عليها فأنا أعلم أن لديها أحداً ما، لكن أبناء العاهرات في نظر الناس الأفاضل هم قيّادون على الفور، قوّادون، الجُرمِيّة وجنوح الأطفال. لدينا سُمعة سيئة جداً لدى الناس الصالحين، صدقوا خبرتي القديمة. لن يأخذوكم أبداً لأن هناك ما يسمّيه الدكتور كاتز تأثير الوسط العائلي وهذا أسوأ ما

يكون لدى العاهرات. ثم إنهم يخشون الأمراض الزُهرِيّة لدى الأطفال وجميعها وراثية. لم أرد أن أقول لا لكنني أعطيتها عنواناً مزيفاً. أخذت ورقتها ووضعتها في جيبي، فنحن لا نعرف أبداً، لكن لا وجود للمُعجزات.

بدأت تطرح عليّ أسئلة فلم أُجب بنعم ولا بلا، والتهمت قطعة بوظة بالفانيلا أيضاً، وهذا كل شيء. الفانيلا أفضل شيء في العالم.

سوف تتعرف على ولديّ وسنذهب جميعاً إلى الريف، إلى فونتانبلو.. لدينا منزل هناك.

هيا، إلى اللقاء

نهضتُ فجأة لأنني لم أطلب منها شيئاً وولّيت الأدبار ركضاً مع أرثور.

لهوتُ قليلاً بتخويف السيارات ماراً أمامها في اللحظة الأخيرة. يخشى الناس أن يدهسوا طفلاً. وقد سرّني الشعور بأنني فعلت شيئاً لهم. كانوا يدوسون على المكابح عدة مرات على نحو رهيب لئلا يؤذوني وهذا أفضل من لا شيء.

كنت أريد أن أخيفهم أكثر لكن لم يكن ذلك ضمن إمكاناتي. لم أكن متأكداً بعد مما إذا كنت سأنضمّ إلى الشرطة أم إلى الإرهابيين. سوف أرى في الوقت المناسب. على كل حال أحتاج إلى عصابة منظّمة فهذا غير ممكن وحدي لأنني صغير جداً. ثم إنني لا أحب القتل بل العكس. لا، ما أحبه هو أن أكون رجلاً مثل فيكتور هوغو. السيد هاميل يقول إننا نستطيع أن نفعل كل شيء بالكلمات لكن بدون قتل الناس وعندما يكون لديّ وقت سوف أرى. السيد هاميل يقول إن هذا أقوى شيء. إذا أردتم رأيي فإن الرجال المسلّحين هم على هذه الشاكلة لأننا لم نرصدهم عندما كانوا أطفالاً وظلوا غير مرئيين ولا معروفين.

هناك الكثير من الأطفال لملاحظة ذلك، لا بل ثمة أطفال مجبرون على الموت جوعاً لكي يُلاحظوا وإلا فإنهم يشكلون عصابات لكي يصبحوا مرئيين. السيدة روزا قالت لي إن في العالم الملايين من الأطفال الذين يموتون ومنهم من جرى تصويرهم. وتقول السيدة روزا إن الزُبّ هو عدوّ الجنس البشري وأن النموذج الجيّد بين الأطباء هو يسوع لأنه لم يخرج من زُبّ وتقول إنه حالة استثنائية. والسيدة روزا تقول إن الحياة ربما كانت جميلة لكننا لم نعثر عليها حقاً وفي انتظار ذلك يجب أن نحيا جيداً. السيد هاميل قال لي أيضاً أشياء كثيرة جيّدة عن الحياة ولا سيّما عن السجّاد الفارسي.

حين كنت أركض بين السيارات لإخافتهم، لأن الطفل المدهوس أقسم لكم أنه لا يُسرّ أحداً، كان لديّ الكثير من الأهميّة وشعرت أنّ باستطاعتي أن أسبّب لهم متاعب لا نهاية لها. لن أعرّض نفسي للدهس لإقلاقهم فقط، ولكن لكي يكون لي تأثير كبير عليهم.

هناك صديق، كلودو كما ندعوه، كان قد تعمّد أن يُدهس على هذا النحو متظاهراً بأنه غبيّ وكان له الحق في دخول المستشفى للعلاج مدّة ثلاثة أشهر، بينما لو فقد ساقاً في المنزل لأرسله والده للبحث عنها.

حلّ الظلام، وربّما بدأت السيدة روزا تشعر بالخوف لأنني لست هناك. رحت أركض بسرعة لأعود إلى المنزل لأنني قضيت وقتاً ممتعاً بدون السيدة روزا وكنت أشعر بالندم.

رأيت على الفور أنها تدهورت أكثر في أثناء غيابي ولا سيما من أعلى، من الرأس، حيث كانت أسوأ من أي مكان آخر. في كثير من الأحيان كانت تقول لي ضاحكةً إن الحياة لم تجد السعادة في منزلها وهذا ما يظهر الآن. كان كل ما فيها يؤلمها. منذ شهر لم تعد قادرة على الذهاب للتسوّق بسبب الطوابق وقالت لي إنه لولا وجودي هناك لكي تقلق عليّ لما كانت لديها أية رغبة في العيش.

أخبرتها بما رأيته في تلك القاعة حيث كنا نعود إلى الوراء فاكتفت بالتنهُّد وتناولنا عشاء خفيفاً. كانت تعلم أنها تتدهور بسرعة لكنها ما زالت تطبخ جيّداً. والشيء الوحيد الذي لم تكن تريده بأي ثمن في العالم هو السرطان وفي هذا كانت محظوظة لأنه الشيء الوحيد الذي لم تُصب به. أما في الباقي فقد تضرّرت بشدّة حتى أن شعرها كفّ عن التساقط لأن الآلية التي تجعله يتساقط تدهورت هي أيضاً. أخيراً خرجت مسرعاً لاستدعاء الدكتور كاتز فجاء. لم يكن طاعناً في السنّ لكنه لم يعد قادراً على ارتقاء الدرج الذي يُنهك القلب. كان عندنا طفلان أو ثلاثة في الأسبوع، اثنان منهم كان سيغادران في اليوم التالي والثالث سيذهب إلى أبيدجان مع أمه حيث ستتقاعد في متجر للخلاعيّات. كانت قد احتفلت بآخر مضاجعة قبل يومين، بعد عشرين سنة في الهال، وأخبرت السيدة روزا أنها تأثّرت كثيراً بعد ذلك وشعرت بأنها تقدّمت في العمر مرة

واحدة. ساعدنا الدكتور كاتز على الصعود وكنا نسنده من كل الجهات ثم أخرجنا ليفحص السيدة روزا. عندما عدنا كانت السيدة روزا سعيدة، فلم تكن مصابة بالسرطان، والدكتور كاتز كان طبيباً عظيماً وقام بعمل جيد. بعد ذلك نظر إلينا جميعاً، لكن حين أقول جميعاً فإنما أعني البقيّة وكنت أعلم أنني سأصبح وحيداً عما قريب.

كانت قد سرت شائعة من شائعات أورليان تزعم أن اليهودية تُجيعنا. نسيت أسماء الأطفال الثلاثة الآخرين الذين كانوا معنا هناك ما خلا فتاة تُدعى أديث، يعلم الله لماذا، لأنها لم تتجاوز الرابعة من عمرها.

مَن هو الأكبر هنا؟

قلت له إنه مومو كالمعتاد، لأنني لم أكن أبداً صغيراً بما يكفي لتجنّب المتاعب.

حسناً، يا مومو، سأكتب وصفة طبية وستذهب إلى الصيدلية

خرجنا إلى بيت الدرج وهناك نظر إليّ كما يُفعَل دائماً لجعلكم تغتمّون.

اسمع، يا مومو، السيدة روزا مريضة جداً.

لكنك قلت أن ليس لديها سرطان؟

هذا ليس لديها، لكن، بصراحة، حالتها سيئة جداً، سيئة جداً.

أوضح لي أن السيدة روزا لديها وحدها من الأمراض ما يكفي لعِدّة أشخاص ويجب وضعها في المستشفى، في قاعة كبيرة. أذكر تماماً أنه تحدّث عن قاعة كبيرة كما لو كان يلزمها أماكن كثيرة لكل أمراضها، لكن أظنّ أنه قال ذلك لوصف المستشفى بألوان مشجّعة. لم أفهم الأسماء التي عدّدها لي السيد كاتز بارتياح لأننا رأينا أنه تعلّم الكثير منها. أقلّ ما فهمته كان عندما أخبرني أن السيدة روزا كانت متوتّرة جداً ويمكن أن تتعرّض لهجوم بين لحظة وأخرى.

لكن خصوصاً من الشيخوخة، الخَرف، إذا كنت تفضّل ذلك.

أنا لا أفضّل شيئاً لكن لم يكن عليّ أن أناقش.

أوضح لي أن السيدة روزا تقلّصت في شرايينها، وسُدّت قنواتها ولم يعد ثمة جريان حيث ينبغي.

الدم والأوكسجين كفّا عن تغذية دماغها بشكل مناسب، ولن تكون قادرة على التفكير وستعيش مثل الخضار. قد يستمر ذلك لفترة طويلة ويمكن أن يكون لديها حتى لمحات من الذكاء لسنوات قادمة، لكن هذا لا يُسامِح، هذا لا يُسامِح.

أضحكتني طريقته في تكرار «هذا لا يُسامح، هذا لا يُسامح» وكأن هناك شيئاً يسامح.

لكن هذا ليس السرطان، أليس كذلك؟

بالتأكيد لا. يمكنك أن تكون مطمئناً.

كان ذلك خبراً جيداً وبدأت أبكي. سُررتُ كثيراً لأننا تجنّبنا الأسوأ. جلست على الدرج وبكيت كعِجل. العجول لا تبكي أبداً لكن التعبير يريد ذلك.

جلس الدكتور كاتز بجانبي على الدرج ووضع يده على كتفي. كان يشبه السيد هاميل بلحيته.

لا يجب أن تبكي، يا صغيري، من الطبيعي أن يموت الشيوخ. الحياة كلها أمامك.

كان يحاول إخافتي هذا الوغد، أم ماذا؟ لطالما لاحظت أن الشيوخ يقولون «أنت شاب، الحياة كلها أمامك» مع ابتسامة عريضة، كما لو كان ذلك يسعدهم.

نهضت، حسناً، أعلم أن حياتي كلها أمامي لكنني لن أمرض من أجل ذلك.

ساعدت الدكتور كاتز على النزول وصعدت مجدداً بسرعة لكي أنقل إلى السيدة روزا الخبر السار.

قضيَ الأمر، سيدة روزا، من المؤكد الآن أنك لست مصابة بالسرطان. الدكتور متأكد تماماً من ذلك.

كانت ابتسامتها كبيرة جداً لأنه لم يبقَ لديها أسنان تقريباً. عندما تبتسم السيدة روزا تصبح أقل شيخوخة وأقل قُبحاً من المعتاد لأنها احتفظت بابتسامة شابّة ناتجة عن اعتنائها بجمالها. كان لديها صورة وهي في الخامسة عشرة قبل الإبادات الألمانية ولا يمكن الاعتقاد أنها ستصبح السيدة روزا ذات يوم عندما ننظر إليها. والأمر نفسه من الجانب الآخر حيث من الصعب تخيّل شيء مماثل، السيدة روزا في الخامسة عشرة من عمرها. لا علاقة بينهما البتّة. السيدة روزا في الخامسة عشرة كانت لديها ضفائر شُقر وابتسامة كما لو كانت أمامها أشياء جيّدة، هناك حيثما ذهبت. كانت رؤيتها وهي في الخامسة عشرة تسبّب لي آلاماً في البطن ثم الآن في حالتها الراهنة. الحياة عاملتها، ماذا. في بعد الأحيان أقف أمام المرآة وأحاول أن أتخيّل كيف سأبدو بعد أن تعاملني الحياة، أفعل ذلك بأصابعي ماطّاً شفتيّ ومكشّراً.

هكذا نقلت إلى السيدة روزا أفضل خبر في حياتها، أنها ليست مصابة بالسرطان.

في المساء فتحنا زجاجة الشمبانيا التي قدمها لنا السيد نْدا أميدي لنحتفل بأن السيدة روزا ليس لديها ألدّ أعداء الشعب، كما قال، لأن السيد نْدا أميدي كان يريد أن يمارس السياسة أيضاً.

بدت جميلة من أجل الشمبانيا حتى أن السيد نْدا أميدي بدا مندهشاً.

ثم غادر وبقيت في الزجاجة ثُمالة فملأت الكأس للسيدة روزا وشربنا نخبها وأغمضت عينيّ وجعلت اليهودية تعود القهقرى إلى أن أصبحت في الخامسة عشرة كما في الصورة وحتى أنني تمكّنت من تقبيلها هكذا. أنهينا الشمبانيا، وكنت جالساً على مِنضدة بجانبها وحاولت أن أبدو بمظهر لائق لتشجيعها.

سيدة روزا، قريباً ستذهبين إلى النورماندي، والسيد نُدا أميدي سيعطيك نقوداً لهذه الغاية.

لطالما قالت السيدة روزا إن البقر أسعد الناس في العالم وكانت تحلم بالذهاب إلى النورماندي لتعيش هناك في الهواء الطلق. أعتقد أنني لم أرغب يوماً في أن أصبح شرطياً رغبتي في ذلك وأنا جالس على المنضدة ممسكاً بيدها لفرط ما شعرت بأنني ضعيف. ثم إنها طلبت ثوب نومها الورديّ لكننا لم نتمكن من إدخاله فيها لأنه كان ثوب نومها عندما كانت عاهرة وأصبحت سمينة جداً خلال الخمس عشرة سنة الماضية.

أعتقد أننا لا نحترم العاهرات المسِنّات بما فيه الكفاية في مقابل اضطهادهن وهُنّ شابّات. أنا لو كان بمقدوري لاهتممت حصراً بالعاهرات المُسنّات لأن الشابّات لديهنّ قيّادون بينما المُسنّات ليس لهنّ أحد، ولأخذت المُسِنّات القبيحات فقط اللواتي لا يصلحن لشيء بعد الآن ولعملت قيّاداً لهن، وسأهتم بهنّ وأقيم العدل. سأكون أكبر شرطي وأكبر قيّاد في العالم ومعي لن يرى أحد أبداً عاهرة مُسِنّة متروكة تبكي في الطابق السادس بدون مصعد.

وفضلاً عن ذلك، ماذا قال لك الدكتور؟ سوف أموت؟

ليس بشكل خاص، لا سيدة روزا، لم يقل لي بشكل خاص إنك ستموتين أكثر من غيرك.

ماذا لديّ؟

لم يعدّ، قال إنه يوجد قليل من كل شيء، ماذا.

وساقاي؟

لم يقل لي شيئاً بشكل خاص عن الساقين، ثم إنك تعلمين أننا لا نموت من الساقين، سيدة روزا.

وماذا لديّ في القلب؟

لم يلِحّ.

ماذا قال عن الخُضار؟

تظاهرت بالبراءة.

كيف، عن الخُضار؟

سمعته يقول شيئاً عن الخُضار؟

يجب أن تأكلي الخُضار من أجل الصحة، سيدة روزا، لقد أطعمتني الخضار دائماً، حتى أنك في بعض الأحيان لم تطعمينا إلا الخُضار.

كانت عيناها مليئتين بالدموع وذهبت أبحث عن ورقة مؤخرة لمسحها.

ماذا سيحدث لك من دوني، مومو؟

لن يحدث لي شيء على الإطلاق، ثم إن هذا لم يؤخذ في الحسبان حتى الآن.

أنت صبيّ صغير جميل، مومو، وهذا أمر خطير. يجب أن تكون حذِراً. عِدني أنك لن تكدّ بمؤخّرتك.

أعدك.

أقسم لي على ذلك.

أُقسم لك، سيدة روزا، يمكنك أن تكوني مطمئنة من هذه الناحية.

مومو، تذكّر دائماً أن المؤخرة هي أقدس شيء عند الرجل. لا تدعْ قطّ أحداً يأتيك من المؤخّرة، حتى إن دفع لك جيداً. حتى إن مُتّ ولم يبقَ لك في العالم أحد إلا مؤخرتك، لا تفعل ذلك.

أعلم، سيدة روزا، هذه مهنة النساء الطيّبات. الرجل يجب أن يفرض احترامه.

بقينا على هذه الحال يداً بيد ما قلّل من خوفها.

أراد السيد هاميل أن يصعد لرؤية السيدة روزا عندما علم أنها مريضة، لكن مع سنواته الخامسة والثمانين بدون مصعد كان ذلك خارج القانون. كانا على معرفة جيدة بعضهما ببعض قبل ثلاثين سنة عندما كان السيد هاميل يبيع سجّاداته والسيدة روزا تبيع ما عندها ولم يكن من الإنصاف أن يفصل بينهما مصعد الآن. أراد أن يكتب لها قصيدة لفيكتور هوغو لكن لم تعد له عينان وكان عليّ أن أحفظها عن ظهر قلب من قِبل السيد هاميل. كانت تبدأ بـ سبحان الدائم لا يزول، ما يعني أن الله وحده لا ينتهي أبداً، فصعدت بسرعة إلى الطابق السادس بينما كان لا يزال هناك وتلوت ذلك على مسمع السيدة روزا غير أنني أخفقت مرّتين واضطررت أن أهبط الطوابق الستة مرّتين لكي أسأل السيد هاميل عن مقاطع فيكتور هوغو التي نسيتها.

قلت لنفسي إن إقدام السيد هاميل على الزواج من السيدة روزا سيكون عملاً جيداً إن تحقق لأنه كان من عمرها ويمكنهما أن يتدهورا معاً، وهذا يُسعد دائماً. تحدثت عن ذلك مع السيد هاميل وقلت إن بإمكاننا أن نحمله إلى السادس على نقّالة ليخطبها ثم ننقلهما معاً إلى الريف ونتركهما في حقل إلى أن يموتا. لم أقل له ذلك كذلك فليست هذه الطريقة التي يُتمّ فيها الزواج، لكنني لفتّ نظرة إلى أنه من المستحسن أن يكونا اثنين ويتبادلا الملاحظات. قلت للسيد هاميل أيضاً

إن بإمكانه العيش حتى يبلغ من العمر مئة وسبعة أعوام لأن الحياة ربما كانت قد نسيته ولأنه اهتم في الماضي مرةً أو مرّتين بالسيدة روزا، وهذه اللحظة المناسبة لانتهاز الفرصة، كلاهما كانا بحاجة إلى الحبّ ولأن ذلك لم يعد ممكناً في سِنّهما يجب أن يستجمعا قوتهما. حتى أنني أخذت صورة السيدة روزا عندما كانت في الخامسة عشرة فأُعجب بها السيد هاميل من خلال النظارة الخاصة التي يملكها ليرى أكثر مما يراه الآخرون. أمسك الصورة ونظر إليها من بعيد ثم من قريب ولا بد أنه رأى شيئاً على الرغم من ذلك لأنه ابتسم ثم سال الدمع من عينيه لكن ليس بشكل خاص، وإنما لأنه كان طاعناً في السِنّ. الشيوخ المتقدّمون في السّنّ لم يعد بإمكانهم التوقف عن السيلان.

ترى كم كانت جميلة، السيدة روزا قبل الأحداث. يجب أن تتزوجا.
حسناً، أعرف، لكن يمكنك دائماً أن ترى الصورة لكي تتذكّرها.

كان بإمكاني الزواج منها قبل خمسين سنة لو كنت قد عرفتها، يا صغيري محمد.

كنتما ستضجران أحدكما من الآخر في خمسين عاماً. الآن يمكنكما رؤية بعضكما البعض بشكل أفضل ولن يكون لديكما وقت بعد الآن ليضجر أحدكما من الآخر.

كان جالساً أمام فنجان قهوته واضعاً يده على كتاب فيكتور هوغو ويبدو سعيداً لأنه رجل لا يطلب الكثير.

يا صغيري محمد، لا يمكنني أن أتزوّج يهودية حتى وإن كنت لا أزال قادراً على القيام بشيء مماثل.

لم تعد على الإطلاق يهودية ولا أي شيء آخر، سيد هاميل، على أنها تتألم من كل مكان فقط. وأنت نفسك طاعن في السنّ بحيث إن الله هو الذي يفكّر فيك ولست أنت الذي تفكّر في الله. ذهبت لتراه في مكّة

والآن عليه هو أن ينتقل من مكانه. لماذا لا تتزوج وأنت في الخامسة والثمانين ولا تخاطر بشيء؟

وماذا سنفعل عندما نتزوج؟

تشعران بالأسى أحدكما حيال الآخر، تباً. من أجل ذلك يتزوّج الجميع.

أنا أكبر بكثير من أن أتزوّج، قال السيد هاميل، كما لو أنه ليس أكبر بكثير من كل شيء.

ما عدت أجرؤ على النظر إلى السيدة روزا لفرط ما تدهورت. كان الأطفال الآخرون قد أُخذوا، وإذا ما أتت أمٌّ عاهرة لتناقش موضوع الإيواء ترى بوضوح أن اليهودية كانت منهارة تماماً فتعدل عن أن تعهد إليها بطفلها. الأفظع أن السيدة روزا كانت تتجمّل بمزيد من الأحمر وتقوم بحركات إغراء بعينيها وشفتيها وكأنها لا تزال على الرصيف. كان هذا كثيراً عليّ ولا أريد أن أراه، فكنت أنزل إلى الشارع حيث أتجوّل طوال اليوم وتبقى السيدة روزا وحدها تصطاد الزبائن بشفتيها المحمّرين وحركاتها المثيرة للانتباه. في بعض الأحيان كنت أجلس على الرصيف وأبدأ بإرجاع العالم إلى الوراء كما في قاعة تبديل اللغة ولكن أبعد من ذلك.

كان الناس يخرجون من الأبواب فأعيدهم إلى الوراء وأضع نفسي على قارعة الطريق وأعمل على إرجاع السيارات ولا أحد يستطيع الإقتراب مني. لم أكن في شكلي الأولمبي، ماذا.

كنا محظوظين بوجود جيران لمساعدتنا. لقد حدثتكم عن السيدة لولا، التي تقيم في الرابع وتكدّ في غابة بولونيا كمُتخنِّث. كان لديها سيارة وقبل أن تذهب إلى هناك كانت في كثير من الأحيان تأتي لمساعدتنا. كانت في الخامسة والثلاثين من العمر ولا يزال أمامها الكثير من النجاحات. وكانت تجلب لنا الشوكولا والسومون المدخّن والشمبانيا لأن هذه الأصناف باهظة الثمن ولذلك كان الأشخاص الذين يكدّون بمؤخراتهم لا يدّخرون شيئاً من النقود. في تلك الآونة سرت شائعة أورليان القائلة بأن العمّال الشمال إفريقيين كانوا مصابين بالكوليرا التي كانوا يذهبون لالتقاطها في مكة وأوّل ما كانت تفعله السيدة لولا دائماً هو أن تغسل يديها. كان لديها رعب من الكوليرا التي لم تكن صحّية وتحبّ القذارة. أنا لم أعرف الكوليرا لكن أظنّ أنها لا يمكن أن تكون مثيرة للاشمئزاز إلى الحد الذي تعبّر عنه السيدة لولا وإنما هي مرض لم يكن مسؤولاً، حتى أنني في بعض الأحيان كنت أودّ الدفاع عن الكوليرا لأن كونها كذلك لم يكن نتيجة خطأ منها فهي لم تقرّر قطُّ أن تكون كوليرا وإنما حصل ذلك من تلقاء نفسه.

كانت السيدة لولا تتجوّل طوال الليل في غابة بولونيا وتقول إنها كانت السنغاليّ الوحيد في المهنة وتُعجب كثيراً لأنها عندما تنفتح يكون لديها منافذ جميلة وزُب في الوقت عينه. لقد غذّت منافذها الإصطناعية

كالفراريج وكانت بُنيتها قوية بسبب ماضيها كملاكم بحيث إنها تستطيع أن ترفع طاولة برجل واحدة لكن ليس من أجل هذا كانوا يدفعون لها. أحببتها كثيراً ولم تكن تشبه أحداً ولا شيئاً وليس لها أي علاقة. وسرعان ما أدركت أنها تهتمّ بي لكي يكون لها أطفال لا تستطيع أن تنجبهم في مهنتها لأنها تفتقر إلى الضروري. كانت تضع باروكة شقراء ولها نهدان مرغوبان جداً في النساء وكانت تغذيهما بالهرمونات يومياً وتمشي متمايلة على كعبها العالي وتقوم بحركات لوطية لإثارة الزبائن، لكنها كانت حقاً شخصاً مختلفاً عن الجميع وكنا نشعر بثقة متبادلة. لا أفهم لماذا يُصنف الناس دائماً حسب المؤخرّة ويكون ذلك مهماً بينما لا يمكن أن يؤذيكم. كنت أغازلها قليلاً لأننا كنا بأمسّ الحاجة إليها وكانت تدسّ لنا المال خُلسة وتصنع لنا وجبات متذوّقةً الصلصلة مبدية السرور، مع أقراطها المتراقصة وتمايلها على كعبها العالي. قالت إنها عندما كانت شابّة في السنغال صرعت كيد غوفللا في ثلاث جولات، لكنها كانت تعيسة دائماً كرجل. قلت لها: «سيدة لولا، أنت كلا شيء ولا أحد» فسرّها ذلك وقالت لي: «نعم، يا صغيري مومو، أنا صنيعة حُلم» وهذا صحيح، فهي تشبه المهرّج الأزرق أو مظلّتي أرثور اللذين كانا مختلفين جداً هما أيضاً. «سوف ترى، يا صغيري مومو، عندما تكبر أن للاحترام علامات خارجية لا تعني شيئاً، مثل الخصيتين اللتين هما من حوادث الطبيعة». كانت السيدة روزا جالسة على كنبتها ورجتها أن تنتبه لأنني ما زلت طفلاً. لا، حقاً، لقد كانت لطيفة لأنها كانت بالمقلوب تماماً ولم تكن خبيثة. عندما كانت تستعد للخروج في المساء بباروكتها الشقراء وكعبها العالي وقرطيها ووجهها الأسود الجميل مع ندوب الملاكم والكنزة البيضاء الملائمة للنهدين، والوشاح الورديّ حول عنقها بسبب تفّاحة آدم المشؤومة لدى المخنّثين، وتنّورتها المشقوقة على الجانب والأربطة، كان كل ذلك غير حقيقي حقاً، ماذا. في بعض الأحيان كانت تختفي يوماً

أو يومين في سان لازار وتعود مُنهكة ومزوّقة كيفما كان وتأخذ مُنوّماً لأنه ليس صحيحاً أننا سنعتاد على كل شيء في النهاية. ذات مرة جاءت الشرطة إلى شقتها بحثاً عن مُخدِّرات لكن كان ذلك افتراء عليها من زميلات غيورات. أحدّثكم هنا عن فترة كانت فيها السيدة روزا قادرة على الكلام وبكامل وعيها، باستثناء بعض الأحيان عندما كانت تصمت فجأة في وسط الجملة وتظل محدّقة أمامها بفم فاغر وتبدو ذاهلة عن نفسها لا تعرف من هي ولا أين كانت وماذا تفعل هناك. هذا ما كان الدكتور كاتز يُسمّيه الحالة المعتادة. كانت هذه الحالة أقوى مما هي لدى الجميع وكانت تنتابها بانتظام، لكنها كانت لا تزال تُجيد صنع طبقها من سمك الشبوط على الطريقة اليهودية، وفي كل يوم كانت السيدة لولا تأتي للاستعلام وعندما تكون الأمور على ما يُرام في غابة بولونيا كانت تعطينا بعض النقود. كانت محترمة جداً في الحيّ وكان الذين يتجرؤون على مهاجمتها يُضربون.

لا أدري ما الذي كان سيحدث لنا لولا الطوابق الخمسة الأخرى وساكنوها الذين لم يسعوا لإيذاء بعضهم بعضاً. لم يشوا يوماً بالسيدة روزا لدى الشرطة عندما كان في منزلها حتى عشرة من أطفال العاهرات الذي يُحدثون الفوضى على الدرج.

حتى أنه كان في الطابق الثاني ساكن فرنسي يتصرّف كما لو أنه لم يكن في منزله. كان طويل القامة، نحيلاً، مع عصا ويعيش هناك بهدوء دون أن يثير الانتباه. علم أن السيدة روزا تتدهور وفي أحد الأيام صعد الطوابق الأربعة التي فوق طابقه وطرق الباب. دخل وحيّا السيدة روزاً، سيدتي، أقدّم لك احترامي، وجلس، ممسكاً بقبّعته على ركبتَيه، مستقيماً، مرفوع الرأس، وأخرج من جيبه ظرفاً مع طابع بريدي واسمه مكتوب فوقه بجميع حروفه.

أُدعى لويس شارمت، كما يدلّ عليه هذا الإسم. يمكنك أن تقرئي بنفسك. هذه رسالة من ابنتي التي تكتب لي مرّة في الشهر.

أرانا الرسالة مع اسمه في الأعلى وكأنه يثبت لنا أنه لا يزال له اسم.

أنا متقاعد من الشركة الوطنية لسكك الحديد الفرنسية، موظّف إداري، علمت أنك مريضة بعد عشرين سنة قضيتها في البناية نفسها، وأردت اغتنام الفرصة.

أخبرتكم أن السيدة روزا، حتى بمعزل عن مرضها، عاشت طويلاً وهذا جعلها تتصبّب عرقاً بارداً. وتعرق أكثر عندما يكون هناك شيء يقلّ فهمها له تدريجياً، وهذا هو الحال دائماً عندما نتقدّم في السّن ويتراكم. لذلك فإن هذا الفرنسي الذي تكبّد عناء صعود أربعة طوابق لكي يسلّم عليها كان له تأثير نهائي عليها، وكأن هذا يعني أنها ستموت وأنه الممثل الرسمي. لا سيما أن هذا الشخص كان يرتدي كما ينبغي تماماً، مع بدلة سوداء، وقميص وربطة عنق. لا أظن أن السيدة روزا كانت راغبة في العيش لكنها لم تكن راغبة في الموت أيضاً، أظن أنه لم يكن هذا ولا ذاك، وإنما كانت معتادة. أنا أعتقد أن هناك ما هو أفضل من ذلك.

هذا السيد شارمت كان مهماً جداً وخطيراً من خلال طريقته في الجلوس مستقيماً وثابتاً وكانت السيدة روزا خائفة. خيّم عليهما صمت مطبق طويل ثم لم يجدا ما يقولانه. وإذا أردتم رأيي فإن هذا السيد شارمت صعد لأنه هو أيضاً كان وحيداً وأراد أن يستشير السيدة روزا في شأن المشاركة. عندما نصبح في عُمر معيّن يقلّ زوّارنا شيئاً فشيئاً إلا إذا كان لدينا أبناء وذلك بمقتضى قانون الطبيعة. أعتقد أن كليهما كان يخيف الآخر وكانا يتبادلان النظر وكأن كلاً منهما يقول للآخر: بعدك، لا بعدك أرجوك.

كان السيد شارمت متقدماً في السن أكثر من السيدة روزا لكنه كان هزيلاً جافاً واليهودية فائضة من جميع الجهات وللمرض عندها متسع من المكان. هذا أمر قاسٍ دائماً بالنسبة إلى امرأة عجوز قُدِّر لها أن تكون يهودية أيضاً أكثر مما هو بالنسبة إلى موظف في الشركة الوطنية لسكك الحديد الفرنسية.

كانت جالسة على كنبتها وبيدها مروحة احتفظت بها من ماضيها عندما كانوا يقدمّون لها هدايا نسائية ولا تعرف ماذا تقول من فرط التأثر. كان السيد شارمت يحدّق فيها مباشرة وقبّعته على ركبتيه وكأنه جاء بحثاً عنها، وكان رأس اليهودية يهتز وهي تتصبّب عرقاً من الخوف. من المضحك مع ذلك أن تتخيل أن بإمكان الموت أن يدخل ويجلس واضعاً قبّعته على ركبتيه وينظر في عينيك ليقول لك آن الأوان. كنت أنا أرى بوضوح أنه مجرّد فرنسي يفتقر إلى أبناء وطنه وقد انتهز الفرصة لكي يثبت وجوده عندما انتشر الخبر لدى الرأي العام أن السيدة روزا لن تنزل بعد الآن أبداً حتى بلغ بقّالة التونسي السيد كيبالي حيث تتجمع كل الأخبار.

كان وجه السيد شارمت متجهّماً خصوصاً حول العينين اللتين كانتا أول ما تجوّف في وجهه وتعيشان في منطقتهما مع تعبير لماذا، بأي حق، ما الذي يحدث لي. ما زلت أتذكره جيداً، أتذكّر كيف كان جالساً مستقيماً مقابل السيدة روزا، بظهره الذي لا يستطيع أن يحنيه بمقتضى قوانين داء المفاصل الذي يتفاقم مع التقدم في السِنّ، خصوصاً في الليالي الباردة وهو ما يحدث غالباً في غير موسمه. كان قد سمع في محل البقالة أن السيدة روزا لم يبق لها الكثير وأنها مصابة في أعضائها الرئيسية التي لم تعد ذات منفعة عامة، ولا بد أنه كان يعتقد أن شخصاً

مثلها بإمكانه أن يفهمه أكثر من أي شخص آخر لا يزال محتفظاً بكامل أعضائه فصعد. كانت اليهودية مذعورة فهذه المرة الأولى التي تستقبل فيها فرنسياً كاثوليكياً بصورة مباشرة يجلس مقابلها من دون أن ينبس بكلمة. لزما الصمت أيضاً وأيضاً ثم إن السيد شارت انفرج قليلاً وبدأ يحدّث السيدة روزا بلهجة صارمة عن كل ما فعله في حياته للشركة الوطنية لسكك الحديد الفرنسية وكان ذلك كثيراً على عجوز يهودية في حالة متقدّمة ولذلك كانت تتنقل من مفاجأة إلى مفاجأة.

كانا خائفين كلاهما، لأنه ليس صحيحاً أن الطبيعة تجيد صنع الأشياء. الطبيعة تفعل أي شيء لأيّ كان وحتى أنها لا تعرف ما تصنع، أحياناً تصنع زهوراً وعصافير، وأحياناً يكون ما تصنعه عجوزاً يهودية في الطابق السادس ولم تعد قادرة على النزول بعد الآن. أشفقت على هذا السيد شارمت لأننا نرى جيداً أنه لا شيء ولا أحد على الرغم من ضمانه الاجتماعي. أنا أجد أن السلع الأساسية ذات الضرورة القصوى هي التي تُفقد بوجه خاص.

ليس خطأ المتقدمين من السِنّ إذا كانوا عُرضة للهجوم دائماً في النهاية ولست متحمساً كثيراً لقوانين الطبيعية.

كان من الممتع الاستماع إلى السيد شارمت وهو يتحدث عن القطارات والمحطات وساعات الانطلاق وكأنه لا يزال يأمل بركوب القطار المناسب في الوقت المناسب والعثور على محطة تواصل في حين أنه كان يعلم جيداً أن عليه أن ينزل.

استمرّا على هذا النحو لفترة طويلة وساورني القلق على السيدة روزا لأنني رأيتها مذعورة من زيارة على هذا القدر من الأهمية، وكأننا أتينا لوداعها الوداع الأخير.

فتحتُ للسيدة شارمت علبة الشوكولا التي كانت السيدة لولا قد أعطتنا إياها لكنه لم يلمسها، لأن لديه أعضاء تمنع عنه السكّر. في النهاية نزل إلى الطابق الثاني وزيارته لم تساعد في شيء، ولاحظت السيدة روزا أن الناس أصبحوا لطفاء أكثر فأكثر معها وهذه ليست علامة جيدة على الإطلاق.

الآن أصبحت السيدة روزا تغيب عن الوعي لفترات أطول فأطول وتمضي أحياناً ساعات دون أن تشعر بشي.

كنت أفكر في اللافتة التي كان الإسكافي رضا يعلّقها ليقول إنه في حالة الغياب يجب الذهاب إلى مكان آخر. لكنني لم أعرف على الإطلاق إلى أين يمكنني أن أذهب لأن هناك حتى من التقطوا الكوليرا في مكة. لذلك كنت أجلس على المنضدة قربها وآخذ بيدها وأنتظر عودتها.

السيدة لولا كانت تساعدنا بقدر ما تستطيع كانت تعود من غابة بولونيا منهكة تماماً بعد الجهود التي بذلتها في اختصاصها وتنام في بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة بعد الظهر. في المساء كانت تصعد إلينا لتقديم يد العون. حينها كنا لا نزال نستقبل بين الفينة والفينة بعض الأطفال لكن ليس بالقدر الكافي لتأمين معيشتنا وكانت السيدة لولا تقول إن مهنة العاهرة بدأت بالكساد من جرّاء المنافسة المجانية. أما العاهرات اللواتي لا شأن لهنّ فلا يتعرضنَ لاضطهاد الشرطة التي لا تهاجم إلا اللواتي عظم شأنهنّ. واجهنا حالة ابتزاز بالتشهير من قبل قياد كان قواداً نذلاً هددنا بإبلاغ المساعدة عن ابن عاهرة، مع سقوط الأبوة من الدعارة، إذا رفضت الذهاب إلى دكار، وأننا احتفظنا خلال عشرة أيام بالطفل جول كما يسمى، باعتبار ذلك مخالفاً للقانون ثم سُوّي الأمر لأن

السيد نُدا أميدي اهتم به. كانت السيدة لولا تنظف البيت وتساعد السيدة روزا على البقاء نظيفة. لا أريد أن أرميها بالورود لكني لم أر قطّ سنغالياً يمكنه أن يكون أفضل ربة أسرة إلا السيدة لولا، والمؤسف حقاً أن الطبيعة عارضت ذلك. كان ضحية ظلم وكان هناك أطفال سعداء يضيعون. لم يكن بحق لها حتى أن تتبنّى طفلاً لأن المتخنّثين مختلفون جداً وهذا ما لن يسامحوا عليه أبداً. وهذا ما كان يحزّ في قلب لولا أحياناً.

بوسعي أن أخبركم أن البناية كلها تفاعلت بشكل جيّد مع نبأ موت السيدة روزا الذي سيحدث في الوقت المناسب، عندما تتضافر جهود جميع أعضائها في هذا الاتجاه. كان هناك الأخوة زاووم الأربعة وهم نقلة أثاث المنازل وأقوى رجال الحيّ لنقل آلات البيانو والخزائن ولطالما نظرت إليهم بإعجاب لأنني وددت لو كنت أربعة، أنا أيضاً. جاؤوا ليقولوا لنا إن بإمكاننا الإعتماد عليهم لإنزال السيدة روزا وإصعادها كلما أرادت القيام ببعض الأشياء في الخارج. يوم الأحد، وهو يوم لا ينتقل فيه أحد من منزله إلى منزل جديد، حملوا السيدة روزا وأنزلوها مثل بيانو ووضعوها في سيارتهم وذهبنا إلى المارن لكي تتنشق الهواء الطلق. كان وعيها كاملاً في ذلك اليوم حتى أنها شرعت في وضع مشاريع للمستقبل، لأنها لم تكن راغبة في أن تُدفن وفق المراسم الدينية.

اعتقدت في البداية أن هذه اليهودية تخاف من الله وتأمل أن تُدفن من دون دين لعلّ ذلك يُنجيها منه. لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. لم يكن لديها خوف من الله لكنها كانت تقول إنه فات الأوان الآن، فما كان كان ولم يعد عليه أن يأتي ليطلب منها أن تغفر له. أعتقد أن السيدة روزا عندما تكون مالكة لكامل وعيها تريد أن تموت حقاً وليس على الإطلاق كما لو أنه لا يزال هناك طريق عليها أن تمضي فيه بعد ذلك.

في طريق العودة طاف بها الإخوة زاووم الهال، وشارع سان ديني، وشارع فورسي، وشارع بلوندل، وشارع تريانْدري، وتأثرت كثيراً، خصوصاً عندما رأت في شارع بروفانس الفندق الصغير حين كانت شابة وتستطيع أن تصعد الدرج وتهبطه أربعين مرّة في اليوم. قالت لنا إن من دواعي سعادتها أن ترى مجدداً الأرصفة والزوايا التي كانت تكدّ فيها، وكانت تشعر بأنها أوفَت بعقدها. كانت تبتسم ورأيت أن ذلك رفع معنوياتها. أخذت تتحدث عن ذلك الزمن الجميل وتقول إنه كان المرحلة الأسعد في حياتها. عندما توقفت في سِنّ الخمسين كان لا يزال لديها زبائن منتظمون لكنها رأت أن ذلك لم يعد جمالياً في سِنها فقررت الانعطاف. توقفنا في شارع فروشو لنشرب كأساً وأكلت السيدة روزا قطعة كاتو. بعد ذلك عدنا إلى المنزل وحملها الإخوة زاووم إلى الطابق السادس مثل زهرة وكانت سعيدة جداً بهذه النزهة التي بدا أنها صغّرتها بضعة أشهر.

في المنزل وجدنا موسى الذي كان قد جاء لرؤيتنا جالساً أمام الباب. سلّمت عليه وتركته مع السيدة روزا وهي في حالة جيدة. ثم نزلت إلى المقهى في الأسفل لرؤية صديق كان قد وعدني بقميص جلديّ يأتي به من مخزن بضائع أميركي حقيقي وليس من الشركة لكنه لم يكن هناك. بقيت بعض الوقت مع السيد هاميل الذي كان بصحة جيدة. كان جالساً أمام فنجان قهوته الفارغ ويبتسم بهدوء للحائط المقابل.

سيد هاميل، كيف حالك؟

صباح الخير، يا صغيري فيكتور، أنا سعيد بسماعك.

قريباً سنجد نظّارات لكل شيء، سيد هاميل، وسيكون بإمكانك أن ترى مجدداً.

يجب الإيمان بالله.

سيكون لدينا ذات يوم نظّارات رائعة لم نر مثلها وسيكون بإمكاننا أن نرى حقاً، سيد هاميل.

حسناً، يا صغيري فيكتور، المجد لله، لأنه هو الذي سمح لي بأن أعيش حتى هذه السن المتقدمة.

سيد هاميل، أنا لا أُدعى فيكتور، أنا اسمي محمد، فيكتور، هو صديقك الآخر.

بدا مندهشاً.

طبعاً، يا صغيري محمد.. توكّلت على الحيّ الذي لا يموت... كيف دعوتك، يا صغيري فكتور؟

اللعنة.

دعوتني فيكتور

كيف أمكنني ذلك؟ اعذرني!

أولاً، هذا لا شيء، لا شيء على الإطلاق، اسم يساوي اسماً آخر، لا يهمّ. كيف حالك، منذ البارحة؟

بدا منشغلاً. لاحظت أنه يبذل جهداً لكي يتذكر، لكن أيامه كلها كانت متشابهة تماماً منذ أن انقطع عن تمضية حياته في بيع السجاد من الصباح إلى المساء، فكان رأسه صفحة بيضاء. أبقى يده اليمنى على كتاب صغير مهترئ حيث كتب فيكتور هوغو ولا بد أن الكتاب أصبح معتاداً على الإحساس بتلك اليد التي تعتمد عليه، كما يحدث غالباً مع العميان عندما نساعدهم على العبور.

منذ البارحة، سألتني؟

البارحة أو اليوم، سيد هاميل، لا يهمّ، إنه وقت يمرّ فقط.

حسناً، اليوم طوال النهار هنا، يا صغيري فيكتور....

نظرت إلى الكتاب لكن لم يكن لديّ ما أقوله، لقد مرّت سنوات وهما معاً.

ذات يوم سأكتب كتاباً حقيقياً أنا أيضاً، سيد هاميل، مع كل شيء داخله، ما أفضل ما فعله السيد فيكتور هوغو.

نظر السيد هاميل بعيداً وابتسم. كانت يده تتحرك على الكتاب وكأنها تداعبه، وكانت أصابعه ترتجف...

لا تطرح عليّ الكثير من الأسئلة، يا صغيري...

محمد.

... لا تطرح عليّ الكثير من الأسئلة، أنا متعب قليلاً اليوم.

تناولت الكتاب فأحسّ به السيد هاميل وأصبح قلقاً. نظرت إلى العنوان وأعدته إليه. وضعت يده عليه.

ها هو، يا سيدي هاميل، إنه هنا، يمكنك أن تتحسسه.

رأيت أصابعه تتلمّس الكتاب.

أنت لست طفلاً كالآخرين، يا صغيري فيكتور، لطالما عرفتُ ذلك.

ذات يوم سوف أكتب البؤساء، أنا أيضاً، سيد هاميل، هل هناك من يرافقك إلى منزلك، في ما بعد؟

إن شاء الله، هناك شخص بالتأكيد، لأنني أؤمن بالله، يا صغيري فكتور.

تضايقت قليلاً لأنه لم يكن إلا للآخر.

قل لي شيئاً، سيد هاميل، قل لي كيف قمت برحلتك الكبيرة إلى نيس، عندما كان عمرك خمس عشرة سنة.

سكت.

أنا؟ قمت برحلة كبيرة إلى نيس؟

عندما كنت صغيراً جداً.

لا أتذكر: لا أتذكّر شيئاً.

حسناً، سأخبرك. نيس واحة على ساحل البحر، مع غابات الميموزا والنخل وهناك روس وإنكليز يتقاتلون بالزهور. هناك مهرّجون يرقصون في الشوارع وقُصاصات ورق ملوّنة تسقط من السماء ولا تنسى أحداً. ذات يوم سأذهب إلى نيس أنا أيضاً، عندما أصبح شاباً.

كيف، عندما تصبح شاباً؟ أنت شيخ؟ كم عمرك، يا صغيري؟ أنت محمد الصغير، أليس كذلك؟

آه، هذا لا أحد يعرف عنه شيئاً، ولا عن عمري أيضاً أنا لم أؤرخ. تقول السيدة روزا إنه لم يكن لي عمر أبداً لأنني مختلف، ولا أفعل شيئاً غير هذا، أن أكون مختلفاً. هل تتذكر السيدة روزا؟ سوف تموت قريباً.

غير أن السيد هاميل كان تائهاً في الداخل لأن الحياة تجعل الناس يعيشون بدون أن ينتهبوا إلى ما يحدث لهم. كان في البناية المقابلة سيدة، السيدة حلاوي، أتت لتأخذه قبل الإغلاق وتضعه في سريره فلم يكن لها أحد هي أيضاً. لا أعرف حتى إن كانا يعرفان بعضهما بعضاً من قبل أو كان ذلك لئلا يبقيا وحيدين. كان لديها بسطة للفول السوداني في باريس، وكذلك والدها عندما كان حياً. عندئذ قلت:

سيد هاميل، سيد هاميل، هكذا، لكي أذكّره أن هناك أيضاً شخصاً يحبه ويعرف اسمه وأن له اسماً.

قضيت وقتاً ممتعاً معه ممرّراً الوقت الذي كان يمر ببطء ولم يكن فرنسياً. لطالما قال السيد هاميل إن الوقت يأتي ببطء من الصحراء مع قوافل الجمال ولم يكن مستعجلاً لأنه يحمل الأبدية. لكن الأجمل دائماً عندما نروي له أننا حين ننظر إلى الوقت على وجه شخص طاعن في

السن ويتعرّض لمزيد من السرقة كل يوم وإذا أردتم رأيي يجب البحث عن الوقت في جانب السارقين.

جاء صاحب المقهى، الذي تعرفونه بالتأكيد لأنه السيد إدريس، لإلقاء نظرة علينا. وكان السيد هاميل يحتاج أحياناً إلى التبوّل في المرحاض قبل أن تتسارع الأمور. لكن لا يجب الاعتقاد أن السيد هاميل لم يعد مسؤولاً وأنه لم يعد يساوي شيئاً. إن للمتقدمين في السِن نَفس القيمة التي لأي شخص آخر وإن تضاءلوا. إنهم يشعرون مثلي ومثلكم وأحياناً يؤلمهم ذلك أكثر مما يؤلمنا لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. لكنهم يتعرّضون للهجوم من قِبل الطبيعة التي يمكن أن تكون وقحة وجميلة وتميتهم على نار هادئة. الأمر عندنا أسوأ مما هو عليه في الطبيعة لأنه ممنوع إجهاض المسنّين عندما تخنقهم الطبيعة ببطء وتُخرج عيونهم من محاجرها. لم تكن هذه حال السيد هاميل الذي لا يزال بإمكانه أن يتقدم في السِنّ كثيراً وأن يموت عن مئة وعشر سنوات ويمكنه حتى أن يصبح بطل العالم. ما زال محتفظاً بكامل مسؤوليته ويقول «بي بي» في الوقت المناسب وقبل أن يحدث ذلك، وكان السيد إدريس يأخذه بمرفقه في هذه الظروف ويقوده بنفسه إلى المرحاض. العادة عند العرب أن الرجل المُسِنّ الذي يوشك أن يضمحلّ قريباً يحظى بالاحترام، وفي ذلك أجر بنفس القدر في حسابات الله ولا توجد أرباح صغيرة. مع ذلك من المحزن للسيد هاميل أن يُقاد لكي يتبوّل وقد تركتهما هناك لأنني أرى أنه لا ينبغي البحث عن الحزن.

كنت ما زلت على الدرج عندما سمعت موسى يبكي فصعدت قفزاً وفي اعتقادي أن مصيبة حلّت بالسيدة روزا. دخلت فلم أصدّق ما أرى حتى أنني أغمضت عينيّ لأعود فأفتحهما على وسعهما.

كان للنزهة بالسيارة التي قامت بها السيدة روزا في جميع الأماكن التي كانت تعمل فيها تأثير المعجزة عليها وأحيت في رأسها كل ماضيها. وجدتها عارية وسط الغرفة وهي تهمّ بارتداء ملابسها لتذهب إلى العمل وكأنها ما زالت تكدّ. حسناً، لم أر في حياتي شيئاً وليس من حقي أن أقول ما هو المخيف وما هو غير المخيف أكثر من أي شيء آخر، لكنني أقسم لكم أن رؤية السيدة روزا عارية مع حذاء جلديّ وسراويل داخلية سوداء مطرزة حول العنق، لأنها أخطأت المكان، ومنافذ تفوق الخيال وهي ممددة على بطنها، أقسم لكم أنها شيء لا يمكن أن نراه في مكان آخر، حتى وإن وجد. علاوة على ذلك كانت السيدة روزا تحاول أن تهز مؤخرتها وكأنها في متجر للخلاعيات، لكن كما هو الحال عندها كانت المؤخرة تتجاوز الإمكانات البشرية ...سييد!

أظن أنها المرة الأولى التي أتمتم فيها بصلاة، صلاة *المهابيل*، لكنها استمرت في التلوّي مع ابتسامة صغيرة ماجنة وفرح لا أتمنّاه لأحد.

فهمتُ أن ذلك كان نتيجة الصدمة بالمفعول الرجعي التي تلقتها عندما رأت الأماكن التي كانت سعيدة فيها، لكن في بعض الأحيان لا

يساعد الفهم في شيء، بل العكس. كانت مزوّقة لدرجة أنها بدت أكثر غرياً في مكان آخر وتقوم بحركات صغيرة مثيرة للاشمئزاز بشفتيها المزمومتين. كان موسى في إحدى الزوايا يصرخ لكنني قلت «سيدة روزا، سيدة روزا» فقط واندفعت إلى الخارج وهبطت الدرج مسرعاً وبدأت أركض. لم يكن ذلك لإنقاذي، فهذا غير موجود، لكن لكي لا أكون هناك.

ركضت مسافة طويلة وعندما أراحني ذلك جلست في الظلمة في مدخل عربات خلف صناديق قمامة تنتظر دورها. لم أبك، لأن الأمر لم يعد يستحق ذلك. أغمضت عينيّ وخبأت وجهي بين ركبتيّ لفرط ما شعرت بالخجل. ثم أتيت بشرطي كان أقوى شرطي يمكنكم أن تتخيلوه. كان منتفخاً أكثر من كل الآخرين بملايين المرات ولديه أيضاً المزيد من القوى المسلّحة لبسط الأمن. كذلك كانت هناك دبابات في تصرفه ومعه ما عدت خائفاً من شيء لأنه سوف يؤمّن دفاعي الذاتي. شعرت أن بوسعي أن أكون مطمئناً وأنه تحمّل المسؤولية. وضع ذراعه القوية جداً حول كتفي بطريقة أبوية وسألني إن كنت قد أصبتُ بجراح نتيجة الضربات التي تلقيتها. قلت له نعم لكن لا جدوى من الذهاب إلى المستشفى. بقي لفترة طويلة واضعاً يده على كتفي وشعرت أنه سوف يهتمّ بكل شيء وسيكون بمنزلة أب لي. شعرت أنني تحسّنت وبدأت أفهم أن أفضل شيء بالنسبة إليّ هو أن أذهب لأعيش هناك، حيث هذا ليس حقيقياً. السيد هاميل حين كان لا يزال معنا لطالما قال لي إن الشعراء هم الذين يؤمّنون العالم الآخر وفجأة ابتسمت، تذكرت أنه سمّاني فيكتور ولعلّ الله هو الذي وعدني. بعد ذلك رأيت عصافير بيضاً ووردية جميعها قابل للانتفاخ وفي ذيلها خيط لأذهب معها بعيداً جداً ونمت.

نمت لفترة طويلة ثم ذهبت إلى المقهى الكائن في زاوية شارع بيسون

حيث يغلب السواد لوجود ثلاثة منازل إفريقية في الجوار. في إفريقيا الوضع مختلف تماماً هناك لديهم قبائل وإذا كنتم جزءاً من قبيلة فكأنكم جزء من مجتمع وعائلة كبيرة. كان هناك أبويا الذي لم أقل لكم شيئاً عنه حتى الآن لأنني لا أستطيع أن أقول لكم كل شيء ولذلك أذكره الآن، حتى إنه لا يتكلم الفرنسية ويجب أن يتكلم عنه أحدهم لكي يفصح عنه. بقيت وقتاً لا بأس به مع السيد أبويا الذي جاءنا من الإيفوار. أمسكنا بأيدي بعضنا البعض وأغرقنا في الضحك معاً، أنا في العاشرة وهو في العشرين وكان هذا فارقاً يسّره كما سّرني أنا أيضاً. قال لي صاحب المقهى، السيد سوكو، ألا أبقى هنالك وقتاً طويلاً لأنه لا يريد أن يواجه متاعب مع حماية القاصرين ومن شأن طفل في العاشرة أن يعرّضه للمشاكل بسبب متعاطي المخدّرات، لأن هذا أول شيء نفكر فيه عندما نرى طفلاً. القاصرون في فرنسا محميون جداً ويوضعون في السجن عندما لا يهتمّ بهم أحد.

للسيد سوكو أولاد تركهم في الإيفوار لأن لديه هناك نساء أكثر مما لديه هنا. كنت أعلم أنه لا يجوز لي أن أتسكع في خمّارة عمومية من دون أهلي لكن أقول لكم بكل صراحة لم يكن لديّ أدنى رغبة في العودة إلى البيت. فأنا ما زلت أشعر بقشعريرة لمجرد التفكير في الحالة التي كانت عليها السيدة روزا. كان من المرعب حقاً رؤيتها وهي تموت شيئاً فشيئاً من دون معرفة الوقائع، لكن أن تكون عارية مع ابتسامة وقحة، وخمسة وتسعين كيلو غرام تنتظر الزبون ومؤخرة فقدت كل صفة بشرية، فهذا شيء يتطلّب قوانين لإنهاء آلامها. تعلمون أن الجميع يتحدث عن الدفاع عن قوانين الطبيعة لكنني أميل إلى قِطَع الغيار. على أي حال لا يمكننا أن نقضي حياتنا في الحانة فعدت قائلاً لنفسي وأنا أصعد الدرج إن السيدة روزا ربما كانت ميتة وبالتالي ما من أحد يعاني.

فتحت الباب بهدوء لئلا تخيفني وأول شيء وقع عليه نظري هو

السيدة روزا مرتدية كامل ثيابها وسط الغرفة وبجوارها حقيبة صغيرة. كانت شبيهة بمسافر على رصيف المحطة ينتظر القطار. سرعان ما نظرت إلى وجهها ليتبيّن لي أنها لم تكن هناك على الإطلاق. بدت وكأنها في مكان آخر تماماً لفرط ما كانت سعيدة. كانت عيناها تسرحان بعيداً، بعيداً مع قبعة لا تناسبها لأن هذا الشيء غير ممكن، لكنه يغطي قسمها الأعلى في النهاية. حتى أنها كانت تبتسم كما لو أنها تلقت نبأ سارّاً. كانت ترتدي فستاناً أزرق مزيّناً بأقحوان المروج واستخرجت من قاع الخزانة حقيبة يدها أيام كانت لا تزال عاهرة وقد احتفظت بها لأسباب عاطفية، وكنت أعلم أيضاً أن في داخل الحقيبة كمية من الواقي الذكري، وكانت تنظر من خلال الحيطان كما لو كانت بالفعل ستأخذ القطار إلى الأبد.

ماذا تفعلين، سيدة روزا؟

سوف يأتون ويأخذونني. سوف يهتمّون بكل شيء. قالوا أن أنتظر هنا، وسيأتون مع شاحنات وسيأخذونني إلى فلودروم مع الأشياء الضرورية فقط.

من هؤلاء؟

الشرطة الفرنسية.

ما عدت أفهم شيئاً البتّة. كان هناك موسى الذي أخذ يشير إليّ من الجانب الآخر وهو يلامس رأسه. كانت السيدة روزا تمسك بحقيبة يد العاهرة وإلى جانبها حقيبة الثياب وتنتظر كما لو أنها خائفة من أن تكون قد تأخرّت.

أعطونا مهلة نصف ساعة وقالوا لنا أن نأخذ حقيبة واحدة فقط، سوف يضعوننا في قطار وينقلوننا إلى ألمانيا. لن أواجه أي مشكلة وسيهتمّون بكل شيء؟ قالوا إنهم لن يمسّونا بسوء، وسيكون لنا مسكن وملبس ومغسل.

لم أعرف ماذا أقول. من الممكن أنهم كانوا ينقلون اليهود إلى ألمانيا مرة أخرى لأن العرب لا يريدونهم. عندما كانت السيدة روزا لا تزال بكامل عقلها كثيراً ما حدثتني كيف أن السيد هتلر صنع إسرائيل يهودية في ألمانيا لإعطاء اليهود مأوى وكيف استقبلوا جميعاً في ذلك المأوى ما عدا الأسنان، والعظام، وما كان بحالة جيدة من الثياب والأحذية التي كانوا يجرّدونهم منها بسبب الهدر. لكنني لم أفهم على الإطلاق لماذا كان الألمان دائماً هم الوحيدين الذين يهتمون باليهود ولماذا لا يزالون يصنعون أماكن سكن لهم بينما يجب أن يكون لكل دوره وعلى جميع الشعوب أن تقدّم التضحيات. كانت السيدة روزا تحب كثيراً تذكيري بأنها هي أيضاً كان لها شبابها.

حسناً، كنت أعرف كل ذلك لأنني كنت أعيش مع يهودية ولأن هذه الأمور مع اليهود تنتهي دائماً بمعرفة، لكنني لم أفهم لماذا ستهتم الشرطة بالسيدة روزا التي كانت قبيحة وعجوزاً ولم تعد تساوي شيئاً بكل المقاييس. كنت أعرف أيضاً أن السيدة روزا سقطت مجدداً في الطفولة، بسبب اختلالها، وذلك نتيجة خرف الشيخوخة الذي كان قد حذّرني منه الدكتور كاتز. لا بد أنها كانت تعتقد أنها شابة، كما حصل في وقت سابق عندما كانت ترتدي زي العاهرة وتقف هناك مع حقيبتها الصغيرة، سعيدة جداً لأنها عادت صبية في العشرين، منتظرة قرع الجرس للعودة إلى فلودروم وإلى المسكن اليهودي في ألمانيا وهي صبية مرة أخرى.

لم أعرف ماذا أفعل لأنني لم أشأ أن أكدّرها، غير أنني كنت على يقين أن الشرطة الفرنسية لن تأتي لتعيد إلى السيدة روزا سنواتها العشرين. جلست على الأرض في ركن خافض الرأس لكي لا أراها، وهذا كل ما كان بوسعي أن أفعله من أجلها. لحسن الحظ أنها تحسّنت وسرعان ما بدت متفاجئة من وقوفها هناك، مع حقيبتها، وقبّعتها، وفستانها الأزرق المزيّن بالأقحوان وحقيبة يدها الملأى بالذكريات، لكنني فكرت في أن

من الأجدى ألاّ أخبرها بما حدث وقد لاحظت أنها نسيت كل شيء. كان هذا هو العفو العام الذي كان الدكتور كاتز حذرني منه قائلاً إنه سيحدث لها أكثر فأكثر حتى اليوم الذي لا تعود تتذكّر فيه شيئاً وإلى الأبد ولربما عاشت سنوات طويلة في حالة اعتياد.

ماذا حدث، مومو؟ لماذا أنا هنا مع حقيبتي وكأنني سأغادر؟

كنت تحلمين، سيدة روزا، قليل من الحلم لم يؤذِ أحداً على الإطلاق.

نظرت إلي بتوجّس.

مومو، يجب أن تقول لي الحقيقة.

أقسم لك أنني قلت الحقيقة، سيدة روزا، ليس لديك سرطان. الدكتور كاتز على يقين تام في هذا الصدد. يمكنك أن تكوني مطمئنة.

بدت مطمئنة قليلا فمن المستحسن ألا يكون لديها سرطان.

كيف أتيتُ إلى هنا من دون أن أعرف أين ولماذا؟ ماذا لديّ، مومو؟

جلست على السرير وبدأت تبكي. نهضت وذهبت للجلوس إلى جانبها وأخذت بيدها وكانت تحب ذلك. ابتسمت على الفور ورتّبَت شعري قليلاً لأكون أجمل.

سيدة روزا، إنها الحياة فقط. ويمكننا أن نعيش حتى نهرم مع هذا. قال لي الدكتور كاتز إنك في نفس عمرك تماماً حتى أنه أعطى رقماً لذلك.

العمر الثالث؟

هذا هو.

لا أفهم، لقد بلغت سِنّ اليأس منذ مدة طويلة حتى أنني عملت معه.

ليس لديّ ورم في الدماغ، مومو؟ هذا أيضاً لا يسامح، عندما يكون خبيثاً.

لم يقل إن هذا لا يسامح. لم يحدثني عن أشياء تسامح أو لا تسامح. لم يحدثني عن السماح إطلاقاً. قال لي فقط إنك كبيرة في السِنّ ولم يحدثني عن العفو العام أو أي شي.

النسيان، تريد أن تقول؟

موسى الذي لم يكن لديه ما يهتمّ به هناك بدأ يئنّ وكان هذا كل ما أحتاج إليه.

موسى، ما بك؟ يكذبون عليّ؟ يخفون شيئاً عني؟ لماذا يبكي؟

تباً، تباً وتباً، اليهود يبكون دائماً في ما بينهم سيدة روزا، عليك أن تعرفي ذلك. حتى أننا بنينا لهم حائطاً من أجل ذلك.

لعلّ هذا هو التصلّب الدماغي؟

طفح الكيل، أقسم لكم لقد ضقت ذرعاً حتى رغبت في الذهاب بحثا عن الماهوت ليعطيني حقنة منزلية لا شيء إلا لأقول تباً لهم جميعاً.

مومو! أليس هو التصلّب الدماغي؟ هذا لا يسامح أبداً.

أتعرفين الكثير من الأشياء التي تسامح، سيدة روزا؟ أنت تزعجينني أنتم تزعجونني جميعاً، قسماً بضريح أمي.

لا تقل أشياء كهذه، أمك المسكينة... في النهاية، لعلها لا تزال على قيد الحياة.

لا أتمنّى لها ذلك، سيدة روزا، حتى وإن كانت حيّة، إنها أمي دائماً.

نظرت إليّ مستغربة ثم تبسّمت.

لقد نضجت كثيراً، يا صغيري مومو، ما عدت طفلاً. ذات يوم..

أرادت أن تقول لي شيئاً ثم توقفت.

ماذا، ذات يوم؟

بدت مذنبة.

ذات يوم ستكون في الرابعة عشرة من عمرك ولن تريدني بعد ذلك.

لا تتلفّظي بحماقات، سيدة روزا لن أتخلّى عنك، هذا ليس من شيمتي.

طمأنها ذلك وذهبت لتغيير ملابسها. ارتدت ثوبها الكومونو الياباني وتعطرت خلف أذنيها. لا أدري لماذا تضع العطر خلف أذنيها دائماً، ربما لكي لا يُرى.

ثم ساعدتها على الجلوس في كنبتها لأن الإنحناء يؤلمها. كانت بخير تماماً قياساً على ما كان بها.

بدت حزينة وقلقة وكنت مسروراً برؤيتها في حالتها الطبيعية حتى أنها بكت قليلاً ما يدّل على أنها بخير تماماً.

أنت صبي كبير الآن، مومو، ما يثبت أنك تفهم الأشياء.

لم يكن ذلك صحيحاً حقاً، فأنا لا أفهم الأشياء على الإطلاق، لكنني لن أساوم، فالوقت لم يكن مناسباً.

أنت صبي كبير، فاسمعني إذن...

هنا كان لها مرور عابر في الفراغ ومكثت بضع ثوان معطلة مثل سيارة رديئة ميتة في الداخل.

انتظرت حتى تستأنف السير ممسكاً بيدها لأنها لم تكن مع ذلك سيارة رديئة. كان الدكتور كاتز أخبرني عندما عدت لأراه ثلاث مرات عن أميركي بقي سبعة عشرة عاماً لا يعرف شيئاً مثل الخُضار في المستشفى حيث كانوا يمدّون في حياته بوسائل طبيّة وكان ذلك رقماً قياسياً في

العالم. أبطال العالم هم دائماً في أميركا. وقال لي الدكتور كاتز إننا لا نستطيع أن نفعل لها شيئاً بعد الآن لكن بفضل العناية الجيدة بها في المستشفى يمكنها أن تعيش لسنوات أيضاً.

ما كان مزعجاً في الأمر هو أن السيدة روزا لم يكن لديها ضمان اجتماعي لأنها كانت تعمل في الخفاء. منذ مداهمة الشرطة الفرنسية وهي صغيرة ومفيدة، كما كان لي الشرف، لم تشأ الظهور في أي مكان. مع ذلك كنت أعرف الكثير من اليهود في بلفيل الذين لديهم بطاقة هوية وكل أنواع الأوراق التي تفضحهم غير أن السيدة روزا لم تشأ المخاطرة بأن تنام حسب الأصول على أوراق تثبت ذلك لأنه ما إن يُعرف من أنت حتى تكون ملاماً بالتأكيد. لم تكن السيدة روزا وطنية على الإطلاق ولا يهمّها إذا كان الناس شمال إفريقيين أو عرباً، ماليين أو يهوداً، لأنه لم يكن لديها مبادئ. غالباً ما كانت تقول لي إن جميع الشعوب لديهم جوانب حسنة ولذلك هناك أشخاص ندعوهم المؤرّخين مهمتهم الدراسة والبحث على وجه الخصوص. لذلك لم تظهر السيدة روزا في أي مكان وكان لديها أوراق مزيّفة لا علاقة لها بها البتّة. ولم تكن مشمولة بالضمان.

غير أن الدكتور كاتز طمأنني وقال لي إننا لو أخذنا إلى المستشفى جسماً لا يزال حياً لكنه عاجز بالفعل عن الدفاع عن نفسه لا يمكنهم أن يطردونا لأنه إلى أين سنذهب.

فكرت في ذلك كله وأنا أتأمّل السيدة روزا بينما كان رأسها في نزهة. هذا ما يسمّى خرف الشيخوخة المتسارع مع ذهاب وإياب متكررين أولاً ثم بصورة نهائية. وسُمّي المصاب بهذا النوع من الشيخوخة معتوه، من العته وهو مصطلح طبي. كنت أداعب يدها لتشجيعها على العودة ولم أعد أحبها أبداً لأنها كانت قبيحة وعجوزاً وقريباً لن تكون إنساناً.

لم أعرف ماذا أفعل. لم يكن لدينا مال ولست في العمر المناسب لكي أفلت من القانون ضد القاصرين. كنت أكبر من أن أكون في العاشرة وأعلم أنني أعجب العاهرات اللواتي ليس لهنّ أحد لكن الشرطة كانت قاسية مع القيّادين وكنت خائفاً من اليوغسلافيين الرهيبين في المنافسة.

حاول موسى أن يرفع معنوياتي بقوله إن العائلة اليهودية التي تعتني به أرضته كل الرضا وبإمكاني أن أسرع في العثور على من يعتني بي أيضاً. ثم غادر واعداً بأن يعود كل يوم لتقديم يد المساعدة. كانت ينبغي تنظيف السيدة روزا التي لم تعد قادرة على الكدّ بمفردها حتى عندما كانت تملك عقلها بالكامل كانت تواجه مشكلة في هذا الجانب. كان لديها الكثير من الأرداف بحيث إن يدها لا تستطيع الوصول إلى الموضع الصحيح. وكان هذا يزعجها كثيراً عندما ننظفها بسبب أنوثتها لكن ماذا تريدون. عاد موسى كما وعد وهناك حدثت تلك الكارثة الوطنية التي تشرّفت بها والتي كبّرتني فجأة.

كان ذلك غداة اليوم الذي أتى لنا فيه أكبر الإخوة زاووم بكيلو غرام من الطحين ولحماً لقليه في كرات، لأن عدداً غير قليل من الناس أبدوا جانبهم الطيب منذ أن تدهورت السيدة روزا. لقد علّمت ذلك اليوم بحجر أبيض لأن ذلك كان تعبيراً جميلاً.

كانت السيدة روزا أفضل حالاً في جميع تقلّباتها. أحياناً كانت تنغلق تماماً وأحياناً تبقى منفتحة. سوف أتقدم يوماً بالشكر من جميع المستأجرين الذين ساعدونا، مثل السيد والومبا الذي كان يبتلع النار في جادة سان ميشال لكي يثير اهتمام المارّة بحالته والذي صعد ليقدّم عرضاً رائعاً أمام السيدة روزا لجذب انتباهها.

السيد والومبا أسود من الكاميرون جاء إلى فرنسا لكي يكنسها. ترك كل زوجاته وكل أولاده في بلاده لأسباب اقتصادية. كان يمتلك موهبة أولمبية في ابتلاع النار وكرّس ساعاته الإضافية لهذه المهمة وكانت الشرطة مستاءة منه لأن الناس كانوا يتجمعون حوله. كان لديه ترخيص بابتلاع النار لا مأخذ عليه. عندما كنت أرى أن السيدة روزا بدأت تنظر بعين فارغة وفم فاغر ولُعابها يسيل وقد باتت في العالم الآخر كنت انطلق على وجه السرعة بحثاً عن السيد والومبا الذي كان يتقاسم مسكناً شرعياً مع ثمانية أشخاص آخرين من قبيلته في غرفة أعطيت لهم في الطابق الخامس. إن وجدته هناك كان يصعد على الفور حاملاً شعلته

الملتهبة ويشرع في بصق النار أمام السيدة روزا. لم يكن ذلك لمجرد جذب انتباه شخص مريض يزيده الحزن سوءاً بل لعلاجه عن طريق الصدمة لأن الدكتور كاتز كان يقول إن الكثير من الأشخاص يشعرون بتحسن بفضل هذا العلاج في المستشفى وذلك بتعريضهم لضوء الكهرباء فجأة. وكان السيد والومبا يقول إن المتقدّمين في السِنّ يستعيدون الذاكرة في كثير من الأحيان عندما نخيفهم حتى أنه شفى شخصاً أصمّ أبكم بهذه الطريقة في إفريقيا.

المتقدّمون في السنّ غالباً ما يغرقون في حزن أكبر عندما يوضعون في المستشفى بصورة نهائية، ويقول الدكتور كاتز إن هذه السِنّ المتقدمة بلا رحمة وابتداء من عُمر الخامسة والستين والخامسة والسبعين لا أحد يهتمّ بهم.

لذلك أمضينا ساعات وساعات ونحن نحاول أن نُحدِث للسيدة روزا خوفاً فظيعاً لتحريك دورتها الدموية. كان السيد والومبا يبدو رهيباً حين يبتلع النار ثم تخرج لهباً من جوفه وتصعد حتى السقف، غير أن السيدة روزا تكون في واحدة من حالاتها الجوفاء التي تُسمّى الموات فلا تعود تهتم بشيء ولا سبيل إلى ضربها. ظل السيد والومبا يتقيّأ أمامها اللهب خلال نصف ساعة لكن كانت عيناها مستديرتين ومصابتين بالذهول كما لو كانت تمثالاً بالفعل لا شيء يؤثّر فيه وقد صُنع من خشب أو صخر لهذه الغاية. جرّب مرة أخرى وبينما كان يبذل جهوده خرجت السيدة روزا من حالتها فجأة وحين رأت زنجياً عاري الصدر يبصق النار أمامها أطلقت عويلاً لا يمكنكم أن تتخيّلوه حتى أنها أرادت أن تهرب وكان علينا أن نمسك بها. بعد ذلك لم ترِد أن تعرف شيئاً ومنعت ابتلاع النار في منزلها. لم تعرف أنها كانت خرفة واعتقدت أنها أخذت غفوة وأننا أيقظناها. وما كان بوسعنا أن نخبرها.

مرة أخرى ذهب السيد والومبا للبحث عن خمسة أصدقاء هم كل محفله وجاؤوا للرقص حول السيدة روزا في محاولة لطرد الأرواح الشريرة التي تهاجم بعض الأشخاص حالما يكون لديهم وقت فراغ. كان إخوة السيد والومبا معروفين جداً في بلفيل حيث كان الناس يأتون للبحث عنهم من أجل هذه المراسم. وكان السيد إدريس في المقهى يحتقر ما يسمّيه «ممارسات» ويقول بسخرية إن السيد والومبا وإخوته في القبيلة يمارسون الطب بصورة غير قانونية.

ذات مساء صعد السيد والومبا وجماعته إلى منزلنا عندما كانت السيدة روزا في غيبوبة وقد جلست مستديرة العينين في كنبتها. كانوا نصف عراة ومزيّنين بعدّة ألوان مع وجوه مرسومة كشيء رهيب لتخويف الشياطين الذين يجلبهم العمال الأفارقة معهم إلى فرنسا. جلس اثنان على الأرض وبأيديهم طبولهم والثلاثة الآخرون شرعوا في الرقص حول السيدة روزا في كنبتها. كان السيد والومبا يعزف على آلة موسيقية خاصة بهذا الاستخدام طوال الليل وكان ذلك أفضل ما يمكن أن يُرى في بلفيل. لكن ذلك لم ينجح على الإطلاق لأنه لا يسري على اليهود، وشرح لنا السيد والومبا أن الأمر يتعلق بمسألة دين. كان يعتقد أن دين السيدة روزا دافع عن نفسه وجعلها غير صالحة للشفاء. هذا الأمر أدهشني كثيراً لأن السيدة روزا كانت في حالة لم نرَ فيها على الإطلاق أين يمكن للدين أن يجد لنفسه مكاناً.

إن كنتم تريدون رأيي، فانطلاقاً من لحظة معيّنة حتى اليهود لن يعودوا يهوداً، لذلك فهُم لا شيء. لا أعرف ما إذا كنت مفهوماً لكن هذا لا يهمّ لأنه إذا فهمنا فسيكون ذلك بالتأكيد شيئاً أكثر إثارة للاشمئزاز.

بُعيد ذلك بدأ الإخوان والومبا يشعرون بالإحباط لأن السيدة روزا لم تهتم بشيء وهي في حالتها تلك وأوضح لي السيد والومبا أن الأرواح

الشريرة سدّت كل منافذها ولم تصل الجهود إليها. جلسنا جميعاً على الأرض حول اليهودية ونعمنا بفترة راحة لأنهم في إفريقيا أكثر عدداً منهم في بلفيل ويمكنهم أن يتناوبوا فرقاً حول الأرواح الشريرة كما يحصل في مصانع رينو. ذهب السيد والومبا للبحث عن ماء النار وبيض دجاج وأكلنا السجق حول السيدة روزا التي كانت لديها نظرة وكأنها فقدتها وتبحث عنها في كل مكان.

أثناء تناولنا الطعام شرح لنا السيد والومبا أن احترام المسنّين والعناية بهم لتليينهم في بلاده أسهل بكثير منهم في مدينة كبيرة كباريس التي تضم آلاف الشوارع، والطوابق، والثقوب والأماكن التي تنساهم فيها ولا يمكن استخدام الجيش للبحث عنهم في كل مكان حيث يتواجدون لأن الجيش هو للاهتمام بالشبان. إذا قضى الجيش وقته في الاهتمام بالمسِنّين فلن يعود هو الجيش الفرنسي. وقال لي إن أوكار المسِنّين تُعدّ بعشرات الآلاف في المدن والأرياف لكن ليس هناك من يعطي معلومات تسمح بالعثور عليهم، وهذا هو الجهل. في بلد جميل وكبير مثل فرنسا من الصعب رؤية مسِنّ أو مسِنّة والناس لديهم بالفعل مخاوف كافية من هذا القبيل. المتقدمون في السِنّ من الرجال والنساء على السواء لم يعودوا مفيدين لأي غرض ولا يمثلون منفعة عامة، لذلك نسمح لهم بالعيش. في إفريقيا يتكتلون بحسب القبائل حيث يوجد طلب كبير على المسِنّين لكل ما يمكنهم أن يفعلوه من أجلكم عندما يموتون. في فرنسا لا توجد قبائل بسبب الأنانية. قال السيد والومبا إن فرنسا تخلّصت تماماً من القبائل ولذلك هناك عصابات مسلّحة تتكاتف وتحاول أن تفعل شيئاً. قال السيد والومبا إن الشبان يحتاجون إلى القبائل لأنهم من دون ذلك يصبحون نقطة ماء في البحر وهذا يجعلهم مجانين.

قال السيد والومبا إن الجميع يصبح كبيراً جداً ولا داعي للعدّ قبل الألف. لذلك يختفي صغار المسِنّين والمسِنّات دون أن يتركوا عنواناً

ويعيشون في أوكارهم المغبّرة. لا أحد يعرف أنهم هناك، خصوصاً في غرف الخادمات بدون مصعد، عندما لا يستطيعون الإشارة إلى وجودهم بالصراخ لأنهم ضعفاء جداً. قال السيد والومبا إن من الضروري إحضار كثير من اليد العاملة الأجنبية من إفريقيا للبحث عن كبار السِنّ كل صباح عند الساعة السادسة ورفع هؤلاء الذين بدأت تفوح رائحتهم الكريهة، لأن لا أحد يأتي للتحقق من أن المسِنّ أو المسِنّة ما زالا على قيد الحياة وليس إلا عندما نقول للبوابة أن ثمة رائحة كريهة في الدرج يتضح كل شيء.

السيد والومبا يتحدث جيداً ودائماً كما لو أنه القائد. وجهه مغطى بالندوب وهي من علامات الأهمية وتسمح بأن يكون موضع تقدير كبير في قبيلته ومعرفة عما يتكلم. ما زال مقيماً في بلفيل وسأذهب لرؤيته ذات يوم.

أطلعني على شيء مفيد جداً للسيدة روزا للتمييز بين شخص لا يزال حيّاً وشخص آخر ميت تماماً. لهذه الغاية نهض وتناول مرآة من على المنضدة وقربها من شفتي السيدة روزا فشحبت المرأة من المكان الذي تنفست فوقه. بغير ذلك لا نرى أنها كانت تتنفس نظراً إلى أن وزنها كان أثقل من أن ترفعه رئتاها. هذا شيء يسمح بتمييز الأحياء من الآخرين. وقال السيد والمبا إن هذا أول شيء ينبغي أن نفعله كل صباح مع أشخاص كبار السن نجدهم في غرف الخادمات بدون مصعد لنرى إن كانوا ضحية الشيخوخة فقط أم أنهم موتى مئة في المئة. إن شحبت المرآة فهذا يعني أنهم ما زالوا يتنفسون ولا يجب رميهم.

سألت السيد والومبا ما إذا كنا نستطيع أن نرسل السيدة روزا إلى إفريقيا لكي تنعم وسط قبيلته مع المسنّين الآخرين بالمزايا التي يتمتعون بها هناك. ضحك السيد والومبا كثيراً لأن لديه أسناناً ناصعة البياض،

وإخوانه من قبيلة جامعي القُمامة ضحكوا كثيراً هم أيضاً، وتحدّثوا في ما بينهم بلغتهم ثم قالوا لي إن الحياة ليست بهذه السهولة لأنها تتطلّب تذاكر سفر بالطائرة ومالاً وأذونات وإن من واجبي أنا أن أهتمّ بالسيدة روزا إلى أن تموت. في هذه الأثناء رأينا على وجه السيدة روزا بداية وعي فما كان من إخوان السيد والومبا في العِرق إلا أن نهضوا وشرعوا في الرقص حولها وهم يقرعون الطبول ويغنّون بصوت عال لإيقاظ الموتى وهذا غير مسموح به بعد الساعة العاشرة ليلاً بسبب النظام العام ونوم الصالحين. لكن لم يكن في البناية إلاّ قِلّة من الفرنسيين وهم هنا أقلّ غضباً مما هم في مكان آخر. السيد والومبا نفسه تناول آلته الموسيقية التي لا أستطيع أن أصفها لكم لأنها من نوع خاصٍ، وشاركت أنا وموسى أيضاً وبدأنا جميعاً نرقص ونصرخ دائرين حول اليهودية لطرد أرواحها الشرّيرة لأنها أعطت علامات على ما يبدو ويجب تشجيعها. أجبرنا الشياطين على الفرار واستعادت السيدة روزا وعيها لكن عندما رأت نفسها محاطة بسود نصف عُراة، لهم وجوه خُضر وبيض وزُرق وصفر وهم يرقصون حولها وينعبون مثل الهنود الحمر بينما السيد والومبا يعزف على آلته الرائعة بلغت من الخوف حد أنها بدأت تصرخ النجدة، النجدة، وحاولت الهرب ولم تهدأ إلا عندما تعرّفت عليّ وعلى موسى ونعتتنا بأبناء العاهرة واللوطيّين ما يثبت أنها كانت قد استعادت كل إمكاناتها. تبادلنا التهاني وأولنا السيد والومبا. بقوا جميعاً بعض الوقت بلا تكلّف وأيقنت السيدة روزا أنهم لم يأتوا لضرب امرأة عجوز في قطار الأنفاق وانتزاع حقيبتها. لم تكن على ما يرام بعدُ في رأسها وشكرت السيد والومبا باليهودية التي تسمّى اليديش في تلك اللغة، لكن هذا غير مهم لأن السيد والومبا كان رجلاً طيباً.

بعد مغادرتهم بادرنا أنا وموسى إلى تعرية السيدة روزا من قدميها إلى رأسها ونظفناها بماء الجافيل لأنها كانت قد فعلتها أثناء غيبوبتها. ثم

رشّشنا مؤخرتها بذرور أطفال وأعدناها إلى مكانها في الكنبة حيث تحبّ أن تسود. طلبت مرآة وتزينت مرة أخرى. كانت تعلم جيداً أنها كانت تمرّ بحالات فراغ لكنها حاولت أن تأخذ ذلك بمزاج جيّد على الطريقة اليهودية قائلة إنها في حالات الفراغ تلك لا تشعر بالقلق وهذا مكسب بالفعل. ذهب موسى للتسوّق بآخر ما تبقّى من مدّخراتنا وطهت قليلاً بلا خطأ ولا شيء حتى لم يكن ليقال أنها قبل ساعتين كانت مخبولة تماماً. هذا ما يسمّيه الدكتور كاتز في الطبّ خمود المرض بعد ذلك عادت لتجلس لأن بذل الجهد لم يكن سهلاً عليها. أرسلت موسى إلى المطبخ لغسل الآنية وتهوّت فترة بمروحتها اليابانية وكانت تفكّر في الكيمونو ثوبها الياباني.

ـ تعالَ هنا، مومو.

ـ ما بك؟ لن تهربي مرة أخرى؟

ـ لا، آمل أن لا، لكن إذا استمرّ ذلك فسوف يضعونني في المستشفى. لا أريد الذهاب إلى هناك، عمري سبع وستون سنة...

ـ تسع وستون.

ـ الحاصل، ثمان وستّون، لست عجوزاً بقدر ما أبدو. لذلك اسمعني، مومو. لا أريد الذهاب إلى المستشفى، سوف يعذّبونني.

ـ سيدة روزا، لا تتلفظي بحماقات. فرنسا لم تعذّب أحداً على الإطلاق، لسنا في الجزائر، هنا.

ـ سوف يجبرونني على العيش بالقوّة، مومو. هذا ما يفعلونه دائماً في المستشفى، لديهم قوانين من أجل ذلك. لا أريد أن أعيش أكثر من الضروري وهذا لم يعد ضرورياً. هناك حدود حتى بالنسبة إلى اليهود. سوف يجعلونني أعاني لمنعي من أن أموت ولديهم شيء يُسمّى نقابة الأطباء خصيصاً لذلك. يجعلونك تُريّل حتى النهاية ولا يريدون إعطاءك

حقّ الموت لأنه يجعل بعض الناس أصحاب امتيازات. كان لديّ صديق لم يكن يهودياً حتى لكنه من دون ذراعين ولا ساقين بسبب حادث، وقد جعلوه يعاني عشر سنوات إضافية في المستشفى لدراسة دورته الدموية. مومو، لا أريد أن أعيش لا لشيء إلاّ لأن الطبّ يتطلّب ذلك. أعلم أنني أفقد رأسي ولا أريد أن أعيش لسنوات في غيبوبة كُرمى للطبّ. لذلك إذا سمعت شائعات لوضعي في المستشفى فأطلب من رفاقك أن يعطوني الحقنة الصحيحة ثم يلقوا بجثماني في الريف. في غابات، وليس في أي مكان. كنت في الريف بعد الحرب لمدة عشرة أيام ولم أتنفس على الإطلاق كما تنفست آنذاك. هناك الجو أفضل لربوي من المدينة. منحتُ الزبائن مؤخّرتي خلال خمس وثلاثين سنة، ولا أريد الآن أن أعطيها الطبّ، وعد؟

ـ وعد، سيدة روزا.

ـ خايريم؟

ـ خايريم.

هذا يعني عندهم «أقسم لك» كما كان لي الشرف.

كنت مستعداً لأعد السيدة روزا بأي شيء لكي أسعدها لأن السعادة مفيدة حتى عندما نكون متقدّمين في السِنّ. لكن في تلك اللحظة رنّ الجرس وحدثت تلك الكارثة الوطنية التي لم أستطع إدخالها هنا والتي تسبّبت لي بفرح كبير لأنها سمحت لي بأن أكبر عدّة سنوات دفعة واحدة، بصرف النظر عن البقيّة.

رَنّ جرس الباب فذهبت لأفتحه وكان هناك رجل ضئيل وكئيب أكثر من المعتاد، مع أنف طويل هابط وعينين نرى منهما في كل مكان لكنهما أكثر ذعراً. كان شاحباً جداً ويتعرّق كثيراً وأنفاسه متلاحقة، وقد وضع يده على قلبه لا بسبب العواطف بل لأن القلب هو أسوأ ما يكون للطوابق. كان قد رفع قُبّة معطفه وليس لديه شعر مثل كثير من الصُلعان وأمسك قُبّعته بيده وكأنه يريد أن يثبت أن لديه قبعة. لم أعرف من أين خرج لكنني لم أرَ على الإطلاق شخصاً أقلّ منه اطمئناناً. نظر إليّ مذعوراً وقابلته بالمثل وذلك أنني أقسم لكم أنه كان يكفي أن تروا هذا الشخص مرة حتى تشعروا بأنه سوف يقفز ويسقط عليكم من جميع الجهات، وهذا هو الذعر.

ـ السيدة روزا، تقيم هنا؟

يجب أن نكون حذرين في هذه الحالات، لأن الناس الذين لا تعرفونهم لا يتسلّقون ستة طوابق لإرضائكم.

تحامقت كما يحقّ لي في مثل سِنّي.

ـ مَن؟

ـ السيدة روزا.

فكّرت، من الضروري دائماً كسب الوقت في مثل هذه الحالات.

ـ ليست أنا.

تنهّد. أخرج منديلاً، ومسح جبهته ثم فعل الشيء نفسه في الاتجاه الآخر.

ـ أنا رجل مريض، قال، خرجت للتوّ من المستشفى حيث بقيت إحدى عشرة سنة. صعدت ستّة طوابق بدون إذن الطبيب. جئت إلى هنا لأرى ابني قبل أن أموت، هذا حقّي، وتوجد قوانين لذلك، حتى عند المتوحشين. أريد أن أجلس لحظة، أن أرتاح، وأرى ابني، وهذا كل شيء. هل هي هنا؟ عهدت بابني إلى السيدة روزا قبل إحدى عشرة سنة، ولديّ إيصال.

فتّش جيب معطفه وأعطاني ورقة قذرة على نحو لا يمكن تصوّره. قرأت ما استطعت بفضل السيد هاميل الذي أدين له بكل شيء. لولاه ما كنت لأصبح شيئاً. إيصال بمبلغ خمس مئة فرنك مقدّماً من السيد قادر يوسف عن محمد الصغير، مسلم، في السابع من تشرين الأول أكتوبر ١٩٥٦. حسناً، تلقيت ضربة، لكننا كنا في السبعين، أجريت حساباً سريعاً، والحاصل أربعة عشر عاماً، هذا لا يمكن أن يكون أنا. لا بد أن السيدة روزا عانت من أكوام من المحمّدين في بلفيل، وليس هذا ما ينقصها.

ـ انتظر، سأرى.

ذهبت لأقول للسيدة روزا إن هناك رجلاً ذا وجه قذر جاء ليرى ما إذا كان لديه ابن هنا فانتابها خوف فظيع على الفور.

ـ يا إلهي، مومو، لكن لا يوجد هنا إلا أنت وموسى.

ـ إذاً، إنه موسى، قلت لها، لأنه إما أنا وإما هو، وهذا دفاع مشروع عن النفس.

كان موسى يغفو في مكان قريب. وكان يغفو أكثر من أي أحد عرفته من الأشخاص الذين يغفون.

ـ ربّما لابتزاز الأمّ، قالت السيدة روزا، حسناً سنرى. القوّادون لا يخيفونني. لا يمكنه أن يثبت شيئاً. لديّ أوراق مزوّرة قانونية، أدخلْه. إذا كان قاسياً، اذهبْ واحضِر السيد نْدا.

أدخلت الرجل. كانت السيدة روزا تضع ملاقط على الشعرات الثلاث التي بقيت لها، وقد تزيّنت وارتدت ثوبها الكيمونو الياباني الأحمر وحالما رآها الرجل جلس على طرف كرسيّ وركبتاه ترتجفان. لاحظت أن السيدة روزا كانت ترتجف هي أيضاً، لكن بسبب وزنها، وكان ارتجافها أقل ظهوراً للعيان لأنه لا يملك القوّة لرفعها. على أن لها عينين بلون بُنيّ جميل جداً، ما لم ننتبه إلى البقية. كان السيد جالساً وقُبّعته على ركبتيه على طرف الكرسي في مقابل السيدة روزا التي تجلس كملكة في كنبتها وظهرها إلى النافذة لكي لا يراني جيداً، لأننا لا نعرف أبداً. لم يكن بيني وبين هذا الرجل أي شبه، لكن لديّ قاعدة ذهبية في الحياة وهي أن علينا ألا نجازف، خصوصاً إذا ما استدار نحوي ونظر إليّ بانتباه وكأنه يبحث عن أنف فقده. لزمنا الصمت جميعاً لأن لا أحد أراد أن يبدأ لفرط ما كنا خائفين. حتى أنني ذهبت لآتي بموسى لأن ذلك الرجل كان لديه إيصال طبقاً للأصول وكان ينبغي أن يُعطى له.

ـ إذاً، ماذا تريد؟

ـ عهدتُ إليك بابني منذ إحدى عشرة سنة، سيدتي، قال الرجل، وكان يبذل جهداً حتى يتكلم لأنه لم يتوقف عن التقاط أنفاسه. لم أستطع إعطاءك علامة على أنني ما زلت حيّاً قبل الآن لأنني كنت مسجوناً في المستشفى. لم يعد لديّ لا اسمك ولا عنوانك بعدما أخذوا مني كل شيء عندما سجنوني. كان إيصالك لدى أخي زوجتي المسكينة التي

ماتت موتاً مأساوياً، كما لا يغرب عنك. لقد أخلوا سبيلي هذا الصباح وعثرت على الإيصال وجئت. اسمي قادر يوسف وجئت لأرى ابني محمد، أريد أن أقول له صباح الخير.

كانت السيدة روزا تملك عقلها بالكامل ذلك اليوم، وهذا ما أنقذنا.

لاحظت أن وجهها قد امتقع، لكن يجب معرفتها أولاً، فمع زينتها كنا لا نرى إلا الأحمر والأزرق. لبست نظارتها، التي كانت دائماً تبدو أفضل من لا شيء، ونظرت إلى الإيصال.

ـ ماذا قلت؟

كاد الرجل يبكي.

ـ سيدتي، أنا رجل مريض.

ـ من ليس مريضاً، من ليس مريضاً، قالت السيدة روزا بورع، حتى أنها رفعت عينيها نحو السماء وكأنها تشكرها.

ـ سيدتي، اسمي قادر يوسف، يويو كما تدعوني الممرّضات. بقيت إحدى عشرة سنة طِبّنفسي، بعد تلك المأساة في الجرائد التي لست مسؤولاً عنها على الإطلاق.

فكرت فجأة في أن السيدة روزا كانت تسأل الدكتور كاتز طوال الوقت ما إذا كنت طِبّنفسيّ، أنا أيضاً، أو وراثي. في النهاية، لم أولِ الأمر اهتماماً فلم يكن المقصود أنا. كان عمري عشر سنوات، لا أربع عشرة سنة. اللعنة.

ـ وابنك، ماذا كان يُسمّى؟

ـ محمد.

حدّقت فيه السيدة روزا لدرجة أنني ازددت خوفاً.

ـ واسم الأُمّ، هل تتذكره؟

هنا ظننت أن الرجل سيموت. اخضرّ وارتخى فكّاه، وتقافزت ركبتاه، ودمعت عيناه.

- سيدتي، تعلمين أنني لم أكن مسؤولاً، لقد شُخِّصت وشُهد عليّ بهذه الصفة، إذا فعلت يدي ذلك فأنا براءٌ منه. لم يعثروا على السفلس معي، لكن الممرضات يقلنَ إن جميع العرب سفلسيّون، فعلت ذلك في لحظة جنون. رحمها الله. لقد أصبحتُ تقيّاً. أصلّي لروحها في كل ساعة تمر. إنها بحاجة إلى ذلك، في المهنة التي كانت تمارسها. لقد تصرّفت تحت تأثير أزمة غيرة. تفتكرين، كانت تضاجع حتى عشرين مرة في اليوم. انتهى بي الأمر إلى أن أصبحت غيوراً وقتلتها، أعرف. لكنني لست مسؤولاً. لقد شخّصني أفضل الأطباء الفرنسيين. حتى أنني لم أتذكّر أي شيء بعد ذلك. أحببتها بجنون. لم أستطع العيش بدونها.

ضحكت السيدة روزا هازئة. لم أرَ قط ضحكاً هازئاً من هذا القبيل. كان شيئاً... لا، لا أستطيع أن أخبركم بذلك. لقد جمّد ردفيّ.

- طبعاً، لم تستطع العيش بدونها، سيد قادر، كانت عائشة تغلّ لك مئة ألف فرنك في اليوم منذ سنوات. قتلتها لأنك كنت تريد منها أكثر.

أطلق الرجل صرخة قصيرة ثم انخرط في البكاء، كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها عربياً يبكي، بصرف النظر عني. حتى أنني أشفقت لدرجة أنني لم أهتم.

هدأت السيدة روزا فجأة. أسعدها أن قطعت كُرات هذا الرجل. لا بد أنها شعرت بأنها لا تزال امرأة، ماذا.

- وبصرف النظر عن هذا، أنت بخير، سيد قادر؟

مسح الرجل وجهه بقبضته، لم يعد لديه القوّة للبحث عن منديله، لقد كان بعيداً جداً.

- بخير، سيدة روزا، سأموت قريباً. القلب.

ـ مازلوف، قالت السيدة روزا، بطيبة، ما يعني في اليهودية أهنئك.

ـ شكراً، سيدة روزا. أريد أن أرى ابني، من فضلك.

ـ أنت مدين لي بأجرة ثلاث سنوات إعالة، سيد قادر. انقضت إحدى عشرة سنة لم تردنا منك علامة حياة.

قفز الرجل قفزة صغيرة على كرسيّه.

ـ علامة حياة، علامة حياة، علامة حياة، ترنّم الرجل رافعاً عينيه نحو السماء حيث ينتظروننا جميعاً. علامة حياة!

لا يمكن القول إنه كان يتكلّم على النحو الذي تقتضيه الكلمة، وكان يقفز عند كل نطق على كرسيّه، كما لو كان يتلقّى ركلات على ردفيه بدون أي تقدير.

ـ علامة حياة، لا، لكنك تمزحين؟

ـ هذا آخر شيء أريده، طمأنته السيدة روزا. لقد تخلّيت عن ابنك وكأنه غائط، وفقاً لتعبير هذا الاسم.

ـ لكن لم يكن لدي لا اسمك ولا عنوانك! لقد احتفظ عمّ عائشة بالإيصال في البرازيل... وكنت مسجوناً! خرجت هذا الصباح! ذهبت إلى منزل زوجة ابنه في كرملن ـ بيساتر، كان الجميع موتى، ما عدا أمهم التي ورثت وتتذكر شيئاً على نحو غامض. كان الإيصال معلّقاً بدبّوس على صورة عائشة مثل أمّ وابنها! علامة حياة! ماذا يعني هذا، علامة حياة؟

ـ مال، قالت السيدة روزا، بحسّ سليم.

ـ أين تريدين أن أجده، سيدتي؟

ـ هذه أشياء لا أريد الدخول في تفاصيلها، قالت السيدة روزا وهي تهزي وجهها بمروحتها اليابانية.

كانت تفاحة آدم السيد قادر يوسف تعمل عمل المصعد السريع، صعوداً وهبوطاً، لفرط ما ابتلع من الهواء.

ـ سيدتي، عندما عهدنا إليك بابننا كنت أمتلك كامل إمكانياتي. كان لدي ثلاث نساء يعملن في الهال منهن واحدة أحببتها كثيراً. كنت قادراً على تأمين تعليم جيّد لابني. حتى أنه كان لديّ اسم اجتماعي، يوسف قادر، معروف جيداً من قِبل الشرطة. نعم، سيدتي، معروف جيداً من قِبل الشرطة، لا بل كان ذات مرة مذكوراً في الصحف بكامل حروفه. يوسف قادر، معروف جيداً من قِبل الشرطة... معروف جيداً، سيدتي، وليس معروفاً بشكل سيّئ. بعد ذلك أُخذت بعدم المسؤولية وصنعت شقائي.

كان يبكي مثل عجوز يهودية، ذلك الرجل.

ـ لا يحقّ لك أن تتخلّى عن ابنك مثل غائط دون أن تدفع، قالت السيدة بلهجة صارمة، وهوّت بمروحتها اليابانية.

الشيء الوحيد الذي كان يعنيني هو معرفة ما إذا كنت أنا المقصود كمحمد أم لا. إذا كنت أنا المقصود فإن عمري عشر سنوات وليس أربع عشرة سنة، كنت طفلاً أصغر بكثير وهذا أفضل ما يمكن أن يحدث لكم. ثم إن موسى الذي كان واقفاً عند الباب يصغي لم يكن قلقاً هو أيضاً، لأنه إذا كان هذا الشخص يدعى قادر ويوسف فحظه قليل في أن يكون يهودياً. لاحظوا، لا أقول على الإطلاق إن كونه يهودياً هو من قبيل الحظ، فاليهود لهم مشاكلهم هم أيضاً.

ـ سيدتي، لا أدري إن كنت تكلمينني بهذه اللهجة أو أنني مخطئ وأتخيل أشياء لأنني مريض طِبّنفسي، لكنني كنت منقطعاً عن العالم الخارجي لمدة خمس عشرة سنة، لذلك كنت في حالة الاستحالة الماديّة. لديّ هنا شهادة طبية تثبت لي...

أخذ يفتش جيوبه بعصبية فقد كان ذلك النوع من الرجال الذي لم يعد متأكداً من شيء ويمكنه تماماً ألا تكون لديه ورقة الطبّ النفسي التي يعتقد أنها أعطيت له وذلك على وجه التحديد لأنه كان يتخيل أنهم سجنوه.

مرضى الطب النفسي هم أناس نشرح لهم طوال الوقت أنه ليس لديهم ما هو لديهم وأنهم لا يرون ما يرونه، ولذلك ينتهي الأمر بدفعهم إلى الجنون. على أنه وجد في جيبه ورقة حقيقية وأراد أن يعطيها السيدة روزا.

- الوثائق التي تثبت أشياء أنا لا أريدها، تفو، تفو، تفو، قالت السيدة روزا، متظاهرة بأنها تبصق على الحظ السيّئ، كما يقتضي الأمر.

- الآن، أنا بخير تماماً، قال السيد يوسف قادر، ونظر إلينا جميعاً لكي يتأكد من صحة ذلك.

- أشجعك على أن تمضي قُدماً، قالت السيدة روزا، فليس هناك ما يقال غير ذلك.

لكن لم يكن يبدو عليه أنه بخير على الإطلاق، بعينيه اللتين كانتا تطلبان النجدة، فالأعين دائماً ما تكوِن في أمسّ الحاجة إلى النجدة.

- لم أتمكن من إرسال المال إليك بعد الإعلان أنني غير مسؤول عن الجريمة التي ارتكبتها وإيداعي السجن. أعتقد أن عمّ زوجتي المسكينة هو الذي كان يرسل لك المال قبل أن يموت. أنا ضحية لسوء الحظ. لعلك تفكرين جيداً أنني ما كنت لأرتكب جريمة لو كنت في حالة لا تشكّل خطراً على من حولي. لا أستطيع أن أعيد عائشة إلى الحياة لكنني أريد أن أقبّل ابني قبل أن أموت وأطلب منه أن يسامحني ويتضرّع إلى الله من أجلي.

بدأ يزعجني، هذا الرجل، بعواطفه الأبويّة وتبريراته. أولاً ليس له

على الإطلاق ذلك الوجه الذي ينبغي أن يكون لأبي، الذي ينبغي أن يكون رجلاً حقيقياً، حقيقياً حقاً، لا بليداً. وبعد، إذا كانت أمي تكدّ في الهال، بل تكدّ بقوة، كما قال بنفسه، فليس لأحد أن يدّعي أنه أبي، اللعنة. كنت لأب مجهول مضمون على الفاتورة وفقاً لقانون الأعداد الكبيرة. كنت سعيداً بمعرفة أن أمي تدعى عائشة. إنه أجمل اسم يمكنكم أن تتخيلوه.

ـ لقد تلقيت عناية ممتازة، قال يوسف قادر. ما عدت أعاني من نوبات عنف، شفيت من هذا الناحية. لكن هذا لن يستمر طويلاً فقلبي لا يتحمّل الانفعالات. سمح لي الأطباء بالخروج لأسباب عاطفية، سيدتي. أريد أن أرى ابني، وأقبّله، وأطلب منه أن يسامحني و....

اللعنة. أسطوانة حقيقية.

ـ ... وأطلب منه أن يصلّي من أجلي.

استدار نحوي ونظر إليّ بجزع لما سينجم عن ذلك من انفعالات.

ـ هذا هو؟

لكنّ السيدة روزا كانت تمتلك عقلها بالكامل وحتى أكثر. هوّت وجهها ناظرة إلى السيد يوسف قادر كما لو أنها تتلذذ مقدماً.

استمرّت في التهوية صامتة ثم استدارت نحو موسى.

ـ موسى، قل صباح الخير لأبيك.

ـ صبا، بي، قال موسى، لأنه يعلم جيداً أنه لم يكن عربياً ولا داعي للخجل.

أصبح السيد يوسف قادر أشد شحوباً من الممكن.

ـ معذرة، ماذا سمعت؟ قلت موسى؟

ـ نعم، قلت موسى، وماذا في ذلك؟

نهض الرجل. نهض كما لو أنه تحت تأثير شيء قوّي جداً.

ـ موسى اسم يهودي، قال. أنا متأكد تماماً، سيدتي، موسى ليس اسماً مسلماً جيداً. طبعاً، يوجد منه، لكن ليس في عائلتي، لقد عهدت إليك بمحمد، سيدتي، ولم أعهد إليك بموسى، لا يمكن أن يكون لي ابن يهودي، سيدتي، صحتي لا تسمح لي بذلك.

تبادلت النظر مع موسى واستطعنا ألا نضحك.

بدت السيدة روزا مندهشة، ثم بدت أكثر اندهاشاً أيضاً. حرّكت مروحتها. خيّم صمت ثقيل مرّت في أثنائه أشياء من كل نوع. وكان الرجل لا يزال واقفاً لكنه يرتجف من أخمص قدميه إلى رأسه.

ـ تس، تس، تمتمت السيدة روزا بلسانها هازّة رأسها. أنت متأكد؟

ـ متأكد من ماذا، سيدتي؟ لست متأكداً من شيء على الإطلاق، نحن لم نخلق لكي نكون متأكدين. قلبي ضعيف، لم أقل سوى شيء صغير أعرفه، شيء صغير جداً، لكنني أُصرُّ عليه. لقد عهدت إليك منذ إحدى عشرة سنة بابن مسلم عمره ثلاث سنوات، يدعى محمد. وقد أعطيتني إيصالاً بابن مسلم، محمد قادر. أنا مسلم، وابني كان مسلماً. وكانت أمه مسلمة، أقول أكثر من هذا: أعطيتك ابناً عربياً طبقاً للأصول وأريد أن تعيدي إليّ ابناً عربياً. لا أريد على الإطلاق ابناً يهودياً، سيدتي. لا أريد ذلك. نقطة. هذا كل شيء، صحتي لا تسمح لي. كان هناك محمد قادر، لا موسى قادر، سيدتي. لا أريد أن أصبح مجنوناً مرة أخرى. ليس لديّ شيء ضد اليهود، سيدتي، سامحهم الله. لكنني عربي، ومسلم صالح، وكان لديّ ابن في نفس الحالة. محمد، عربي، مسلم. عهدت به إليك في حالة جيدة وأريد أن تعيديه إليّ في الحالة نفسها. أسمح لنفسي بأن أعلمك أنني لا أستطيع أن أتحمّل انفعالات

مماثلة. كنت هدفاً للاضطهاد طوال حياتي، ولديّ مستندات طبيّة تثبت ذلك، وتعترف لجميع المقاصد والأغراض بأنني مضطهد.

ـ لكن، هل أنت متأكد أنك لست يهودياً؟

سألت السيدة روزا بأمل.

ظهرت تشنّجات عصبية على وجه السيد يوسف قادر وكأنها أمواج.

ـ سيدتي، أنا مضطهد من دون أن أكون يهودياً، الأمر ليس حكراً عليكم. انتهى الاحتكار اليهودي، سيدتي، هناك أناس آخرون غير اليهود لديهم الحق في أن يكونوا مضطهدين هم أيضاً. أريد ابني محمد قادر في الحالة العربية التي كان عليها عندما عهدت به إليك في مقابل إيصال. لا أريد ابناً يهودياً بأية ذريعة كانت، لديّ ما يكفي من متاعب كهذه.

ـ حسناً، لا تقلق، قد يكون هناك خطأ، قالت السيدة روزا، لأنها رأت بوضوح أن الرجل كان مضعضعاً من الداخل وأنه يثير الشفقة، عندما نفكّر في كل ما عاناه العرب واليهود بالفعل معاً.

ـ هناك خطأ بالتأكيد، آه يا إلهي، قال السيد يوسف قادر، واضطرّ إلى الجلوس لأن ساقيه تطلّبتا ذلك.

ـ مومو، أرني الأوراق، قالت السيدة روزا.

أخرجت حقيبة العائلة الكبيرة التي كانت تحت السرير. ولما كنت قد فتشتها مراراً بحثاً عن أمي فلا أحد يعرف الفوضى الموجودة داخلها أفضل مني، كانت السيدة روزا تضع أبناء العاهرات الذين تأخذهم لإعالتهم عندها على قُصاصات من الورق لا يفهم منها شيء لأن الكتمان هو القاعدة عندها ويمكن للمعنيّات أن ينمن قريرات الأعين. لا أحد يستطيع الوشاية بهنّ كأمهات بجرم البغاء مع سقوط الأبوة. إذا أراد قوّاد أن يبتزهنّ بذلك لكي يرسلهن إلى أبيدجان فلن يتمكن من العثور على أي طفل هناك ولو أجرى دراسات خاصة لهذا الغرض.

أعطيت السيدة روزا مجموعة الأوراق فبلّلت إصبعها وبدأت البحث من خلال نظارتها.

ـ ها هي، وجدتها، قالت السيدة روزا بانتصار. السابع من تشرين الأول اكتوبر ١٩٥٦ ونَيِّف.

ـ كيف، ونيّف؟ قال السيد قادر يوسف بأنين.

ـ هذا للتقريب، استقبلت في ذلك اليوم ولدين أحدهما في حالة مسلم والآخر في حالة يهودي.

فكّرت وأشرق وجهها بالفهم.

ـ آه، حسناً، كل شيء يتضح! قالت بسرور، لا بد أنني أخطأت في الدين الصحيح.

ـ كيف، قال السيد يوسف قادر بكثير من الاهتمام. كيف ذلك؟

ـ لا بدّ أنني ربيت محمد على أنه موسى وربيت موسى على أنه محمد، قالت السيدة روزا. استلمتهما في اليوم نفسه وخلطت بينهما. الصغير موسى، الصالح، هو الآن في عائلة مسلمة صالحة في مرسيليا حيث يُعامل بحفاوة. وصغيرك محمد حاضر هنا، وقد ربّيته كيهودي. بارمتيزواه[١] وكل شيء. كان يأكل كاشير[٢] دائماً، يمكنك أن تكون مطمئناً.

ـ كيف كان يأكل كاشير دائماً؟ صرخ السيد قادر يوسف الذي لم يقوَ على النهوض من كرسيّه لفرط ما كان منهاراً على كل الخطوط، ابني محمد كان يأكل كاشير دائماً. بارمتيزواه؟ ابني محمد أصبح يهودياً؟

ـ لقد ارتكبت خطأ في الهوية، قالت السيدة روزا. الهويّة، كما

---

(١) Barmitzwah معمودية الصبي اليهودي عندما يبلغ الثالثة عشرة من عمره. (م.م)

(٢) Kasher اللحم الحلال عند اليهود. (م.م)

تعلم، يمكن أن تكون خاطئة أيضاً. فهي ليست دليلاً. طفل في الثالثة ليس لديه الكثير من الهويّة، حتى عندما يكون مختوناً. أخطأت في التمييز بين مختونين، ربيّت صغيرك محمد كطفل يهودي صالح، يمكنك أن تكون هادئاً. وعندما تترك ابنك خلال إحدى عشرة سنة من دون أن تراه فلا يجب أن تندهش لأنه أصبح يهودياً.

ـ لكنني كنت في حالة الاستحالة السريرية، تأوّه السيد قادر يوسف.

ـ حسناً، لقد كان عربياً، والآن هو يهودي قليلاً، لكنه لا يزال صغيرك، قالت السيدة روزا بابتسامة عائلية طيّبة.

نهض الرجل. كان بمقدوره أن يسخط ونهض.

ـ أريد ابني العربي، صرخ. لا أريد ابناً يهودياً.

ـ لكنه هو نفسه، قالت السيدة روزا مشجّعة.

ـ ليس هو نفسه. لقد عمّدوه لي.

ـ تفو، تفو، تفو. بصقت السيدة روزا التي لا يزال لديها حدود. لم يُعمّد، لا سمح الله. موسى يهودي صغير صالح. موسى ألستَ يهودياً صغيراً صالحاً؟

ـ بلى، سيدة روزا، قال موسى، بسرور، لأنه لا يأبه بأبٍ ولا بأُمّ.

نهض السيد يوسف قادر، ونظر إلينا بعينين مرتاعتين، ثم أخذ يركل برجله وكأنه يرقص في مكانه رقصة صغيرة مع اليأس.

ـ أريد أن يُعاد لي ابني في الحالة التي وجِد عليها! أريد ابني في حالة عربية جيدة وليس في حالة يهودية سيئة.

ـ الحالات العربية والحالات اليهودية هنا لا تؤخذ في الاعتبار، قالت السيدة روزا. إن كنت تريد ابنك عليك أن تأخذه في الحالة التي يوجد عليها. في البداية، قتلت أُمّ الصغير، ثم عملت على أن تُعْلَن كطبّنفسي.

ثم عملت حالة أخرى لأن ابنك نشأ يهودياً. في كل خير كل شرف! موسى. تعال عانق أباك حتى لو قتله ذلك، إنه أبوك على أي حال.

ـ لا مجال للتردد، قلت، لأنني كنت مرتاحاً على شكل مسَلّ لفكرة أنني أكبر بأربع سنوات.

تقدّم موسى خطوة نحو السيد يوسف قادر وقال هذا شيئاً رهيباً بالنسبة إلى رجل لا يعرف أنه على حق.

ـ هذا ليس ابني! صاح، في مشهد دراميّ.

نهض وتقدّم خطوة نحو الباب وهناك حدث ما هو خارج عن إرادته. بدلاً من أن يخرج كما كان يعتزم بوضوح قال آه ثم أوه! ووضع يداً على جهة الشمال حيث القلب وسقط أرضاً كما لو أنه لم يبق لديه ما يقوله.

ـ عجباً، ما به؟ سألت السيدة روزا وهي تحرّك مروحتها اليابانية إذ لم يكن لديها ما تفعله غير ذلك. ما به؟ يجب أن نرى.

لم نعرف إن كان قد مات أم أنه حدث عابر، لأنه لم يعط أية علامة. انتظرنا، لكنه رفض أن يتحرّك. بدأ الرعب يدبّ في السيدة روزا لأن آخر ما نحتاج إليه هو الشرطة التي لا تنتهي أبداً متى بدأت. طلبت مني أن أذهب على وجه السرعة بحثاً عن شخص ما يمكنه أن يفعل شيئاً لكنني رأيت بوضوح أن السيد يوسف قادر كان ميتاً تماماً نظراً إلى الهدوء الكبير الذي يسيطر على وجوه الأشخاص الذين لم يعد ثمة ما يقلقهم. قرصتُ السيد يوسف قادر في عدة مواضع ووضعت المرآة أمام شفتيه لكن لم يعد لديه أية مشكلة. وكان من الطبيعي أن يهرب موسى على الفور لأنه خُلِق للهروب، أما أنا فهرعت بحثاً عن الإخوة زاووم لأقول لهم إن لدينا ميتاً يجب أن نضعه على الدرج لكي لا يكون قد مات عندنا.

صعدوا ووضعوه على قرص الدرج أمام باب السيد شارمن الذي كان من أصل فرنسي مضمون ويستطيع أن يتحمّله.

غير أنني عدت فنزلت وجلست إلى جانب يوسف قادر ميتاً وبقيت هناك فترة، حتى وإن لم يعد بمقدورنا أن نفعل شيئاً أحدنا للآخر. كان له أنف أطول بكثير من أنفي لكن الأنوف تطول دائماً أثناء الحياة.

فتشت جيوبه لأرى ما إذا كان فيها تذكار ما لكن لم أجد سوى علبة سجائر، جيتان زرقاء، كان لا يزال فيها سيجارة واحدة فدخّنتها جالساً إلى جانبه، لأنه كان قد دخّن كل السجائر الأخرى، وأحدث فيّ تدخين السيجارة المتبقية شعوراً ما.

حتى أنني بكيت قليلاً. وقد سرّني ذلك كما لو كان في داخلي شخص ما وقد فقدتّه. ثم سمعت زمّور شرطة النجدة فصعدت بأقصى سرعة حتى لا أقع في مأزق.

كانت السيدة روزا لا تزال في حالة ذاهلة وشعرت بالاطمئنان لرؤيتها في هذه الحالة وليس في الحالة الأخرى. أحياناً لا يكون لديها سوى بضع ساعات في اليوم وكان السيد قادر قد جاء في الوقت المناسب.

كنت ما أزال مضطرباً كل الاضطراب لفكرة أنني كبرت أربع سنوات دفعة واحدة ولا أعرف ماذا أفعل، حتى أنني نظرت إلى نفسي في المرآة. كان هذا أهمّ حدث في حياتي ويُسمّى ثورة. لم أعد أعرف أين كنت كما يحصل دائماً عندما نعود نحن أنفسنا. كنت أعلم أنه لم يعد بإمكاني التفكير كما في السابق لكن في الوقت الحاضر أحاول أن لا أفكّر أبداً.

ـ آه، يا إلهي، قالت السيدة روزا، وحاولنا أن لا نتحدّث عمّا حدث حتى لا نحدث التباسات. جلست على المنضدة عند قدميها وأمسكت بيدها بامتنان بعد الذي فعلته للاحتفاظ بي. كنا نحن كل ما تملكه في العالم وهذا تم حفظه دائماً. أظن أننا عندما نعيش مع شخص قبيح جداً ننتهي بأن نحبه أيضاً لأنه قبيح. أنا أرى أن القبيحات الحقيقيات في حاجة ماسّة حقاً ونحن هنا أوفر حظاً. الآن بعد أن أتذكر أقول لنفسي إن السيدة روزا كانت أقل قبحاً بكثير من ذلك، فقد كانت لها عينان جميلتان بُنّيتان مثل كلب يهودي، لكن لا ينبغي التفكير فيها كامرأة لأنها لن تكون هي الرابحة في ذلك بالتأكيد.

ـ أحزنك ما حدث، مومو؟

ـ كلا، سيدة روزا، أنا سعيد ببلوغي الرابعة عشرة.

ـ هذا أفضل. ثم إنك لا تحتاج إلى أب كان طِبّنفسياً، لأن هذا يكون وراثياً في بعض الأحيان.

ـ صحيح، سيدة روزا كنت، كنت محظوظاً.

ـ ثم كما تعلم، كانت عائشة تقوم بعمليات كثيرة ولا يمكننا حقاً معرفة مَن هو الأب. لقد حملَت بك أثناء تحرّكها لأنها لم تتوقف عن العمل أبداً.

بعد ذلك نزلتُ واشتريت لها قطعة حلوى بالشوكولا من السيد ادريس فأكلتها.

حافظت على كامل عقلها لعدّة أيام، وهذا ما يسمّيه الدكتور كاتز تخفيف العقوبة. كان الأخوة زاووم يصعدون مرّتين في الأسبوع حاملين الدكتور كاتز على ظهورهم فلم يعد بإمكانه ارتقاء الطوابق الستة لرؤية الأضرار. فيجب أن لا ننسى أن لدى السيدة روزا أعضاء أخرى غير الرأس وينبغي فحصها في كل مكان. لم أرغب على الإطلاق في البقاء هناك أثناء قيامه بجردة حساب وكنت أنزل إلى الشارع حيث أنتظر.

ذات يوم مرّ الزنجي من هناك. يدعى الزنجي لأسباب غير معروفة، ربما لتمييزه من السود الآخرين في الحي. كان أنحف من الجميع، ويعتمر قُبعة مستديرة ومنتفخة، وعمره خمس عشرة سنة من بينها خمس سنوات لم يكن له أحد خلالها. كان له أب وأُمّ عهدا به إلى عَمّ له أحاله على زوجة أخيه التي أحالته بدورها على فاعل خير وانتهى بأن أصبح قيد التداول من شخص إلى آخر ولا يُعرف مَن هو البادئ. غير أنه لم يحقن نفسه أبداً وكان يقول إنه مستاء ولا يريد الخضوع للمجتمع. كان الزنجي معروفاً في الحي كناقل طلبيات لأنه كان أرخص من المكالمات الهاتفية. أحياناً كان ينفّذ مئة طلبية في اليوم، وكانت له غرفة أيضاً. لاحظ

أنني لم أكن في شكلي الأولمبي ودعاني للعب كرة قدم الطاولة في حانة في شارع بيسون توجد فيها هذه اللعبة. سألني ماذا سأفعل إذا ماتت السيدة روزا فقلت له إن لديّ شخصاً آخر في الأُفق. لكنه لاحظ أنني أتبجّح. أخبرته أنني كبرت أربع سنوات دفعة واحدة فهنّأني. تناقشنا فترة لمعرفة كيف يمكننا العمل عندما يكون عمرنا أربع عشرة أو خمس عشرة سنة وليس لدينا أحد. كانت لديه عناوين يمكننا أن نذهب إليها. لكنه قال لي إنه في ما يخصّ المؤخّرة يجب أن تحبّ ذلك وإلا كان مثيراً للإشمئزاز. لم يكن يريد هذا الخبز أبداً لأنه كان مهنة فتاة. دخّنا سيجارة معاً ولعبنا كرة قدم الطاولة، لكن كان على الزنجي القيام بعدّة جولات وأنا لست من النوع الذي يتعلّق.

عندما عدت كان الدكتور كاتز لا يزال هناك ويحاول أن يقنع السيدة روزا بالذهاب إلى المستشفى. وكان هناك أيضاً السيد زاووم الكبير، والسيد والومبا الذي لم يكن في الخدمة مع خمسة من زملائه في السكن لأن الموت يُضفي أهميّة على المرء عندما يقترب منه ونحترمه أكثر. وكان الدكتور كاتز يكذب لإشاعة البهجة لأن للمعنويات أهمّيتها أيضاً.

ـ آه، ها هو صغيرنا مومو جاء لسماع الأخبار. حسناً، الأخبار جيدة، لا يزال ما بها ليس السرطان، أستطيع أن أطمئنكم، ها، ها!

ابتسم الجميع ولا سيّما السيد والومبا الذي كان عالم نفس بارعاً، والسيدة روزا كانت مسرورة هي أيضاً لأنها على الأقل حقّقت شيئاً في حياتها.

ـ لكن بما أننا نمرّ بأوقات عصيبة، لأن رأسنا المسكين يُحرم أحياناً من الدورة الدموية، وبما أن كُليتَينا وقلبنا ليست كما كانت من قبل، فلربما كان من الأفضل أن نقضي بعض الوقت في المستشفى، في قاعة كبيرة وجميلة، حيث كل شيء سوف ينتظم.

شعرت ببرود في رِدفيّ وأنا أستمع إلى الدكتور كاتز. يعلم جميع مَن في الحيّ أنه لا يمكن الإجهاض في المستشفى حتى وإن كنت تتعذّب وأنهم قادرون على أن يجعلوك تعيش بالقوّة ما دام لديك لحم رديء ويمكنهم أن يغرزوا فيه إبرة هناك يجب أن يكون للطبّ الكلمة الأخيرة وهو يكافح حتى النهاية لكي يمنع إرادة الله من أن تتحقّق.

كانت السيدة روزا ارتدت فستانها الأزرق ووشاحها المطرّز الثمين وكانت مسرورة لإبداء الاهتمام بها. بدأ السيد والومبا العزف على آلته الموسيقية لأنها كانت لحظة عصيبة، كما تعلمون، لا أحد فيها يستطيع أن يفعل شيئاً لأحد. كنت أبتسم أنا أيضاً، لكن في الداخل كنت أريد أن أموت. أحياناً أشعر بأن الحياة ليست هي هذه الحياة على الإطلاق، صدّقوا خبرتي. ثم خرجوا جميعاً الواحد تلو الآخر في صمت لأن هناك أوقات لا يكون لدينا فيها ما يقال. أسمعنا السيد والومبا أيضاً بعض النغمات التي ذهبت معه.

بقينا وحدنا نحن الاثنين كما لا أتمنّاه لأحد.

ـ سمعت، مومو؟ إنها المستشفى الآن، وأنت ماذا سيحدث لك؟

بدأت أصفر، وكان ذلك كل ما استطعت قوله.

استدرت نحوها لأخرج لها شيئاً على طريقه زورو، لكن تلقيت هنا ضربة حظ ففي تلك اللحظة حدث انسداد في رأسها وبقيت بعيدة على مدى يومين وثلاث ليال من دون أن تعي. لكن قلبها استمر في الخفقان وكانت إذا جاز القول لا تزال على قيد الحياة.

لم أجرؤ على استدعاء الدكتور كاتز ولا حتى الجيران وأيقنت أننا سنفترق هذه المرة. بقيت جالساً إلى جانبها بقدر الإمكان دون أن أذهب لأتبوّل أو لآكل. أردت أن أكون هناك عندما تعود لأكون أول شيء تراه. وضعت يدي على صدرها وتحسستُ قلبها على الرغم من كل

الكيلوغرامات التي تفصلنا. جاء الزنجي لأنه لم يرني في أيّ مكان ونظر إلى السيدة روزا طويلاً وهو يدخّن سيجارة. ثم فتّش جيبه وأعطاني رقماً مطبوعاً على قُصاصة مكتوب عليها: إزالة مجانية لأشياء ضخمة. هاتف ٢٧٨٧٨٧٨.

ثم ربّت على كتفي وغادر.

في اليوم الثاني سَارعت في البحث عن السيدة لولا فصعدت ومعها أسطوانات بوب صاخبة قالت إنها توقظ الموتى فلم تفعل شيئاً. كانت هذه حالة الخُضار التي أعلن عنها الدكتور كاتز في البداية. وكانت السيدة لولا متأثرة جداً لرؤية صديقتها في تلك الحالة حتى أنها لم تذهب إلى غابة بولونيا لأوّل ليلة في مهنتها على الرغم من الخسارة التي تكبّدتها. هذا السنغالي كان شخصاً إنسانياً حقيقياً وسوف أذهب لرؤيته ذات يوم.

اضطررنا إلى ترك اليهودية في مقعدها. حتى السيدة لولا على الرغم من السنوات التي قضتها على حلبة الملاكمة لم تكن قادرة على رفعها.

أكثر ما يبعث على الحزن مع الأشخاص الذين يغيبون من رؤوسهم هو أننا لا نعلم كم يدوم ذلك. قال لي الدكتور كاتز إن الرقم القياسي العالمي سجّله أميركي عاش في غيبوبة دامت سبعة عشر عاماً ونيّفاً لكن من أجل ذلك لا بد من توافر معالجين وتجهيزات خاصّة تعمل بالقطّارة. كان شيئاً فظيعاً التفكير في أن السيدة روزا قد تصبح بطلة العالم، لأنها عانت ما فيه الكفاية وآخر ما يهمّها هو تحطيم الأرقام القياسية.

كانت السيدة لولا لطيفة كما لم أعرف الكثير مثلها من قبل. لطالما رغبت في أن يكون لها أبناء لكنني أوضحت لكم أنها لم تكن مجهّزة لذلك مثل كثير من المتخنّثين الذين ليسوا على وفاق مع قوانين الطبيعة من هذه الناحية. وعدتني أن تعتني بي ووضعتني على رُكبَتيها وغنّت لي

تهويدات لتنويم أطفال السنغال. في فرنسا توجد تهويدات أيضاً لكنني لم أسمع شيئاً منها على الإطلاق لأنني لم أكن رضيعاً قطّ وكانت لديّ هموم أخرى في رأسي. اعتذرت لأن عمري صار أربع عشرة سنة ولا يمكنني أن ألعب دور الدُمية مع نفسي فهذا أمر مستغرب. ثم ذهبتْ لترتّب نفسها من أجل عملها وتولّى السيد مالومبا الحراسة حول السيدة روزا مع قبيلته حتى أنهم شوَوا حَمَلاً كالذي نأكله في النزهة وهم جلوس حولها. كان المشهد ظريفاً كما لو كنا في الطبيعة.

حاولنا إطعام السيدة روزا بأن نمضغ لها قِطع اللحم أولاً لكن كان نصفها يبقى في فمها والنصف الآخر في الخارج وهي تنظر إلى ما لا تراه بعينَيها اليهوديتَيْن الجميلتين. لم يكن هذا مهمّاً لأن لديها من الشحم ما يكفي لتغذيتها لا بل تغذية قبيلة السيد مالومبا لكن الزمن تغيّر ولم نعد نأكل لحم الآخرين. أخيراً، بعد أن عمّت البهجة وشربوا كحول النخيل شرعوا في الرقص وعزف المسيقى حول السيدة روزا. لم يكن الجيران يشكون من الضجّة لأنهم لم يكونوا أناساً يشكون وليس بينهم واحد لديه أوراق ثبوتية قانونية. سقى السيد والومبا السيدة روزا قليلاً من كحول النخيل الذي كانوا يشترونه من محلّ السيد سومغو في شارع بيسون مع جوز الكولا الضروري هو أيضاً خصوصاً في مناسبة زواج. كان يعتقد أن كحول النخيل جيّد للسيدة روزا لأنه يصعد إلى الرأس ويفتح مجاري الدورة الدموية، غير أنه لم يفعل شيئاً سوى أنها احمرّت قليلاً. وقال السيد والومبا إن الأهمّ هو إحداث كثير من الطنطنة لإبعاد الموت الذي لا بدّ أنه كان هناك بالفعل ويخاف خوفاً فظيعاً من الطَنْطَنة لأسباب خاصة به. والطَنْطَنة أو التام ـ تام كناية عن طبول صغيرة يضربون عليها بالأيدي ويستمر ذلك طوال الليل.

في اليوم الثاني أيقنتُ أن السيدة روزا ذهبت لتحطيم الرقم القياسي العالمي ولم يعد بالإمكان تلافي المستشفى حيث سيبذلون قُصارة

جهدهم. خرجت ومشيت في الشارع مفكّراً في الله وأشياء من هذا القبيل لأنني كنت راغباً في الخروج أكثر من أي وقت آخر.

ذهبت أولاً إلى شارع بونتيو قاصداً القاعة التي يملكون فيها وسائل لإرجاع العالم إلى الوراء، كما كنت راغباً في رؤية المرأة الشقراء الجميلة التي تفوح برائحة منعشة والتي حدثتكم عنها على ما أعتقد وهي كما تعلمون تلك التي تدعى نادين أو كيف بالفعل. ربما لم يكن ذلك تصرّفا لائقاً بالنسبة إلى السيدة روزا لكن ماذا تريدون. كنت في حالة سيئة للغاية لدرجة أنني لم أشعر حتى بالسنوات الأربع التي كسبتها وكان الأمر كما لو أنني ما زلت في العاشرة ولم تكن لديّ قوة العادة بعد.

حسناً، لن تصدّقوني إن قلت لكم إنها كانت هناك في انتظاري، في تلك القاعة، فأنا لست من نوع الرجال الذي يُنتظَر. لكنها كانت هناك حتى أنني شعرت بمذاق البوظة بالفانيلا التي كانت قد اشترتها لي.

لم ترني أثناء دخولي وكانت تقول كلمات حبّ في المذياع وتلك أشياء تهمّكم. على الشاشة كانت امرأة تحرّك شفتَيها لكن الأخرى، امرأتي، هي التي كانت تقول كل شيء بدلاً منها. كانت هي التي تعطيها صوتها. هذه تقنية.

جلست في رُكنٍ أنتظر. كنت في حالة سيّئة لدرجة أنني كنت سأبكي لولا السنوات الأربع التي كسبتها. حتى على هذا النحو كان عليّ أن أضبط انفعالي. أُضيئ المكان ورأتني المرأة. كان الضوء خافتاً في القاعة لكنها رأت على الفور مَن أنا وبدأ كل شيء دفعة واحدة ولم أتمالك نفسي.

محمّد!

ركَضت نحوي كما لو كنت شخصاً ما وطوّقت كتِفيّ بذراعها. ونظر الآخرون إليّ لأنه كان اسماً عربياً.

ـ محمّد ما بك؟ لماذا تبكي؟ محمّد.

لا أحبّ أن تدعوني محمّد لأنه بعيد جداً عن مومو ولكن ماذا في ذلك.

ـ محمّد كلّمني، ما بك؟

تظنّون أنه كان من السهل أن أخبرها. لم أعرف حتى من أين أبتدئ. تلقيت ضربة قويّة.

ـ لا شيء... لا شيء.

ـ إسمع، لقد أنهيت عملي وسنذهب إلى منزلي وتخبرني بكل شيء.

ركضتُ لإحضار معطفها الواقي من المطر وغادرنا بسيّارتها. من وقت إلى آخر كانت تلتفت إليّ وتبتسم لي. كانت رائحتها طيّبة لدرجة لا تُصدّق. لاحظتُ أنني لم أكن في شكلي الأولمبي حتى أنني عانيت من الفُواق ولم تقل شيئاً فما الفائدة. لكن في بعض الأحيان كانت تضع يدها على خدّي عند إشارة مرور حمراء وهو أمر جيّد دائماً في مثل هذه الحالات. وصلنا إلى عنوانها في شارع سانتونوريه وأدخلت سيّارتها إلى الفِناء.

صعدنا إلى منزلها وكان هناك رجل لا أعرفه، طويل القامة، طويل الشعر، يضع نظّارات ضغط على يديّ ولم يقل شيئاً كما لو كان الأمر طبيعياً. كان صغيراً نوعاً ما ولا ينبغي أن يكون أكبر مني مرّتين أو ثلاث مرّات. نظرت لأرى ما إذا كان الطفلان الأشقران سيخرجان ليقولا لي إنهما لا يحتاجان إليّ لكن لم يكن هناك إلا كلب غير شرّير هو أيضاً.

شرعا في التحدّث بالإنكليزية وهي لغة لم أكن أعرفها ثم قُدِّم لي الشاي مع سندويشات طيبة جداً فأكلت واستمتعت حقاً. تركاني آكل كما لو لم يكن هناك شيء آخر أفعله سوى هذا. ثم إن الرجل حدّثني قليلاً ليعرف إذا كانت الأمور تسير على نحو أفضل وبذلتُ جهداً لأقول شيئاً

لكن كان هناك الكثير والكثير لدرجة أنني لم أتمكن من التنفّس جيّداً وعانيت من الفُواق والرَبو مثل السيدة روزا، لأن الرَبو مُعد.

بقيت صامتاً مثل شبّوط يهودي لمدّة نصف ساعة مع الفُواق وسمعت الرجل يقول إنني كنت في حالة صدمة فسرّني ذلك لأنه يثير اهتمامهما. بعد ذلك نهضت وقلت لهما إنني مضطرّ إلى العودة للمنزل نظراً لوجود شخص بشري متقدّم في السنّ وهو في حالة فقدان ويحتاج إليّ. لكن المرأة التي تدعى نادين ذهبت إلى المطبخ وعادت منه بقطعة بوظة بالفانيلا كانت أجمل شيء أكلته في حياتي اللعينة، أقول لكم ذلك كما أفكّر فيه.

تحدّثنا قليلاً بعد ذلك لأنني كنت بخير. عندما أوضحت لهما أن الشخص البشري كان عجوزاً يهودية في حالة فقدان ذهبت لتحطّم الرقم القياسي العالمي لجميع الفئات، وذكرت لهما ما قاله الدكتور كاتز عن الخُضار، نطقا ببضع كلمات سبق أن سمعتها مثل ضعف الشيخوخة والتصلّب الدماغي وسررت لأنني كنت أتحدّث عن السيدة روزا وهو حديث يسرّني دائماً. شرحت لهما أن السيدة روزا عاهرة سابقة عادت بعد ترحيلها إلى مساكن اليهود في ألمانيا وفتحت مخبأ لأطفال العاهرات اللواتي يمكن أن يتعرّضن للابتزاز بسبب فقدان الأب نتيجة الدعارة غير الشرعية وكنّ مضطرّات إلى إخفاء أبنائهنّ لأن هناك جيراناً أنذالاً يمكنهم دائماً الوشاية بهنّ إلى المساعدة العامة. لا أدري لماذا شعرت بتحسّن عندما كنت أحدّثهما وأنا جالس بارتياح على كنبة حتى أن الرجل قدّم لي سيجارة مع نار قدّاحته وكان يُصغي إليّ وكأنني شخص مهمّ. وليس هذا مجرّد كلام وإنما كنت أرى جيداً أنه كان لي تأثير عليهما. حتى أنني انجرفت بعيداً ولم أتمالك نفسي لشدّة رغبتي في إخراج كل شيء. لكن ذلك لم يكن ممكناً لأنني لست السيد فيكتور هوغو ولم أكن مجهّزاً. كان ذلك يخرج تقريباً من جميع الجهات في الوقت نفسه لأنني كنت

أبدأ دائماً بنهاية كل أمل، مع السيدة روزا في حالة فقدان ومع أبي الذي قتل أمّي لأنه كان طِبْنفسي، لكن يجب أن أقول لكم إنني لم أعرف يوماً أين يبدأ هذا وأين ينتهي لأنه في رأيي مستمّر. كانت أمي تدعى عائشة وكانت تكدّ بمؤخّرتها وتُعاشر حتى عشرين مرّة في اليوم قبل أن تُقتل في نوبة جنون لكن كان من غير المؤكد أنني وراثي، والسيد قادر يوسف لا يستطيع أن يُقسم أنه أب. كان رجل السيدة نادين يُدعى رامون وقال لي إنه طبيب إلى حدّ ما وهو لا يؤمن بالوارثة وعليّ ألاّ آخذها في الحسبان. أشعل سيجارتي بقدّاحته وقال لي إن أبناء العاهرات أفضل من شيء آخر لأن بإمكانهم اختيار أب عندما يريدون وليس رغماً عنهم. أخبرني أن هناك الكثير من حوادث الولادة التي انتهت نهاية جيّدة جداً في ما بعد وأنتجت رجالاً صالحين. قلت له إني موافق وعندما نكون هناك فنحن هناك، وهذا ليس كما يجري في قاعة السيدة نادين لعرض الأفلام حيث يمكننا أن نجعل كل شيء يمشي القهقرى ويرجع إلى أمّه في الداخل، لكن الأمر المثير للاشمئزاز هو عدم السماح بإجهاض الأشخاص الطاعنين في السِنّ مثل السيدة روزا والذين بلغت معاناتهم حدّاً لا يطاق.

شعرت بالارتياح حقاً للتحدث معهما لأنه بدا لي كما لو أنه حدث لي أقل من ذلك بمجرّد أن أخرجته. هذا الرجل الذي يُدعى رامون والذي لا يبدو شريراً على الإطلاق كان مهتمّاً كثيراً بغليونه أثناء حديثي لكن لاحظت بوضوح أن ما يهمّه هو أنا. لكن خشيت أن تتركنا الأم نادين وحدنا إذ من دونها لن يكون بيننا نفس التعاطف. كانت لديها ابتسامة هي كل شيء بالنسبة لي. عندما أخبرتهما كيف كسبت أربع سنوات بين ليلة وضحاها بينما لم يكن لديّ البارحة إلا عشر سنوات سجّلت نقطة أخرى لصالحي لأنهما أبديا اهتماماً شديداً. فعلت كل ما بوسعي لأثير اهتمامهما أكثر فأكثر ولكي يشعرا بأنهما أبرما صفقة معي.

- في ذلك اليوم جاء أبي ليأخذني، وكان قد وضعني في عُهدة السيدة

روزا قبل أن يقتل أُمّي لأنه كان يفضّلها. جاء مطالباً بي عندما سمحوا له بالخروج لكن السيدة روزا لم ترغب في معرفة أي شيء لأنه ليس من صالحي أن يكون لي أب طبّنفسي فهذا يمكن أن يكون وراثياً. لذلك قالت له إن ابنه هو موسى وهو يهودي. لدى العرب أيضاً من يدعَون موسى لكنهم ليسوا يهوداً. غير أن السيد يوسف قادر، كما تظنّون، كان عربياً ومسلماً ولّما أعادت له ابناً يهودياً جُنّ جنونه ومات...

كان الدكتور رامون يصغي إليّ هو أيضاً لكن السيدة نادين هي التي أسعدتني بوجه خاص.

ـ ... السيدة روزا هي المرأة الأكثر قبحاً والأكثر وحدة في محنتها التي رأيتها في حياتي، ولحسن الحظ أنني كنت هناك لأن لا أحد يريدها. أنا لا أفهم لماذا يوجد أناس لديهم كل شيء، بشعون، مسنّون، فقراء، مرضى، وآخرون ليس لديهم شيء على الإطلاق. هذا ليس عدلاً. أنا لديّ صديق هو رئيس الشرطة كلها ولديه قوى أمن أقوى من الجميع، وهو الأقوى في كل مكان، وأكبر شرطي يمكنكم أن تتخيّلوه. إنه قوي جداً كشرطي ويمكنه أن يفعل أي شيء، إنه الملك. وعندما نمشي في الشارع معاً يضع ذراعه حول كتفيّ ليظهر وكأنه أبي. حين كنت صغيراً كانت تأتيني ليلاً في بعض الأحيان لبوة تلحس وجهي، وكنت لا أزال في العاشرة وأتخيّل أشياء. وفي المدرسة قالوا إنني كنت مختلاً لأنهم كانوا لا يعرفون أن لديّ أربع سنوات إضافية، فلم أكن مسجّلاً بعد، وكان ذلك قبل أن يأتي السيد يوسف قادر ويعلن أنه أبي ومعه إيصال يثبت ذلك. السيد هاميل تاجر السجّاد المعروف هو الذي علّمني كل ما أعرف والآن هو أعمى. لدى السيد هاميل كتاب للسيد فيكتور هوغو يحمله دائماً وعندما أصبح كبيراً سوف أكتب أنا أيضاً البؤساء لأن هذا ما نكتبه دائماً عندما يكون لدينا ما نقوله. كانت السيدة روزا تخشى أن أُصاب بنوبة عنف وأقطع عنقها لأنها كانت تخاف من أن أكون وراثياً.

لكن لا يوجد ابن عاهرة يمكنه أن يقول مَن هو أبوه وأنا لن أقتل أحداً ولم أُخلَق لهذا. عندما أصبح كبيراً ستكون قوى الأمن كلها في تصرّفي ولن أخاف أبداً. من المؤسف ألاّ نستطيع أن نفعل كل شيء بالمقلوب كما في قاعتكم لعرض الأفلام لكي نُرجع العالم إلى الوراء ولكي تعود السيدة روزا شابة وجميلة وتُسِرّ رؤيتها. في بعض الأحيان أفكّر في الذهاب مع سيرك حيث لديّ أصدقاء مهرّجون لكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك وأقول طُز على الجميع ما دامت اليهودية هنا لأنني مجبر على الاهتمام بها...

انجرفت أكثر فاكثر ولم أعد قادراً على التوقّف عن الكلام لأنني كنت خائفاً ألاَ يستأنفا الإصغاء إليّ إن توقّفت. كان للدكتور رامون، لأنه كان كما هو، وجه مع نظارات وعينين تنظران إليكم وفي لحظة معيّنة نهض ووضع مسجّل الصوت لكي يصغي إليّ على نحو أفضل وشعرت بأنني أكثر أهمية وكان ذلك أمراً لا يصدق.. كانت تلك المرّة الأولى التي كنت فيها جديراً بالاهتمام لدرجة وضعي على مسجّل صوت. أنا لم أعرف من قبل على الإطلاق ما ينبغي فعله لأكون جديراً بالاهتمام كأن أقتل أحدهم وآخذ رهائن أو لا أدري ماذا. أُقسم لكم أن في العالم كمية كبيرة من نقص الاهتمام لدرجة أننا مجبرون على الاختيار كما نفعل في الإجازات عندما لا نستطيع أن نذهب إلى الجبل والبحر في الوقت نفسه. نحن مجبرون على اختيار أكثر ما يثير إعجابنا من نقص الاهتمام في العالم والناس يأخذون دائماً الأفضل نوعاً والأغلى ثمناً مثل النازيين الذي كلّفوا ملايين أو مثل الفيتنام. لذلك فإن يهودية عجوزاً في الطابق السادس بدون مصعد عانت كثيراً في الماضي حتى نكون مهتمين بها، فليس بذلك سوف نمرّ في السلسلة الأولى، آه، لا إذن. الناس يحتاجون إلى ملايين وملايين لكي يشعروا بأنهم مهتمّون ولا يمكننا أن نحقد عليهم لأنه كلّما كان الشيء أصغر قلّت أهميّته...

كنت مستلقياً على الكنبة وأتكلّم كملك والأطرف من ذلك أنهما كانا يصغيان إليّ وكأنهما لم يسمعا من قبل على الإطلاق شيئاً مماثلاً. لكن الدكتور رامون بوجه خاص هو الذي كان يجعلني أتكلّم لأن الأم، كما بدا لي، لم تكن تريد أن تصغي، حتى أنها في بعض الأحيان كانت تومِئ كما لو أنها تسدّ أذُنيها. أضحكني الأمر قليلاً لأنه ماذا، علينا أن نعيش.

سألني الدكتور رامون عمّا قصدت بكلامي عن حالة الفقدان فقلت له إنها عندما لا يكون لدينا شيء ولا أحد. ثم أراد أن يعرف ماذا فعلنا لنعيش منذ أن انقطعت العاهرات عن إرسال أطفالهنّ إلينا، لكن هنا بادرت على الفور إلى طمأنته وقلت له إن المؤخّرة هي أقدس ما لدى الرجل، وهذا ما شرحته لي السيدة روزا حين لم أكن قد عرفت بعد لماذا تُستخدم. لم أكدّ بمؤخّرتي ويمكنه الاطمئنان. كان لدينا السيدة لولا التي كانت تكدّ في غابة بولونيا كمُتخنّث وكانت تساعدنا كثيراً. لو كان الجميع مثلها لكان العالم مختلفاً كثيراً ولكانت المصائب أقلّ. كانت بطل ملاكمة في السنغال قبل أن تتحوّل إلى مُتخنّث وتكسب من المال ما يكفي لتربية عائلة لو لم تكن الطبيعة ضدّها.

تبيّنت من طريقة إصغائهما أنهما لم يعتادا على العيش ورويت لهما كيف عملت قيّاداً في شارع بلانش لأجمع بعض النقود مصروف جيب. ما زلت أحاول أن أقول قيّاداً كما كنت أفعل وأنا طفل لكنني اعتدت على ذلك. أحياناً كان الدكتور رامون يقول لصديقته شيئاً ما في السياسة لكنني لم أفهم جيداً لأن السياسة ليست للصغار.

لا أعرف ما الذي لم أقله لهما وكنت راغباً في الاستمرار لكثرة ما بقي لديّ من أشياء أردت أن أدفعها خارجاً. لكنني تعبت وبدأت أرى المهرّج الأزرق الذي كان يومئ إليّ كما كان يفعل غالباً عندما كنت أريد

أن أنام وخشيت أن يرياه ويظنّا أنني أبله أو شيء ما. لم أعد قادراً على الكلام ولاحظا أنني كنت متعباً فقالا لي إن بإمكاني البقاء والنوم في منزلهما. غير أنني شرحت لهما أن عليّ الذهاب للاهتمام بالسيدة روزا التي ستموت عمّا قريب وبعد ذلك أرى. ثم أعطياني أيضاً ورقة عليها اسماهما وعنوان المنزل وقالت لي الأمّ نادين إنها ستصحبني بالسيارة وسيأتي الدكتور معنا ليلقي نظرة على السيدة روزا ويرى إن كان بوسعه أن يفعل شيئاً لها. أنا لم أرَ أننا نستطيع أن نفعل شيئاً للسيدة روزا بعد كل ما فعلناه لها غير أنني وافقت على العودة بالسيارة. كان هناك شيء مضحك.

كنا نهمّ بالخروج عندما رنّ جرس الباب خمس رنّات متوالية ولمّا فتحت السيدة نادين الباب رأيت الطفلين اللذين عرفتهما بالفعل وكانا هناك في منزلهما، وليس ثمة ما يقال. هذان هما طفلاها وكانا عائدين من المدرسة أو شيء كهذا. كانا أشقرين ويرتديان من الملابس ما يحملنا على الاعتقاد أننا نحلم، ملابس فاخرة، لا يمكننا أن نسرقها لأنها لا تكون معروضة بل توضع في الداخل ويجب تجاوز البائعات للوصول إليها. نظرا إليّ على الفور كما لو كنت قُمامة. كنت أهلاً للرثاء بملابسي وعلى رأسي قُبّعة واقفة على مؤخرتها دائماً لأن لديّ الكثير من الشعر وأرتدي معطفاً يصل إلى كاحلي. عندما نسرق أسمالاً لا يكون لدينا مُتسع من الوقت لنقيسها ونرى إن كانت كبيرة جداً أو صغيرة جداً ونحن على عجلة من أمرنا. حسناً، لم يقولا شيئاً، لكننا لم نكن من نفس الحيّ.

لم أرَ قطّ طفلين أشقرين كهذين. وأُقسم لكم أنهما لم يخدما كثيراً، وكانا جديدين تماماً، وبدون أي ارتباط حقاً.

- تعاليا، أقدّم لكما صديقنا محمد، قالت أُمّهما. ما كان لها أن تقول

محمد. يجب أن تقول مومو. محمد يعني الحمار العربي في فرنسا، وعندما يقال لي ذلك أغضب. لست خجلاً لكوني عربياً بل العكس لكن اسم محمد في فرنسا يعني كنّاساً أو يداً عاملة وهذا ليس له نفس معنى الجزائري. ثم إن محمد كناية عن غبيّ. كأن يقال يسوع المسيح في فرنسا فإنه يُضحك الجميع.

تفحّصني الطفلان على الفور. الأصغر ذاك الذي لا بد أن يكون في السادسة أو السابعة من عمره، لأن الآخر يجب أن يكون في العاشرة، نظر إليّ وكأنه لم يرَ مثل هذا أبداً، ثم قال:

ـ لماذا يرتدي على هذا النحو؟

لم أكن لأتحمّل الإهانة. وكنت أعلم أنني لست في منزلي هنا. وعلى ذلك نظر إليّ الآخر مَلِيّاً وسألني:

ـ أنت عربي؟

اللعنة، أنا لا أسمح لأحد بأن يعاملني كعربي. ثم، ماذا، الأمر لا يستحق الإلحاح، فلم أكن لا غيوراً ولا شيئاً آخر، لكن المكان لم يكن مكاني ثم إنه كان مشغولاً بالفعل، ولم يكن لديّ ما أقوله. كان في حلقي شيء ابتلعته، ثم خرجت مسرعاً ووليّت الأدبار.

لم نكن من نفس الحيّ، ماذا.

توقفت أمام دار سينما لكن الفيلم كان ممنوعاً على القاصرين. مضحك أن نفكّر في الأشياء الممنوعة على القاصرين وكل الأشياء الأخرى التي لنا الحقّ فيها.

رأتني أمينة الصندوق وأنا أنظر إلى الصور في الواجهة الزجاجية فزجرتني حفاظاً على الشبيبة. سئمت الممنوع على القاصرين وأنزلت سحاب فتحة البنطال وأريتُها زُبّي وهربت لأن الوقت لم يكن للمزاح.

مررت في مونمارتر بمحاذاة الكثير من متاجر الخلاعِيّات لكنها محميّة أيضاً فضلاً عن أنني لا أحتاج إلى وسائل للانتصاب فأنا قادر على ذلك متى شئت. متاجر الخلاعيات مخصّصة لكبار السِنّ الذين لم يعودوا قادرين على الانتصاب بمفردهم.

في اليوم الذي لم تُجر فيه أمّي عملية إجهاض كانت إبادة جماعية. هذه الكلمة كانت دائماً في فم السيدة روزا، التي تلقّت تعليماً وكانت في المدرسة.

الحياة ليست شيئاً للجميع.

لم أتوقف في أي مكان قبل العودة إلى المنزل ولم يكن لديّ سوى رغبة واحدة وهي الجلوس بجانب السيدة روزا لأننا، أنا وهي، على الأقل، كنا من نفس القرف.

عندما وصلت رأيت سيارة إسعاف أمام البناية فاعتقدت أنها ماتت ولم يعد لي أحد لكنها لم تكن من أجل السيدة روزا بل لشخص آخر كان قد مات بالفعل. شعرت براحة عظيمة لدرجة أنني كنت سأبكي لو لم يكن لديّ أربع سنوات زائدة. اعتقدت للوهلة الأولى أنه لم يبق لي شيء حقاً. لكنه كان جثمان السيد بوعَفّا. والسيد بوعَفّا، كما تعلمون، هو الذي لم أحدّثكم عنه لأنه لم يكن هناك ما يقال عنه فقد كان شخصاً قلّما رأى نفسه. كان لديه شيء في القلب وقال لي السيد زاووم الكبير، الذي كان في الخارج، أن لا أحد انتبه إلى أنه كان ميتاً ولم يتلقّ أي رسائل على الإطلاق. لم أكن قطّ مسروراً برؤيته ميتاً مثل الآن، وليس قولي هذا ضده طبعاً، وإنما قلته من أجل السيدة روزا.

صعدت بسرعة فوجدت الباب مفتوحاً، وكان أصدقاء السيد والومبا قد خرجوا لكنهم تركوا بعض الضوء لكي ترى السيدة روزا نفسها. كانت ممددة على كنبتها ويمكنكم أن تتخيّلوا كم كنت سعيداً عندما رايت دموعها تسيل لأن ذلك يثبت أنها كانت حَيّة. وكانت تهتزّ من الداخل مثل الأشخاص المنُتَحِبين.

- مومو... مومو... مومو... كان هذا كل ما استطاعت أن تقوله لكنه كان كافياً في نظري.

هرعت لمعانقتها. كانت رائحتها كريهة لأنها فعلتها تحتهاالأسباب تتعلّق بالحالة. عانقتها أكثر لأنني لم أرد أن تتخيّل أنني أشمئزّ منها.

- مومو... مومو...

- نعم، سيدة روزا، هذا أنا، يمكنك الاعتماد على ذلك.

- مومو... سمعتُ... لقد استدعوا سيارة إسعاف سوف يأتون...

- ليست من أجلك، سيدة روزا، إنها من أجل السيد بوعفّا الذي مات بالفعل.

- أنا خائفة...

- أعرف، سيدة روزا، هذا دليل على أنك حيّة حقاً.

- سيارة الإسعاف...

كانت تجد صعوبة في النطق لأن الكلمات بحاجة إلى عضلات لكي تخرج وعضلاتها مهترئة كلها.

- ليست من أجلك. لا يعلمون حتى بأنك هنا، أقسم لك على ذلك بالنبيّ، خايريم.

- سوف يأتون، مومو...

- ليس الآن، سيدة روزا. لم يُبلِغوا عنك. أنت حيّة حقاً، حتى وإن فعلتِها تحتك، لا يفعل ذلك إلاّ الأحياء.

بدت مطمئنة قليلاً. نظرت إلى عينيها لكي لا أرى البقيّة. لن تصدّقوني، لكن كانت لديها عينان جميلتان جداً هذه العجوز اليهودية. مثل سجادات السيد هاميل عندما كان يقول: «لديّ هنا سجّادات في منتهى الجمال». السيد هاميل يعتقد أنه لا يوجد في العالم ما هو أجمل من سجّادة جميلة حتى إن الله يجلس على سجّادة. إذا كنتم تريدون رأيي فإن الله يجلس على أشياء كثيرة.

- صحيح أن الرائحة كريهة.

- هذا دليل على أن العمل على ما يُرام في الداخل.

- *إنشالله*، قالت السيدة روزا. سأموت عمّا قريب.

- *إنشاء الله*، سيدة روزا.

- أنا سعيدة بالموت، مومو.

- نحن جميعاً، سعداء من أجلك، سيدة روزا. ليس لديك إلاّ أصدقاء هنا. الجميع يريد لك الخير.

ـ لكن يجب ألاّ تدعوهم يأخذونني إلى المستشفى، مومو، مهما كلّف الأمر، يجب منعهم.

ـ يمكنك أن تكوني مطمئنة، سيدة روزا.

ـ سوف يجبرونني على العيش بالقوّة في المستشفى، مومو، لديهم قوانين من أجل ذلك. هذه قوانين نورمبرغ الحقيقية. أنت لا تعرف ذلك، أنت صغير جدّاً.

ـ لم أكن صغيراً جدّاً على أي شيء، سيدة روزا.

ـ الدكتور كاتز سوف يبلغ المستشفى عني وسيأتون لأخذي.

لم أقل شيئاً. إذا بدأ اليهود بالإبلاغ عن بعضهم البعض فأنا لن أتدخّل. أنا لا استصغر اليهود فهم أناس مثل غيرهم.

ـ لن يجهضوني في المستشفى.

ما زلت لا أقول شيئاً. أمسكت بيدها. هكذا لم أكذب على الأقلّ.

ـ كم من الوقت جعلوه يعاني، بطل العالم ذاك في أميركا، مومو؟... إلى المستشفى أعني.

تحامقتُ.

ـ أي بطل؟

ـ في أميركا؟ سمعتك وأنت تتحدث عنه مع السيد والومبا.

اللعنة.

ـ سيدة روزا، في أميركا لديهم كل الأرقام القياسية في العالم فهم رياضيون عظماء. في فرنسا أثناء الألعاب الأولمبية في مرسيليا لم يكن هناك سوى أجانب حتى أن لديهم برازيليين وأياً كان. لن يأتوا لأخذك، إلى المستشفى أعني.

ـ أقسم لي.

ـ المستشفى، ما دمت أنا هنا، مثل زُبّي، سيدة روزا.

ابتسمت تقريباً. أقول لكم، بيني وبينكم، إنها عندما تبتسم لا تغدو أجمل بل العكس لأن ابتسامتها تبرز كل شيء آخر حولها. الشعر هو ما نفتقر إليه بوجه خاص فلم يبق على رأسها سوى اثنتين وثلاثين شعرة، مثل المرّة السابقة.

ـ سيدة روزا، لماذا كذبت عليّ؟

بدت مندهشة حقاً.

ـ أنا؟ كذبت عليك؟

ـ لماذا قلت لي إن عمري عشر سنوات بينما كنت في الرابعة عشرة؟

لن تصدّقوني، لكنها احمرّت قليلاً.

ـ كنت أخاف أن تتركني، مومو، لذلك صغّرتك قليلاً. كنت رجلي الصغير دائماً. لم أحبّ أحداً غيرك على الإطلاق. لذلك عددت السنوات وكنت خائفة. لم أرد أن تصبح كبيراً بسرعة. سامحني.

فجأة عانقتها، وتركت يدها في يدي وأحطت كتفَيها بذراعي كما لو أنها امرأة. بعد ذلك جاءت السيدة لولا ومع كبير الإخوة زاووم فرفعاها، وجرّداها من ملابسها، ومدّداها على الأرض وغسلناها. ثم إن السيدة لولا سكبت عليها العِطر في كل مكان، وألبسناها باروكتها وثوبها الكيمونو، ومددناها على سريرها نظيفة تسرّ الناظرين.

غير أن السيدة روزا كانت تفسد أكثر فاكثر ولا أستطيع أن أقول لكم كم من الظلم أن نكون على قيد الحياة لا لشيء إلا لأننا نتألّم. جهازها العضويّ لم يعد يساوي شيئاً وإذا لم يكن هذا الشيء فذاك. كبار السِنّ الذين لا دفاع لهم هم الذين يتعرّضون للهجوم دائماً فهذا أسهل والسيدة روزا كانت ضحية لهذا الإجرام. جميع قطعها كانت سيئة، القلب الكبِد، الكليتان، القصبة الهوائية، لا شيء منها كان بحالة جيّدة. لم يكن في المنزل إلاّ أنا وهي ولا أحد في الخارج ما عدا السيدة لولا. في كل صباح كنت أساعد السيدة روزا على أن تمشي على قدميها للتريُّض من الباب إلى النافذة ذهاباً وإياباً معتمدة على كتفي لئلا تصدأ تماماً. كنت أضع لها من أجل المشي أسطوانة تحبها كثيراً وكانت أقلّ حزناً من المعتاد. أسطوانة اليهود حزينة دائماً ولا أدري لماذا. فنونهم الشعبية تقتضي ذلك. في معظم الأحيان كانت السيدة روزا تقول إن كل مصائبها تأتي من اليهود ولو لم تكن يهودية لما كان لديها عُشر ما عانته من متاعب.

أرسل السيد شارمت إكليلاً مأتمياً لأنه لم يعلم أن الميت هو السيد بوعفّا وظنّ أن السيدة روزا هي التي ماتت كما كان يتمنّى الجميع لخيرها. وكانت السيدة روزا مسرورة لأن ذلك أعطاها الأمل ولأنها كانت المرّة الأولى التي تتلقّى فيها زهوراً من أحد. وجلب الأخوة من قبيلة

السيد والومبا موزاً وفراخاً ومانغا وأرزاً كما هي العادة في بلادهم عندما تشهد العائلة حدثاً سعيداً. وجعلنا السيدة روزا تعتقد أن الأمر سينتهي قريباً فقلّ خوفها. كان هناك أيضاً الأب أندريه الذي زارنا، وهو الخوري الكاثوليكي للجالية الإفريقية في شارع بيسون، لكنه لم يأت لأداء دور الخوري بل جاء فحسب. لم يمهّد لعقد صداقة مع السيدة روزا وبقي محتشماً جداً. نحن أيضاً لم نخبره بشيء لأن الله، أنتم تعلمون كيف هو الحال معه. إنه يفعل ما يشاء لأن الحول والقوّة له.

مات الأب أندريه في ما بعد من قصور القلب لكنني أعتقد أن الأمر لم يكن شخصياً بل الآخرون هم الذين فعلوا به ذلك. لم أحدّثكم عنه قبل الآن لأننا لم نكن في دائرة اختصاصه أنا والسيدة روزا. كان قد أُرسل إلى بلفيل بحكم الضرورة للعناية بالعمال الكاثوليك الأفارقة ونحن لم نكن من هؤلاء ولا من أولئك. كان لطيفاً جداً ويبدو دائماً وكأنه مذنب إلى حد ما كما لو كان يعلم أن هناك ما يؤخِذ عليه. أقول لكم كلمة عنه لأنه كان رجلاً صالحاً وعندما مات ترك لي ذكرى طيّبة.

بدا أن الأب أندريه لن يمكث طويلاً فنزلت إلى الشارع مستطلعاً الأخبار بسبب قصة قذرة. كان الشباب جماعة الهيروين يقولون جميعاً «خرا» وكان طفل في الثامنة من عمره قد سمع أن الشباب يصنعون حِقناً من الخراء وهذا أمر مدهش فكان أن خَرِئ على ورقة جريدة وحقن نفسه بخراء حقيقي معتقداً أنها الحقنة الصحيحة ومات بسببها.

أوقف الماهوت وقوّادان آخران لأنهم ضلّلوه لكنني أرى أنهما لم يكونا مجبرين على تعليم طفل في الثامنة كيف يحقن نفسه.

عندما صعدت ثانية إلى المنزل وجدت مع الأب أندريه حاخام شارع شوم، بجانب بقالة الكاشير التي يملكها السيد رابين، ولا شك في أنه علم أن هناك خورياً يحوم حول السيدة روزا وخشِيَ أن تموت ميتةً

مسيحية. لم تطأ قدمه يوماً منزلنا علماً أنه كان يعرف السيدة روزا عندما كانت عاهرة. لم يبدر من الأب أندريه ولا الحاخام الذي كان له اسم آخر لا أتذكره ما يوحي بقرب مغادرتهما وظلاّ جالسين على كرسيين بجانب سرير السيدة روزا حتى أنهما تحدّثا عن حرب فيتنام لأنهما في أرض محايدة.

أمضت السيدة روزا ليلة طيبة أما أنا فلم أتمكن من النوم وبقيت مفتوح العينين في الظلام أفكر في أشياء مختلفة لا أدري ماذا يمكن أن تكون.

صباح اليوم التالي جاء الدكتور كاتز لإجراء فحص دوري للسيدة روزا وهذه المرة شعرت حالما خرجنا إلى الدرج أن المصيبة سوف تقرع بابنا.

ـ يجب نقلها إلى المستشفى، لا يمكنها البقاء هنا. سأستدعي سيارة إسعاف.

ـ ماذا سيفعلون لها في المستشفى؟

ـ سوف يقدّمون لها العناية المناسبة. يمكنها أن تعيش أيضاً لبعض الوقت وربما أكثر. عرفت أشخاصاً كانوا في مثل حالتها واستطاعوا أن يمدّدوا حياتهم لسنوات.

اللعنة، فكّرت، لكني لم أقل شيئاً أمام الدكتور. تردّدت لحظة ثم سألت:

ـ قُلْ لي، ألا تستطيع أنت أن تجهضها، دكتور بصفتكما يهوديين؟

بدا مندهشاً حقاً.

ـ كيف أجهضها؟ ماذا تقول؟

ـ أي نعم، تجهضها لمنعها من أن تتألّم.

هنا انفعل الدكتور كاتز انفعالاً شديداً حتى أنه اضطّر إلى الجلوس. أخذ رأسه بين يديه وأطلق سلسلة من التنهدّات رافعاً وجهه نحو السماء كالمعتاد.

- لا، ياصغيري مومو. لا يمكننا أن نفعل ذلك. القتل الرحيم محظور بشدّة وفقاً للقانون. نحن في بلاد متحضّرة هنا. أنت لا تعرف عن ماذا تتكلّم.

- بل أعرف، أنا جزائري وأعرف عن ماذا أتكلّم. هناك لديهم حق الشعوب المقدّس في تقرير مصيرها بنفسها.

- نظر إليّ الدكتور كاتز كما لو أنني أخفته فلزم الصمت فاغراً فاه. أحياناً يزعجني كثيراً هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يفهموا.

- قانون الشعوب المقدّس موجود، نعم أم قرف؟

- طبعاً موجود، قال الدكتور كاتز حتى أنه نهض عن الدرجة التي كان جالساً عليها تعبيراً عن الاحترام.

- طبعاً موجود، هو شيء عظيم وجميل، لكنني لا أرى ما العلاقة.

- العلاقة، أن هذا إن كان موجوداً فإن للسيدة روزا أيضاً حق الشعوب المقدّس في تقرير مصيرها، مثل الجميع. وإذا أرادت أن تُجهض فهذا حقّها. وعليك أنت أن تجهضها لأن ذلك يتطلب طبيباً يهودياً حتى لا يكون في ذلك معاداة للسامية. لا يجب أن تؤذوا بعضكم بعضاً أنتم اليهود. هذا مثير للاشمئزاز.

كانت أنفاس الدكتور كاتز تتلاحق حتى تقطّر العرق على جبينه لفرط ما أحسنت التعبير. كانت هذه المرّة الأولى التي أشعر فيها بأن لديّ أربع سنوات زائدة.

- أنت لا تعرف ماذا تقول، يا بُنيّ، أنت لا تعرف ماذا تقول.

ـ أنا لست ابنك كما أنني لست طفلاً على الإطلاق، أنا ابن عاهرة وأبي قتل أمي وعندما نعرف ذلك نعرف كل شيئ ولا نعود أطفالاً أبداً.

ارتجف الدكتور كاتز ونظر إليّ مندهشاً.

ـ من قال لك ذلك؟ من قال لك هذه الأشياء؟

ـ لا يهمّ من قال لي، دكتور كاتز، ففي بعض الأحيان من الأفضل أن يكون لك أب أقلّ بقدر الإمكان، صدّق خبرتي القديمة، وكما لي الشرف بأن أتكلم مثل السيد هاميل، صديق السيد فكتور هيغو، الذي لستَ على علم به. ولا تنظر إليّ هكذا، دكتور كاتز، لأنني لن أصاب بنوبة عنف فأنا لست طِبّنفسي، ولست وراثياً، ولن أقتل أمي العاهرة لأنها قُتلت بالفعل، لها الله فكم فعلت من خير على هذه الأرض، وأنا مصدر إزعاج لكم جميعاً، ما عدا السيدة روزا وهي الشيء الوحيد الذي أحببته هنا ولن أسمح بأن تصبح بطل العالم في الخضار كُرمى للطبّ وعندما أكتب البؤساء سأقول كل ما أريد دون أن أقتل أحداً لأنه الشيء نفسه، ولو لم تكن يهودياً طاعناً في السِنّ من دون قلب وكنت يهودياً حقيقياً بقلب حقيقي بدلاً من العضو لقمت بعمل طيّب فأجهضت السيدة روزا فوراً لإنقاذها من الحياة التي مارسها في المؤخرّة أب لا نعرفه وليس له وجه حتى أنه يخفيه ولا يُسمح له بتمثيله لأن لديه مافيا كاملة تمنعه من أن يؤخذ وهذا إجرام بحق السيدة روزا وإدانة للأطباء الحمقى لرفضهم المساعدة...

كان الدكتور كاتز شاحباً تماماً وكان هذا ملائماً له بلحيته الجميلة البيضاء وعينيه المفؤودتين فتوقفت لأنه لو مات لما كان قد سمع شيئاً بعد مما سأخبره به ذات يوم. لكنّ ركبتيه بدأتا ترتخيان فساعدته على الجلوس مرّة أخرى على الدرجة لكن دون أن أسامحه في شيء ولا في أحد. وضع يده على قلبه ونظر إليّ كما لو أنه أمين صندوق مصرف

ويرجوني ألاّ أقتله. لكنني شبكت يديّ على صدري فقط وشعرت كأنني شعب يمتلّك الحق المقدّس في تقرير مصيره.

- صغيري مومو، صغيري مومو.

- لا يوجد مومو صغير، إمّا نعم وإمّا خرا؟

- لا يحقّ لي أن أفعل ذلك...

- لا تريد أن تجهضها؟

- هذا غير ممكن، القتل الرحيم يُعاقِب عليه بشدّة خصوصاً عندما لا يكون هناك ما يُعاقَب عليه.

أضحكني. وددت أن أعرف ما الذي لا يُعاقَب عليه بشدّة، خصوصاً عندما لا يكون هناك ما يُعاقَب عليه.

- يجب وضعها في المستشفى، هذا شيء إنساني...

- هل يأخذونني معها إلى المستشفى؟

- أنت صغير طيّب، يا مومو، لا، لكن يمكنك أن تزورها غير أنها لن تتعرف إليك عمّا قريب...

حاول أن يتحدّث عن شيء آخر.

- وبالمناسبة، ما الذي سيحدث لك، مومو؟ أنت لا تستطيع أن تعيش وحيداً.

- لا تقلق بشأني، أعرف الكثير من العاهرات في بيغال، وتلقيت بالفعل عِدّة مقترحات.

فتح الدكتور كاتز فمه ونظر إليّ، ثم ابتلع ريقه وتنهّد، كما يفعل الجميع. فكّرتُ. يجب أن تكسب الوقت، فهذا هو الشيء الذي عليك أن تفعله دائماً.

- إسمعْ، دكتور كاتز، لا تتصل بالمستشفى، أعطني بضعة أيام

أيضاً، ربّما ماتت وحدها ثم عليّ أن أتدبّر أمري وإلاّ فسوف يدفعونني إلى المساعدة.

تنهّد مرّة أخرى. هذا الرجل كلّما تنفّس تنهّد. ضقت ذَرعاً بالرجال الذين يتنفّسون.

نظر إليّ، لكن بطريقة مختلفة.

ـ لم تكن قطّ طفلاً كالآخرين، مومو، ولن تكون أبداً رجلاً كالآخرين لطالما عرفتُ ذلك.

ـ شكراً، دكتور كاتز، لطفٌ منك أن تقول لي ذلك.

ـ هذا ما أعتقده حقاً، ستكون مختلفاً على الدوام.

فكّرت لحظة.

ـ ربما لأن لي أباً طِبّنفسي.

بدا الدكتور كاتز مريضاً وفي حالة سيئة جداً.

ـ أبداً، مومو. ليس هذا ما أردت قوله، أنت لا تزال أصغر من أن تفهم، لكن...

ـ لسنا صغاراً أبداً من أجل لا شيء، دكتور، صدّق خبرتي القديمة.

بدا مندهشاً.

ـ أين تعلمت هذا التعبير؟

ـ صديقي السيد هاميل يقول ذلك دائماً.

ـ آه، حسناً. أنت صبيّ ذكيّ جداً، وحسّاس جداً، بل شديد الحساسية. لطالما قلت للسيدة روزا إنك لن تكون أبداً مثل الجميع، في بعض الأحيان ينشأ عن ذلك شعراء كبار، وكتاب، وفي أحيان أخرى...

تنهّد.

ـ وفي أحيان أخرى، ينجم عن ذلك متمرّدون. لكن اطمئنّ، هذا لا يعني أبداً أنك لن تكون طبيعياً.

ـ آمل أن لا أصبح طبيعياً أبداً، دكتور كاتز، الأنذال وحدهم هم طبيعيون دائماً.

ـ طبيعيون.

ـ سأفعل كل شيء لكي لا أكون طبيعياً، دكتور...

نهض مرّة أخرى واعتقدت أنها اللحظة المناسبة لأسأله عن شيء، لأنه بدأ يقلقني حقاً.

ـ قُلْ لي، دكتور، أنت متأكّد أن عمري أربعة عشر عاماً، وليس عشرين أو ثلاثين أو أكثر؟ في البداية قيل لي عشرة ثم أربعة عشر. ألن يكون لديّ أفضل بكثير أحياناً؟ لست قزماً، هذا الاسم اللعين؟ ليس لديّ أدنى رغبة في أن أكون قزماً، دكتور، حتى إن كان الأقزام طبيعيين ومختلفين.

ابتسم الدكتور كاتز في لحيته وبدا سعيداً بإعطائي أخيراً خبراً جيداً حقيقياً.

ـ لا، لستَ قزماً، مومو، أعطيك كلمتي الطبية. عمرك أربع عشرة سنة لكن السيدة روزا ارادت أن تحتفظ بك أطول وقت ممكن، وكانت تخشى أن تتركها لذلك جعلتك تعتقد أنك في العاشرة فقط، ربما كان عليّ أن اخبرك بذلك في وقت مبكر، لكن...

ابتسم فبدا بذلك أكثر حزناً.

ـ ... لكن لما كانت هذه قصة حب جميلة فإني لم أقل شيئاً. بخصوص السيدة روزا سوف أنتظر بضعة ايام لكنني أعتقد أنه لا بد من وضعها في المستشفى، لا يحقّ لنا تقصير معاناتها كما شرحت لك، وفي الانتظار اجعلها تقوم ببعض التمارين، أوقفها على قدميها، قلّبها،

ساعدها على أن تقوم بنزهات صغيرة في الغرفة فمن دون ذلك سوف تتعفّن في كل مكان وستكون فيها دمامل. يجب تقليبها قليلاً، كل يومين أو ثلاثة وليس أكثر.

استدعيت أحد الإخوة زاووم فأنزله على كتفيه.

لايزال الدكتور كاتز حيّاً وسأذهب لأراه في يوم من الأيام.

بقيت بعض الوقت جالساً على الدرج وحدي لأحظى بالهدوء. على أنني كنت سعيداً لأنني لم أكن قزماً. وهذا شيء مهمّ حقاً. ذات مرّة رأيت صورة سيد مقعد بعيش من دون ذراعين ولا ساقين وغالباً ما أفكّر فيه لكي أشعر بأنني أفضل حالاً منه ولا يسرّني أن لا تكون لديّ ذراعان وساقان. ثم فكّرت في التمارين التي يجب القيام بها لتقليب السيدة روزا قليلاً وذهبت للبحث عن السيد والومبا كي يساعدني لكنه كان يزاول عمله في جمع القُمامة. مكثت طوال اليوم مع السيدة روزا التي بصّرت بالورق لمعرفة مستقبلها. عندما عاد السيد والومبا من عمله صعد مع رفاقه وأمسكوا بالسيدة روزا وجعلوها تقوم ببعض التمارين. في البداية نزّهوها في الغرفة لأن ساقيها كانتا لا تزالان قادرتين على الخدمة ثم مدّدوها على غطاء وأرجحوها قليلاً لكي يقلّبوها من الداخل. وأخيراً ضحكوا لأن رؤية السيدة روزا كدُمية كبيرة تبعث على السرور وبدا الأمر وكأنهم يلعبون بشيء. كان ذلك مفيداً جداً لها حتى أنها قالت كلمة لطيفة لكل منهم. ثم إنهم أرقدوها وأطعموها وطلبت هي مرآة. ولمّا رأت وجهها في المرآة ابتسمت وانشغلت قليلاً بترتيب الخمس وثلاثين شعرة التي بقيت على رأسها. وهنّأناها جميعاً بمظهرها الجميل. ثم إنها أخذت تتبرج إذ إنها ما زالت محتفظة بأنوثتها ويمكن لأي إنسان أن يكون قبيحاً ويحاول أن يرتّب أمره نحو الأفضل. من المؤسف أن السيدة روزا لم

تكن جميلة لأنها كانت مؤهّلة لذلك وبإمكانها أن تكون امرأة جميلة جدّاً. كانت تبتسم في المرآة وكنا جميعاً سعداء لأنها لم تكن مثيرة للاشمئزاز.

بعد ذلك طها لها الإخوة والومبا أرزّاً مفلفلاً وقالوا إنها بحاجة إلى الفلفل الحارّ لكي يجري دمها بسرعة أكبر. في الأثناء وصلت السيدة لولا وكأن الشمس هي التي تدخل مع هذا السنغالي دائماً. الشيء الوحيد الذي كان يحزنني مع السيدة لولا هو عندما كانت تحلم بقطع كل أعضائها الأمامية لكي تصبح امرأة كاملة كما كانت تقول. أرى أن هذا من قبيل المبالغة ولطالما خشيت أن تؤذي نفسها.

قدّمت السيدة لولا أحد فساتنيها لليهودية لأنها تعرف مدى أهمية الحالة النفسية لدى النساء، كذلك أحضرت شمبانيا وليس هناك ما هو أفضل من الشمبانيا. سكبت العطر على السيدة روزا التي كانت بأمسّ الحاجة إليه لأنها كانت تجد صعوبة في سدّ فتحاتها.

السيدة لولا ذات طبع مرح لأن شمس إفريقيا كانت قد باركتها بهذا المعنى وكان من دواعي سروري أن أراها جالسة هناك وقد شبكت ساقيها على السرير بأحدث أناقة. السيدة لولا جميلة جداً كرجل ما عدا صوتها العائد إلى الزمن الذي كانت فيه بطل ملاكمة من الوزن الثقيل ولا تستطيع معه شيئاً لأن للأصوات علاقة بالخصيتين وكانت تلك مأساتها الكبرى في الحياة. كان معي أرثور المِظلة الذي لم أرد الانفصال عنه فجأة على الرغم من السنوات الأربع التي حصلت عليها دفعة واحدة. كان من حقي أن اعتاد عليها لأن الآخرين يحتاجون إلى وقت أطول بكثير لكي يكبروا عِدّة سنوات ولا داعي للعجلة.

سرعان ما استعادت السيدة روزا قواها واستطاعت أن تنهض وتمشي وحدها وكان ذلك دليلاً على الركود والأمل. عندما ذهبت السيدة لولا

إلى عملها مع حقيبة يدها تناولنا طعاماً خفيفاً وتذوّقت السيدة روزا الدجاجة التي أرسلها السيد جمالي البقّال المعروف. السيد جمالي نفسه كان قد مات لكن كانت تربطه علاقات طيبة معها في حياته ونابت عنه عائلته. بعد ذلك شربت قليلاً من الشاي مع المربّى وبدت حالمة فخفت معتقداً أنها دخلت في طور جديد من البلاهة. لكننا هززناها كثيراً في النهار حتى استعاد دمها وظيفته ووصل إلى الرأس كما توقّعنا.

- مومو، قُلْ لي الحقيقة كاملة.

- سيدة روزا، الحقيقة الكاملة لا أعرفها، حتى أنني لا أعرف مَن يعرفها.

- ماذا قال لك الدكتور كاتز؟

- قال إنه يجب أن نضعك في المستشفى وهناك سوف يعتنون بك لكي يمنعوك من أن تموتي. يمكنك أن تعيشي وقتاً طويلاً أيضاً.

انقبض قلبي لإخبارها بأشياء كهذه حتى أنني حاولت أن ابتسم كما لو أنني أبلغتها خبراً جيداً.

- ماذا يُسمّى هذا عندهم، أعني مرضي؟

بلعت ريقي.

- ليس السرطان، سيدة روزا، أقسم لك.

- مومو، ماذا يُسمّى هذا عند الأطباء؟

- يمكنك أن تعيشي هكذا مدة طويلة.

- كيف، هكذا؟

سكتّ.

- مومو، أنت لا تريد أن تكذب عليّ؟ أنا عجوز يهودية، فعلوا بي كل ما يمكن فعله لأحد...

قالت مَنش وهذه كلمة تدلّ على رجل أو امرأة لا فرق في اللغة اليهودية.

- أريد أن أعرف. هناك أشياء لا يحق لنا أن نفعلها لـمنش. أعلم أن هناك أياماً لا أعود أملك رأسي فيها.

- هذا لا شيء، سيدة روزا، يمكننا أن نعيش بشكل جيّد للغاية هكذا.

- كيف هكذا؟

لم أتمالك نفسي. كان ثمة دموع تخنقني في الداخل. ألقيت بنفسي نحوها فأخذتني بين ذراعيها وصرختُ: هناك يجعلونك تعيشين مثل خُضار.

لم تقل شيئاً، غير أنها تنفّست قليلاً.

- متى سيأتون لأخذي؟

- لا أعرف، بعد يوم أو يومين، الدكتور كاتز يحبّك كثيراً، سيدة روزا. قال لي إنه سيفصل لنا السكّين عن الحنجرة فقط.

- لن أذهب، قالت السيدة روزا.

- ما عدتُ أعرف ماذا أفعل، سيدة روزا. كلهم أنذال. لا يريدون إجهاضك.

بدت هادئة للغاية. غير أنها طلبت أن تغتسل لأنها فعلتها تحتها.

أرى الآن وأنا أفكر فيها أنها كانت جميلة جداً. يتعلّق الأمر بطريقة تفكيرنا في شخص ما.

- إنه الغيستابو، قالت.

ثم لم تقل شيئاً بعد.

في الليل شعرتُ بالبرد فنهضت ووضعت عليها غطاء ثانياً.

استيقظت مسروراً في اليوم التالي. حين أستيقظ لا أفكّر في شيء أولاً وهكذا أتمتع بوقتي. كانت السيدة روزا حيّة حتى أنها ابتسمت لي لكي تُظهر أن كل شيء على ما يُرام، غير أنها كانت تشكو من كبدها المعتّل ومن كُليتها اليُسرى التي ينظر إليها الدكتور كاتز بشكل سيئ للغاية. لديها أيضاً تفاصيل أخرى لا تعمل لكن ليس لي أن أخبركم بحالتها فأنا لا أعرف شيئاً عنها. كانت الشمس مشرقة في الخارج فأسدلت الستائر لكنها استاءت لأنها تحب كثيراً أن ترى نفسها في الضوء وآلمها ذلك. تناولت المرآة نفسها وقالت:

- كم أصبحت قبيحة، مومو.

غضبت لأنه لا يحق لنا أن نقول ما يسيء لامرأة عجوز ومريضة. أرى أن ليس بإمكاننا أن نحكم على الكل بنفس العين، مثل فرس النهر أو السلاحف التي ليست كالجميع.

أغمضت عينيها وسال دمعها ولكن لست أدري أبكت حقاً أم ارتخت عضلاتها.

- أنا فظيعة، أعلم ذلك جيّداً.

- سيدة روزا، هذا لأنك لا تشبهين الآخرين فقط.

نظرت إليّ.

- متى سيأتون لأخذي؟

- الدكتور كاتز...؟

- لا أريد أن أسمع شيئاً عن الدكتور كاتز إنه رجل صالح لكنه لا يعرف النساء. كنت جميلة، مومو، وكان لديّ أفضل الزبائن. كم بقي لنا من المال؟

ـ السيدة لولا تركت لي مئة فرنك، وسف تعطينا المزيد. إنها تكدّ جيّداً.

ـ أنا لم أعمل قطّ في غابة بولونيا. لا مجال للاغتسال هناك. في الهال كان لدينا فنادق جيّدة مع النظافة ثم إن الوضع في بولونيا خطير بسبب المهووسين.

ـ المهوسوون، السيدة لولا تكسر رؤوسهم، تعلمين أنها كانت بطل ملاكمة.

ـ إنها قِدّيسة، لا أدري كيف كنا سنصبح من دونها.

بعد ذلك أرادت أن تتلو صلاة يهودية كما علّمتها أُمّها. خفت كثيراً وظننت أنها ستسقط مجدّداً في الطفولة لكنني لم أشأ إزعاجها. غير أنها لم تتمكّن من تذكّر الكلمات بسبب رخاوة رأسها. كانت قد علّمت موسى الصلاة وتعلّمتها أنا أيضاً لأنني كنت أستاء منهما إذا فعلا شيئاً بمعزل عني.

رتّلتُ:

ـ *شما إسرائيل أدونوي إلهينو أدنوى أكهوت بوروخ شين كويت مالهوسيه لوئليم بَووت...*

ردّدت ذلك معي ثم ذهبتُ إلى المرحاض وبصقتُ تفو تفو كما يفعل اليهود لأنه لم يكن ديني. طلبت أن ترتدي ملابسها لكنني لم أستطع مساعدتها وحدي فذهبت إلى مساكن السود حيث وجدت السيد والومبا والسيد سومورو والسيد تاني وآخرين لا يمكنني أن أذكر أسماءهم لأن الجميع لطفاء هناك.

حالما صعدنا رأيت السيدة روزا وقد عادت بلهاء مرّة أخرى وأبيضّت عيناها واللعاب يسيل من فمها المفتوح، كما حصل لي الشرف بالفعل ولا أريد العودة إليه. تذكرت في الحال ما كان الدكتور كاتز قاله لي بشأن التمارين التي يجب القيام بها لتقليب السيدة روزا بغية تسريع سريان الدم في جميع الأماكن حيث تحتاج إليه. مدّدنا بسرعة السيدة روزا على غطاء ورفعها إخوة السيد والومبا بقوّتهم التي يُضرب بها المثل وصاروا يقلّبونها في الهواء لكن في هذه الأثناء وصل الدكتور كاتز محمولاً على ظهر السيد زاووم الكبير مع حقيبة صغيرة تحتوي على أدواته الطبيّة. كاد يطير صوابه حتى قبل أن ينزل عن ظهر السيد زاووم فما رآه لم يكن أبداً ما كان يريد أن يقوله. لم أرَ قطّ الدكتور كاتز على هذه الدرجة من الغضب حتى أنه اضطرّ إلى الجلوس واضعاً يده على قلبه لأن جميع اليهود هنا مرضى، وجاؤوا إلى بلفيل منذ زمن بعيد قادمين من أوروبا وكانوا طاعنين في السِنّ ومتعبين لذلك توقّفوا هنا ولم يتمكنوا من الذهاب أبعد. وبّخني بكلمات فظيعة ونعتنا جميعاً بالوحوش ما أغضب السيد والومبا الذي أبدى ملاحظات صائبة فاعتذر الدكتور كاتز قائلاً إنه لم يقصد إهانتهم وأنه لم يوصِ بقذف السيدة روزا في الهواء مثل فطيرة بل جعلها تمشي هنا وهناك بخطوات صغيرة وبكل احتراس. وسارع السيد والومبا

ومواطنوه إلى وضع السيدة روزا على كنبتها إذ كان ينبغي تغيير الأغطية بسبب حاجاتها الطبيعية.

ـ سأتلفن إلى المستشفى، قال الدكتور كاتز بلهجة قاطعة: سأطلب سيارة إسعاف فوراً لأن حالتها تتطلّب ذلك وهي تحتاج إلى عناية دائمة.

انتحبتُ لكنني لاحظت أنني كنت أتكلم لكي لا أقول شيئاً. حينها جاءتني فكرة مبتكرة لأنني كنت قادراً على كل شيء.

ـ دكتور كاتز، لا يمكننا وضعها في المستشفى. ليس اليوم. اليوم لديها عائلة.

بدا مندهشاً.

ـ كيف، لديها عائلة؟ ليس لديها أحد في العالم.

ـ لديها عائلة في إسرائيل و...

بلعتُ ريقي.

ـ سيصلون اليوم.

لزم الدكتور كاتز دقيقة صمت على ذكرى إسرائيل. لم يستطيع تصديق ذلك.

هذا شيء لم أعرفه.

بدا الاحترام في صوته، لأن إسرائيل تعني شيئاً في نظر اليهود.

ـ لم تقل لي ذلك أبداً...

استعدت الأمل. كنت جالساً في زاوية مع معطفي ومِظلّتي أرثور فأخذت قبّعته المستديرة وارتديتها من أجل البركة.

ـ سيأتون اليوم لأخذها. سيأخذونها إلى إسرائيل. كل شيء مرتّب. الروس أعطوها التأشيرة.

بدا الدكتور كاتز مذهولاً.

ـ كيف، الروس؟ ماذا تقول؟

تباً، شعرت بأنني قلت شيئاً منحرفاً غير أن السيدة روزا غالباً ما كانت تردّد أنه لا بد من الحصول على تأشيرة روسية للذهاب إلى إسرائيل.

ـ أخيراً، أنت ترى ما أعنيه.

ـ أنت تخلط، يا صغيري مومو، لكنني أرى... إذاً سيأتون لأخذها؟

ـ نعم، لقد علموا أنها لم تعد تملك عقلها لذلك سيأخذونها للعيش في إسرائيل، سيستقلّون الطائرة غداً.

كان الدكتور كاتز في غاية العجب وصار يداعب لحيته، وكانت تلك أفضل فكرة راودتني على الإطلاق، وللمرة الأولى كان لديّ أربع سنوات زائدة حقاً.

ـ إنهم أثرياء جداً، لديهم مخازن ومحرّكات. إنهم...

قلت لنفسي تباً يجب أن لا أبالغ كثيراً.

ـ ... لديهم كل ما يلزم، ماذا.

ـ تس، تس، نطق الدكتور كاتز هازاً رأسه. هذا خبر جيّد، المرأة المسكينة عانت كثيراً في حياتها... لكن لماذا لم يُعلموها بوجودهم من قبل؟

ـ كتبوا إليها أن تأتي لكن السيدة روزا لم ترد أن تتخلّى عني. السيدة روزا وأنا لا غنى لأحدنا عن الآخر. نحن كل ما لدينا في العالم. لم ترد التخلي عني وما زالت ترفض حتى الآن. بالأمس توسّلتُ إليها قائلاً سيدة روزا اذهبي إلى عائلتك في إسرائيل. سوف تموتين بهدوء. سيعتنون بك هناك. أنت هنا لا شيء، هناك أنت شيء كثير.

كان الدكتور كاتز ينظر إليّ فاغراً فاه من الدهشة. حتى أن الانفعال بدا في عينيه المبلّلتين.

ـ هذه المرّة الأولى التي يرسل فيها عربي يهودياً إلى إسرائيل، قال، وما كاد يتكلّم تحت تأثير الصدمة.

ـ لم ترد الذهاب بدوني.

بدا الدكتور كاتز مستغرقاً في التفكير.

ـ ألا يمكنكما الذهاب معاً؟

تلقيت ضربة، كنت سأعطي أيّ شيء للذهاب إلى أيّ مكان.

ـ قالت لي السيدة روزا إنها سوف تستعلم عن ذلك هناك.

كدت أفقد صوتي ولم أعرف ماذا أقول.

ـ أخيراً، قبِلَتْ. سيأتون اليوم لأخذها وغداً يستقلّون الطائرة.

ـ وأنت، يا صغيري محمد؟ ما الذي سيحدث لك؟

ـ وجدت أحداً هنا، في انتظار أن تستدعيني.

ـ أن... ماذا؟

لم أقل شيئاً بعد ذلك. كنت في ورطة حقيقية ولا أعرف كيف أخرج منها.

كان السيد والومبا وجميع أقربائه مسرورين جداً لأنهم رأوا أنني رتّبت كل شيء. وكنت لا أزال جالساً على الأرض مع مظلّتي أرثور وما عدت أعرف أين كنت. ما عدت أعرف ولا أريد حتى أن أعرف.

نهض الدكتور كاتز.

ـ حسناً، هذا خبر جيّد. السيدة روزا ما زال بإمكانها العيش لفترة طويلة حتى ولو لم تعد تعرف شيئاً. إنها تتطوّر بسرعة. لكن سيكون لديها لحظات من الوعي وستكون مسرورة بأن تنظر حولها وترى أنها في منزلها. قل لذويها أن يمرّوا لرؤيتي فأنا ما عدت قادراً على الانتقال كما تعلم.

وضع يده على رأسي. غريب أمر أولئك الذين يضعون أيديهم على رأسي. هذا يجعلهم يشعرون بالتحسّن.

ـ إذا استعادت السيدة روزا وعيها قبل مغادرتها قل لها إنني أهنّئها.

ـ هو ذاك، سأقول لها *مازلتوف*.

نظر إليّ الدكتور كاتز مفتخراً.

ـ لا بدّ أنك العربي الوحيد في العالم الذي يتكلّم اليديشية، يا صغيري مومو.

ـ نعم، *ميتورنيخدت زورجن*.

إذا كنتم لا تعرفون اللغة اليهودية فهذا يعني عندهم لا يمكننا الشكوى.

ـ لا تنسَ أن تقول للسيدة روزا إنني سعيد من أجلها، كرّر الدكتور كاتز وهذه آخر مرّة أحدثكم فيها عنه لأن هذه هي الحياة.

كان السيد زاووم الأكبر ينتظره بتهذيب على الباب لإنزاله. ثم إن السيد والومبا وقبيلته مدّدوا السيدة روزا على سريرها نظيفة تماماً وغادروا أيضاً. أما أنا فكنت هناك مع مظلّتي أرثور ومِعطفي وأنظر إلى السيدة روزا مستلقية على ظهرها مثل ضفدعة ضخمة لم تُخلق لذلك.

ـ مومو...

ـ نعم، سيدة روزا.

ـ سمعتُ كل شيء.

ـ أعرف، رأيتك عندما كنت تنظرين.

ـ إذاً، سأذهب إلى إسرائيل؟

لم أقل شيئاً. حنيتُ رأسي لكي لا أرها لأننها كلّما تبادلنا النظر كان ذلك يؤلمنا.

ـ حسناً فعلت، يا صغيري مومو، سوف تساعدني.

ـ طبعاً، سوف أساعدك، سيدة روزا، لكن ليس بعد الآن.

ثم أنني بكيت قليلاً حتّى.

أمضت يوماً طيّباً ونامت جيّداً لكن وضعها ازداد سوءاً مساء اليوم التالي عندما جاء وكيل البناية لأننا لم ندفع الإيجار منذ أشهر. قال لنا إن من المعيب الاحتفاظ في الشقّة بعجوز مريضة لا أحد يهتّم بها ويجب وضعها في مأوى لأسباب إنسانية. كان الرجل طويل القامة أصلع بعينين أشبه بصرصارين وقد غادر قائلاً إنه سيتلفن إلى مستشفى الرحمة من أجل السيدة روزا وإلى المساعدة العامة من أجلي. كان له أيضاً شاربان ضخمان يهتزّان. هبطت الدرج مسرعاً وأدركت الوكيل وهو في مقهى السيد إدريس يريد أن يتلفن. قلت له إن عائلة السيدة روزا ستصل في اليوم التالي لأخذها إلى إسرائيل وسأذهب معها ويمكنه استعادة الشقّة. خطرت لي فكرة عامة وقلت له إن عائلة السيدة روزا ستدفع إيجار الأشهر الثلاثة المستحقّة له أما المستشفى فلن تدفع له شيئاً. أُقسم لكم أن السنوات الأربع التي استعدتها أحدثت فرقاً والآن سرعان ما اعتدت على التفكير كما يجب. حتى أنني حذّرته من أنه إذا وضع السيدة روزا في المستشفى ووضعني في المساعدة فسيجد نفسه ملاحقاً من جميع اليهود وجميع العرب في بلفيل لأنه منعنا من العودة إلى أرض أجدادنا. وبذلت جهدي متوعّداً إياه بأنه سينتهي به الأمر مع كلاويه في فمه لأن هذا ما يفعله الإرهابيون اليهود دائماً وليس أفظع منهم إلا إخواني العرب الذين يكافحون لامتلاك حق تقرير مصيرهم بأنفسهم والعودة إلى

بلادهم، ومع السيدة روزا ومعي سيجد الإرهابيين اليهود والعرب معاً يناصبونه العداء وأن بإمكانه أن يحسب حساب خصيتَيه. كان الجميع ينظرون إلينا وكنت راضياً جداً عن شكلي الأولمي حقاً. رغبت في قتل هذا الرجل وكنت يائساً ولم يسبق لأحد ممن في المقهى أن رآني هكذا. كان السيد إدريس يصغي ونصح الوكيل بعدم التورّط في مشاكل بين اليهود والعرب لأن ذلك يمكن أن يكلّفه غالياً. السيد إدريس تونسي لكن لديهم عرب هناك أيضاً. بدا الوكيل شاحباً جداً وقال لنا إنه لم يعلم بأننا سنعود إلى بلادنا وأنه أوّل مَن يسرّه ذلك. حتى أنه سألني إن كنت أريد أن أشرب شيئاً. كانت تلك المرّة الأولى التي يقدّم لي فيها رجل شراباً. طلبت زجاجة كوكا وقلت لهم مرحباً وصعدت إلى الطابق السادس. لم يعد لدينا وقت نُضيّعه.

وجدت السيدة روزا في حالتها المعتادة، لكنني لاحظت أنها كانت خائفة وهذه علامة ذكاء. حتى أنها نطقت باسمي وكأنها تطلب النجدة.

- أنا هنا، سيدة روزا، أنا هنا.

حاولت أن تقول شيئاً وتحرّكت شفتاها واهتزّ رأسها وبذلت جهداً لكي تكون كائناً بشرياً. لكن كل ما نتج عن ذلك هو أن عينيها أصبحتا أكبر من المعتاد وبقيَ فمها فاغراً ويداها على ذراعيْ كنبتها وهي تنظر إلى الأمام كما لو أنها تسمع رنين الجرس فعلاً.

- مومو...

- كوني هادئة، سيدة روزا، لن أدعك تصبحين بطل العالم للخضار في المستشفى...

لا أدري إن كنت قد أخبرتكم أن السيدة روزا كانت تحتفظ دائماً بصورة السيد هتلر تحت السرير وعندما تسوء الحالة جداً تخرجها وتنظر إليها فتشعر بتحسّن على الفور. أخذتُ الصورة من تحت السرير ووضعتها تحت أنف السيدة روزا.

- سيدة روزا، أنظري مَن هنا...

هززتها فتنهّدت قليلاً، ورأت وجه السيد هتلر أمامها وعرفته فوراً حتى أنها أطلقت صرخة أنعشتها تماماً وحاولت أن تنهض.

- عجّلي، سيدة روزا، يجب أن نذهب...

- وصلوا؟

- ليس بعد، لكن يجب أن نذهب من هنا. سنذهب إلى إسرائيل، هل تذكرين؟

بدأت تعمل، لأن الذكريات لدى المسنّين هي الأقوى.

- ساعدني، مومو...

- على مهل، سيدة روزا، لدينا متّسع من الوقت...

وجدت صعوبة في إلباسها فضلاً عن أنها أردات أن تكون جميلة فأمسكتُ لها المرآة لكي تتبرّج. لا أرى لماذا أردات أن تضع أفضل ما لديها من المساحيق لكن الأنوثة لا يمكن الجدال بشأنها. كان لديها كميّة من الأسمال في خزانة الملابس لا تشبه شيئاً معروفاً وكانت قد اشترتها من سوق البراغيث عندما كان لديها بعض المال ولكن ليس لاستعمالها بل لتحلم بها. الشيء الوحيد الذي كانت تستطيع أن تدخل فيه بكاملها هو الكيمونو ثوبها الياباني بعصافيره وزهوره وشمسه المشرقة وكان أحمر برتقالياً. ثم لبست باروكتها وأرادت أيضاً أن ترى نفسها في مرآة خزانة الملابس لكنني لم أدعها تفعل ذلك وهذا أفضل.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً عندما تمكّنا من بلوغ الدرج. لم أعتقد يوماً أنها ستتمكن من ذلك. ولم أعرف كم كان لا يزال لدى السيدة روزا من القوة لكي تذهب لتموت في جُحْرها اليهودي، ولم أعتقد ذلك قطّ. لم أفهم أبداً لماذا رتبت جحرها ولماذا كانت تنزل إليه من وقت إلى آخر فتجلس وتنظر حولها وتتنفّس. الآن فهمت. آنذاك لم أكن قد عشت لأمتلك ما يكفي من الخبرة وحتى اليوم الذي أتحدّث إليكم فيه، أعلم أنه عبث، ولا يزال لديكم شيء لتتعلّموه.

كان زرّ مؤقت الضوء لا يعمل بشكل جيّد وينطفئ طوال الوقت. في

الطابق الرابع أحدثنا ضجّة فخرج السيد زيدي الذي كان قد جاءنا من وجْدة ليرى ما حدث وحين رأى السيدة روزا بقي فاغر الفم كما لو أنه لم يَرَ قط كيمونو يابانياً وسرعان ما أغلق الباب. في الثالث صادفنا السيد ميمون الذي يبيع الفستق عبيد والكستناء في مونمارتر وسيعود قريباً إلى المغرب بعد أن كوّن ثروة. توقّف ورفع عينيه وسأل.

ـ ما هذا، يا إلهي؟

ـ هذه السيدة روزا التي تعور إلى إسرائيل.

فكّر، ثم فكّر، وأراد أن يعرف، وسأل بصوت لا يزال مذعوراً:

ـ لماذا ألبسوها على هذا النحو؟

ـ لا أعرف، سيد ميمون، لستُ يهودياً.

ابتلع السيد ميمون الهواء.

ـ أعرف اليهود، إنهم لا يلبسون هكذا، لا أحد يلبس هكذا، هذا غير ممكن.

تناول منديله ومسح به جبهته ثم ساعد السيدة روزا على هبوط الدرج لأنه رأى أن هذا الشيء كثير على رجل واحد. في الأسفل أراد أن يعرف أين أمتعتها وتساءل ألن تصاب بلفحة برد وهي تنتظر التاكسي حتى أنه غضب وبدأ يزعق قائلاً إنه لا يحقّ لنا أن نرسل امرأة في مثل حالتها إلى اليهود. قلت له أن يصعد إلى السادس ويتكلّم مع عائلة السيدة روزا التي تهتّم بالأمتعة فذهب قائلاً إن آخر ما يريد أن يهتّم به هو إرسال اليهود إلى إسرائيل. بقينا وحدنا في الأسفل وكان علينا أن نعجّل إذ لا يزال أمامنا أن نهبط نصف طابق للوصول إلى القبو.

عندما وصلنا إلى القبو انهارت السيدة روزا على كنبتها واعتقدتُ أنها ستموت. أغمضت عينيها ولم يكن لديها من الأنفاس ما يكفي لكي ترفع

صدرها. أضأت الشموع وجلست على الأرض بجانبها وأمكست يدها. تحسّنت حالتها قليلاً وفتحت عينيها ونظرت حولها وقالت:

ـ كنت أعلم أنني سأحتاج إليه يوماً ما، مومو، الآن سأموت بهدوء.

حتى أنها ابتسمت لي.

ـ لا أريد أن أحطّم الرقم القياسي للخُضار.

ـ إن شاء الله.

ـ نعم، إنشاء الله، مومو، أنت صغير طيّب، كنا دائماً على ما يرام معاً.

ـ هوذاك، سيدة روزا، وهذا أفضل من لا أحد.

ـ الآن مكّني من ترتيل صلاتي، مومو، ربما لن أتمكّن من ذلك بعد الآن.

ـ *شما إسرائيل أدنوى...*

ردّدت الكل حتى *لويلم* بويت وبدت راضية. لا يزال أمامها ساعة كاملة لكن بعد ذلك ساءت حالتها مرّة أخرى. في الليل تمتمت باللغة البولونية بسبب طفولتها هناك وجعلت تردّد اسم شخص، يدعى بلومنتاغ لعلّها عرفته كقيّاد عندما كانت امرأة. أعلم الآن أن الكلمة تُلفظ قوّاداً لكنني اعتدت، بعد ذلك لم تقل شيئاً على الإطلاق وبقيت هناك بهيئة ذاهلة تحدّق في الجدار المقابل وتفعلها تحتها.

هناك شيء أريد أن أقوله لكم: شيء كان يجب أن لا يكون. أقول ذلك كما أفكّر فيه. لم أفهم أبداً لماذا يُسمح بالإجهاض للشابات فقط دون العجائز. أنا أرى أن الرجل الذي حطّم الرقم القياسي للخُضار في أميركا كانت معاناته أسوأ من معاناة المسيح لأنه بقي على صليبه نَيّفاً وسبعة عشر عاماً. لكنني أرى أن ليس هناك ما يثير الاشمئزاز أكثر من

حشو الحياة في حلق أناس باتوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ولا يريدون الخدمة بعد الآن.

كان في القبو الكثير من الشموع وأضأت كمّية منها لتخفيف الظلمة. تمتمت أيضاً بلومنتاغ، ، بلومنتاغ مرتين، وازدادات رغبتي برؤية بلومنتاغ هذا الذي تتألم من أجله أكثر مما تتألم من أجلي. ثم تذكّرت أن بلومنتاغ هذا ما هو إلاّ يوم الزهور في اليهودية ولا بدّ أنها كانت تحلم بالمرأة التي كانتها. الأنوثة أقوى من كل شيء. لا بد أنها ذهبت إلى الريف ذات مرّة عندما كانت شابة وربما كان ذلك مع شخص أحبّته وبقيت ذكراه.

تركتها هناك وصعدت مجدداً لجلب مِظلّتي أرثور لأنني اعتدت عليها. ثم صعدت مرّة أخرى لجلب صورة السيد هتلر وكانت الشيء الوحيد الذي ما زال يؤثّر فيها.

فكّرت في أن السيدة روزا لن تبقى طويلاً في جُحرها اليهودي وأن رحمة الله ستدركها لأننا عندما تضمحلّ قوتنا تتولّد لدينا كل أنواع الأفكار. بينما كنت أنظر إلى وجهها الجميل تذكرت أنني نسيت مساحيقها التجميلية وكل ما كانت تحبّه لتكون امرأة فصعدت للمرة الثالثة على الرغم من أنني سئمت. لقد كانت متطلّبة حقاً، السيدة روزا.

وضعت الفراش إلى جانبها للمرافقة لكنني لم أتمكّن من إغماض عينيّ لأنني كنت خائفاً من الجرذان ذات السُمعة السيئة في الأقبية، لكن لم يكن هناك أيّ منها. لا أعرف متى نمت وعندما استيقظت كانت الشموع مطفأة. وكانت عينا السيدة روزا مفتوحتين لكن عندما وضعت أمامها صورة السيد هتلر لم تثر اهتمامها. كان من قبيل المعجزة أننا تمكنّا من النزول في حالتها.

عندما خرجت كانت الشمس في كبد السماء. بقيت على الرصيف فترة وحين كانوا يسألونني كيف حال السيدة روزا كنت أقول لهم إنها ذهبت إلى منزلها اليهودي في إسرائيل، وقد جاءت عائلتها لأخذها إلى هناك حيث تتوافر وسائل راحة حديثة وستموت هناك في وقت أسرع بكثير من هنا حيث لم تكن هذه حياة بالنسبة إليها. يمكنها حتى أن تعيش بعض الوقت أيضاً وتجعلني أذهب إلى هناك لأن لي الحق في ذلك، وللعرب أيضاً نفس الحق. كان الجميع سعداء لأن اليهودية حظيت بالسلام. ثم ذهبت إلى مقهى السيد إدريس الذي أكلت عنده بشراهة. وجلست قُبالة السيد هاميل الذي كان جالساً هناك قرب النافذة وقد ارتدى بُرنسه الجميل الرمادي والأبيض. لم يعد يرى مطلقاً، كما كان لي الشرف، لكن عندما قلت له اسمي ثلاث مرّات تذكرّني.

- آه، صغيري محمد، نعم، نعم، أتذكّره... عرفته جيّداً... ماذا حدث له؟

- هذا أنا، سيد هاميل.

- حسناً، حسناً، سامحني، لم يعد لي عينان...

- كيف حالك، سيد هاميل؟

ـ أكلت البارحة كوسكوساً طيباً واليوم الظهر سآكل طبق أرزّ بالمرق. لكن لا أعرف بعد ماذا سآكل في المساء، كم أودّ أن أعرف.

كان يضع يده كالمعتاد على كتاب السيد فيكتور هوغو وينظر إلى البعيد، بعيداً جداً من هنا، كما لو أنه يبحث عما سيكون عشاؤه هذا المساء.

ـ سيد هاميل، هل يمكننا أن نعيش بدون شخص نحبه؟

ـ أحبّ الكوسكوس كثيراً، يا صغيري فيكتور، لكن ليس كل يوم.

ـ لم تسمعني، سيد هاميل، قلت لي عندما كنتُ صغيراً إننا لا نستطيع أن نعيش بدون حبّ.

أضاء وجهه من الداخل.

ـ نعم، نعم، هذا صحيح، أحببتُ شخصاً عندما كنت شاباً، أنا أيضاً. نعم، معك حق يا صغيري...

ـ محمد، وليس فيكتور.

ـ نعم، يا صغيري محمد عندما كنت شاباً أحببت شخصاً، أحببت امرأة، كانت تدعى...

سكت وبدا مندهشاً.

ـ ما عدت أذكر.

نهضت وعدت إلى القبو.

كانت السيدة روزا في حالتها المعهودة. نعم، المعتوهة، شكراً سأتذكّر ذلك في المرّة القادمة. لقد حصلت على أربع سنوات دفعة واحدة وهذا ليس بالأمر السهل. يوماً ما سوف أتكلم بالتأكيد مثل أي شخص آخر، وهذا ما يجب أن يكون. لم أكن على ما يُرام وشعرت بالألم في كل مكان. ومرّة أخرى وضعتُ أمام عينيها صورة السيد هتلر

لكن ذلك لم يُجد نفعاً. فكرت في أنها يمكن أن تعيش على هذا النحو لسنوات طويلة ولا أريد لها ذلك، لكنني لم أملك الشجاعة لأجهضها بنفسي. كان مظهرها سيئاً حتى في الظلام فأضأت كل ما استطعت من الشموع لمرافقتها. ثم تناولت مساحيق التجميل ووضعت منها على شفتيها وخدّيها ولوّنت جفونها بالأزرق والأبيض والصقت فوقها نجوماً صغيرة كما كانت تفعل بنفسها وحاولت أن ألصق لها رموشاً مزيّفة لكنها لم تلتصق. لاحظت أنها لم تعد تتنفس لكن كان الأمر سيان عندي، حتى أنني أحببتها بدون أن تتنفّس. استلقيت بجانبها على الفراش مع مظلّتي أرثور وسعيت إلى أن أشعر بأنني أعاني أكثر لكي أموت تماماً. وعندما غمرني الظلام أضأت المزيد من الشموع أيضاً وأيضاً وكانت تنطفئ مراراً. ثم أتى المهرّج الأزرق لرؤيتي على الرغم من السنوات الأربع الزائدة التي حصلت عليها ووضع ذراعه حول كتفي. كنت أشعر بالألم في كل مكان وجاء المهرّج الأصغر ولم أعبأ بالسنوات الأربع التي كسبتها. أحياناً كنت أنهض وأضع صورة السيد هتلر أمام عينيْ السيدة روزا لكن لم تجدها نفعاً ولم تكن معنا. عانقتها مرّة أو مرّتين فلم يجد ذلك أيضاً. كان وجهها بارداً، وبدت جميلة جدّاً بكيمونها الفني وباروكتها الشقراء وكل المساحيق التي وضعتها على وجهها. حرّكتها قليلاً من جانب إلى آخر لأن لونها كان يصبح رمادياً ومزرقاً كلما استيقظت. استلقيت على الفراش إلى جانبها وخفت أن أذهب إلى الخارج حيث لا يوجد أحد. غير أنني صعدت إلى منزل السيدة لولا لأنها كانت شخصاً مختلفاً. لم تكن هناك والوقت لم يكن مناسباً. خشيت أن أترك السيدة روزا وحدها فلربما استيقظت وظنّت أنها ميتة وسط الظلمة. نزلت مرّة أخرى وأضأت شمعة واحدة لا أكثر فلن يسعدها أن تُرى في حالتها الراهنة. وكان ينبغي أن ألطخها بالمساحيق مرّة أخرى وكثير من الأحمر وألوان جميلة لكي ترى نفسها أقل ما يمكن. نمت

بجوارها. ثم صعدت مجدداً إلى منزل السيدة لولا التي كانت كل شيء ولا أحد، وجدتها تحلق وقد وضعت موسيقى وبيضاً في الصحن يفوح رائحة طيّبة. كانت نصف عارية وتفرك جسدها بقوة في كل مكان لإزالة آثار عملها وحين أصبحت عارية تماماً مع شفرة الحلاقة والرغوة على ذقنها لم تعد تشبه شيئاً معروفاً وهذا ما أفادني، عندما فتحت لي الباب ظلّت عاجزة عن الكلام لفرط ما تغيّرت منذ أربع سنوات.

ـ يا ألهي، مومو ما بك، أنت مريض؟

ـ أردت أن أقول لك وداعاً من قِبل السيدة روزا.

ـ أخذوها إلى المستشفى؟

ـ لا، ليس المستشفى، السيدة روزا هي الآن في حُجرها اليهودي.

ما كان ينبغي أن أقول لها ذلك، لكنني لاحظت على الفور أن السيدة لولا لا تعرف أين يقع هذا.

ـ ماذا.

ـ ذهبت إلى إسرائيل.

لم تكن السيدة لولا تتوقع ذلك حتى أنها بقيت فاغرة الفم، وسط الرغوة.

ـ لكنها لم تقل لي أبداً إنها ستذهب.

ـ جاؤوا لأخذها بالطائرة.

ـ مَن؟

ـ العائلة، لديها عائلة كبيرة هناك، جاؤوا لأخذها بالطائرة مع سيارة في تصرّفها، جاغوار.

ـ وتركتك وحدك؟

ـ سأذهب إلى هناك أنا أيضاً، سوف تستدعيني.

نظرت إليّ السيدة لولا ولمست جبيني.

ـ لا سأكون بخير.

ـ عجباً، تعال معي، هذا يفيدك.

ـ لا، شكراً، لن آكل بعد الآن.

ـ كيف، لن تأكل بعد الآن؟ ماذا تقول.

ـ أنا لا أكترث بقوانين الطبيعة، سيدة لولا.

ضحكتْ.

ـ ولا أنا.

ـ أنا احتقر قوانين الطبيعة تماماً، سيدة لولا. أنا أبصق عليها. قوانين الطبيعة مثيرة للاشمئزاز حتى أنه لا ينبغي السماح بها.

نهضت. كان لديها نهد أكبر من الآخر لأنها لم تكن طبيعية. أحببتها كثيراً، السيدة لولا هذه.

منحتني ابتسامة جميلة.

ـ ألن تأتي لتعيش معي، في الانتظار؟

ـ لا شكراً، سيدة لولا.

قرفصت بجواري وأمسكت بذقني. كان لديها وشمٌ على الذراعين.

ـ يمكنك أن تبقى هنا، سوف أعتني بك.

ـ لا شكراً، سيدة لولا. لديّ شخص بالفعل.

تنهّدت ثم نهضت وأخذت تبحث في حقيبتها.

ـ مهلاً، خذ هذه.

أعطتني ثلاثين فرنكاً.

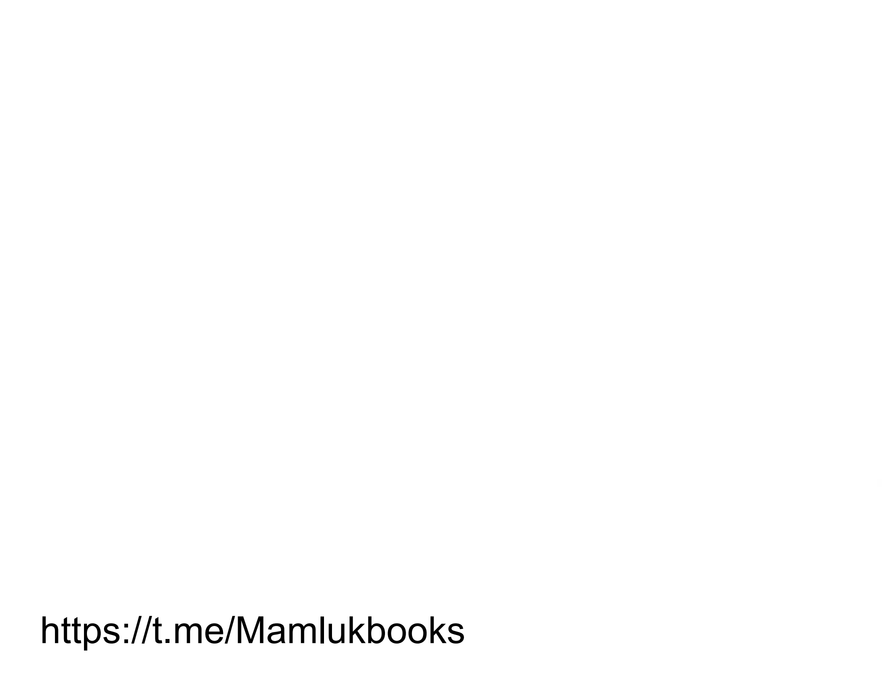
ذهبت لأشرب من ماء الحنفية لأنني كنت عطشاناً عطش الرب.

نزلت ثانية إلى القبو وحبست نفسي مع السيدة روزا في جُحرها اليهودي. لكنني لم أتمكن من الصمود. سكبت عليها ما تبقى لديّ من عطر لكن من جدون جدوى. خرجت وذهبت إلى شارع كونيه واشتريت ألواناً للرسم وقوارير عِطر من دكان العطارة المشهور لصاحبه السيد جاك الذي كان مثليّ الجنس وكان يتودّد إليّ دائماً. لم أرغب في أكل أي شيء لكي أعاقب الجميع لكنهم كانوا لا يستحقون حتى التحدّث معهم فالتهمت مقانق في مشرب بيرة. وعندما عدت وجدت رائحة السيدة روزا أقوى مما كانت، بسبب قوانين الطبيعة، فسكبت عليها زجاجة عطر ساما المفضل لديها، ثم صبغت وجهها بكل الألوان التي اشتريتها لكي ترى نفسها أجمل ما يمكن. كانت عيناها لا تزالان مفتوحتين لكن مع الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق لم يعد لديها أي شيء طبيعي. بعد ذلك أضأت سبع شموع كما هي العادة دائماً عند اليهود واستلقيت على الفراش بجانبها. ليس صحيحاً أنني مكثت ثلاثة أسابيع بجوار جُثة أميّ بالتبنّي. هذا ليس صحيحاً البتّة فلم أستطع الصمود لأنه لم يعد لديّ عِطر. خرجت أربع مرّات لأشتري عِطراً بالفرنكات التي أعطتني إياها السيدة لولا وسرقتُ مثلها. سكبت كل القوارير عليها ورسمت وأعدت رسم وجهها بكل ما لدي من ألوان لأخفي قوانين الطبيعة لكنها كانت تفسد بشكل رهيب من كل جانب لأنه لا توجد رحمة. عندما خلعوا الباب ليروا من أين تأتي الرائحة ورأوني راقداً بجوارها شرعوا في الصراخ النجدة، النجدة يا للهول لكنهم لم يفكروا في الصراخ من قبل لأن الحياة لا رائحة لها. نقلوني في سيارة إسعاف حيث وجدوا في جيبي قُصاصة الورق وعليها الاسم والعنوان. تلفنوا لكم لأن لديكم تلفون. ظنوّا أنكم شيء ما بالنسبة إليّ.

وهكذا وصلتم جميعَ وأخذتوني إلى منزلكم في الريف بدون أي التزام من قِبلي. أعتقد أن السيد هاميل كان محِقّاً حين كان لا يزال

محتفظاً بكامل عقله في قوله إننا لا نستطيع أن نعيش بدون شخص نحبه، لكني أعدكم بشيء. يجب أن نرى. أنا أحببت السيدة روزا وسوف أراها دائماً.

لكنني أوّد البقاء عندكم بعض الوقت لأن طفليكما طلبا مني ذلك. السيدة نادين هي التي أرتني كيف يمكننا أن نُرجع العالم إلى الوراء وأنا مهتمّ جداً بذلك وأتمناه من كل قلبي حتى أن السيد رامون ذهب بنفسه للبحث عن مظلّتي أرثور وجاءني بها وكنت قلقاً لأن لا أحد يريدها بسبب قيمتها العاطفية. يجب أن نحبّ.



هذا الكتاب

«... ذات مساء صعد السيد والومبا وجماعته إلى منزلنا عندما كانت السيدة روزا في غيبوبة وقد جلست مستديرة العينين في كنبتها. كانوا نصف عراة ومزيّنين بعدّة ألوان مع وجوه مرسومة كشيء رهيب لتخويف الشياطين الذين يجلبهم العمال الأفارقة معهم إلى فرنسا. جلس اثنان على الأرض وبأيديهم طبولهم والثلاثة الآخرون شرعوا في الرقص حول السيدة روزا في كنبتها. وكان السيد والومبا يعزف على آلة موسيقية خاصة بهذا الاستخدام طوال الليل وكان ذلك أفضل ما يمكن أن يُرى في بلفيل...».




ISBN 978-9922630311
9 789922 630311

الغلاف : سكينة صلوَن